

٧

بدر عبد الملك

الروليت الامريكي



اهداءات ٢٠٠٢

دار المدى

سوريا





سلسلة كتب تصدر عن

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشتراك:

٦٠ دولار في البلدان العربية

١٠٠ دولار في اوروبا والامريكيتين

العنوان

سوريا - دمشق صندوق بريد: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩



بدر عبد الملك

الروليت الأمريكي

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٢

الإهداء

إلى إنسان من بلدي...

إلى أحمد حارب مرجان...

الإنسان الذي ولد مع المعاناة

وعاش مع المكابرة...

ومات صامتاً ومكابراً

في يوم عاصف وممطر غريب.

مقدمة

لقد اهتمت الولايات المتحدة بالشأن الأفغاني بقوة وبجدية بعد غزو السوفييت أفغانستان ' فقد استشعرت أكثر خطورة اقترابه من منابع النفط والبحيرات الإنكليزية الدافئة ' هكذا كانت تسمى منطقة بلدان الخليج النفطية في زمن الشاه والمرحلة الكولونيالية . وهناك أسباب وحقائق تاريخية جعلت من الولايات المتحدة تهتم بالمجموعات الإسلامية المتنامية في تلك المرحلة ' فقد أولتهم كل رعايتها وأوصت بهم لدى الأصدقاء والحلفاء وذلك للحقائق التالية : أولا في الفترة ما بين ١٩٧٩- ١٩٨٩ كانت الولايات المتحدة مهتمة بإيقاف أخطبوط الشيوعية وخطورة تمدده إلي منابع النفط والتي لا تبعد عنه اكثر من ٧٠٠ كيلومتر . ثانيا قلق وانشغال الولايات المتحدة بالثورة الإسلامية الفتية في إيران ' والتي كانت في عهد الشاه تحتل مكانة خاصة في استراتيجيتها كحليف هام في الشرق الأوسط ' والأكثر من ذلك أن الحدثين الزلزالين ترافقا معا وفي التاريخ نفسه ' الثورة الإسلامية في إيران والغزو السوفيتي لأفغانستان . وتتابع اهتمامها ' الولايات المتحدة بسقوط الثورة في فخ الحرب العراقية -الإيرانية ومشاغلة الثورة بحرب استنزاف يساعدها على تحريك الروليت في أفغانستان ' وتحول باكستان

بمثابة الجدار العازل ما بين المنطقتين والمستودع الخلفي للمنطقتين إيران وأفغانستان . وكان للحرب في المنطقتين ' وحجم تأثيراتها كبيرة وواضحة ومؤثرة على الأسعار والتجارة الخارجية أهمها تجارة النفط والسلاح وعلاقته بالدولار وهو يتموج سعيدا في ظل الطفرة النفطية الثانية . ومن المعروف أهمية منطقة الخليج ومخزونه النفطي الهائل مع ممراته الحيوية كعصب عالمي ' عندما كانت مشغولة الولايات المتحدة بعد هزيمتها في فيتنام بجبهتين عالميتين مهمتين في تلك الحقبة ' مما جعلها توظف كل إمكانياتها وجهودها لكي لا تفقد مصادر الطاقة الضرورية لاقتصادها وأمنها القومي . لقد تم توظيف كل الأدوات في تلك الحربين الإقليميتين كجبهتين مهمتين وقريبتين ' إيران الثورة والنظام العراقي في بغداد ونظام كابل المدعوم بالغزو السوفيتي ' كل تلك الأنظمة المتباينة كانت تشكل اتجاهات سياسية معادية لها . المفارقة التاريخية هي الأكثر غرابة هو أن الولايات المتحدة عرفت كيف تحارب الجمهورية الإسلامية ومشروعها في تصدير الثورة وتلجم خطورته عن التمدد ' فالإسلام كمشروع أيراني يمثل لها خطرا معاديا ' بينما وظفت المشروع الإسلامي في أفغانستان كتعبئة وأيديولوجية مضادة للمقاومة السياسية والعسكرية ضد الغزو السوفيتي . هذه الحقيقتان ' حقيقة أفغانستان المقاومة بالمجاهدين 'وحقيقة إيران الثورة المعادية للشيوعية وللشيطان الأمريكي ' دفعت بالروليت الأمريكي أن يتحرك أولا تجاه أن لا يبقى الروليت الروسي في أفغانستان وقريبا من منابع النفط . تلك الحقيقتان حدث عليهما دوليا وإقليميا ' سلسلة من المتغيرات السريعة في فترة قياسية ' فما بين أعوام ١٩٨٩ - ١٩٩١ حدث الانسحاب السوفيتي من أفغانستان ثم وقع انهيار جدار برلين في ١٩٩٠ 'وخلق ذلك الانهيار تداعيات في البيت الأوروبي الشرقي ثم سقط الجدار الكبير أو الستار الحديدي في عام ١٩٩١ فانفرطت حبات المسباح بقوة بعد انقطاع الخيط السميك . من جديد انشغلت الولايات المتحدة ما بين فترة ١٩٩٠-١٩٩٩ بمشروع استراتيجي اكثر أهمية من الإرهاب الأصولي '

ألا وهو ضرورة تفكيك الاتحاد السوفيتي أفقيا وعموديا مع حرصها على عدم انفلات القدرة النووية نحو الفوضى ' بحيث تؤدي إلى كارثة عالمية من جراء ذلك الانفلات . وواصلت الولايات المتحدة وحلفائها الاوروبيين تفكيك المنظومة الشرقية كان من ضمنه بلقنة يوغسلافيا وتقاسم وتوزيع الميراث ' والتأسيس لمشروع نظام أوروبي وعالمي جديد لمرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة . فإذا ما انشغلت الولايات المتحدة في المرحلة الأولى بجبهتين مهمتين في الشرق الأوسط في الفترة ما بين ١٩٧٩- ١٩٨٩ فإنها في المرحلة الثانية ١٩٩٠-١٩٩٩ انشغلت بجبهتين عالميتين جديدتين ومهمتين ' الجبهة الأولى تمتد من عمق أراضى الاتحاد السوفيتي وتنتهي بحدود دول البلقان ' بهدف إعادة رسم خارطة جديدة لأوروبا المقسمة ودمجها استراتيجيا في حلف عسكري واحد في أوروبا الجديدة والديموقراطية ' والجبهة الثانية حرب الخليج الثانية ' والتي صاغت نتائجها مشاريع جديدة أخرى كمشروع الشرق أوسطية ضمن مشروع استراتيجي أوسع دوليا وهو النظام العالمي الجديد . في المرحلتين كانت منطقة الخليج حاضرة ولاعب أساسي ومهم في المعادلة الدولية للروليت الأمريكي والأسباب والدوافع معروفة ' ألا وهي الضرورة العالمية للنفط وأهمية مخزونه استراتيجيا للطاقة الدولية وللقوى العظمى والاستثمار العالمي وشركاته ما فوق القومية . وبتراجع هذه الجبهات واستقرارها النسبي كما خطط لها ' فإن الإرهاب الدولي بدأ يتصدر قائمة الأولويات ' ولابد من كسر ظهره وتعطيل مفاصله وقبره نهائيا مع العقد الأول من الألفية القادمة ' كما تم قبر منظومة كتلة كاملة كانت إمبراطورية الشر للولايات المتحدة ' ويصبح التيار الأصولي الإرهابي الدولي هو إمبراطورية الشر الصغرى ' وقد حان الوقت لاستئصالها . لذا بدأت معركة حقيقية مع طالبان وبن لادن منذ ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ بقصف المعسكرات ' وخلق وحدة خاصة لمكافحته ومتخصصة في شؤونه . فكيف ستنتهي في الشهور القادمة معركة الولايات المتحدة مع حركة طالبان لأسباب عدة ومن أهمها قضية تسليم

بن لادن ؟ كيف ستنمو العلاقات بالتدريج مع إيران ؟ كيف ستضغط وتتفق دول إقليمية مثل باكستان وإيران في موضوع أفغانستان وحربها الطويلة تحت إشراف ومباركة القوى العالمية وفي مقدمتها الولايات المتحدة ؟ التي تحسن اللعب بالروليت في هذا المثلث الملتهب والحيوي فمنه تمتد الأنابيب للممرات الدافئة في بحر قزوين ' ومن هذا المثلث نفسه يصب في البحيرة الدافئة ' وبذلك تصبح هذه المنطقة بعد أن تم تحجيم وإقصاء الدب الروسي من العبث بالروليت ' بحيث لا يسمح لأحد حق امتلاكه ' غير أنها لا تمانع لمن يرغب باللعب معها ' فدائما اللاعبين في هذه اللعبة لا يربحون من المغامرة بنفس القدر الذي يربحه من يمتلك الروليت ويعرف فن تدويره في الوراء .

"حتى لو كانت معك قوة فيل أو زئير أسد
السلام أفضل من لهيب الحرب "

الشاعر الإيراني
سعدي الشيرازي

الفصل الأول
أفغانستان

ثمار الخريف البعيد

قبل الانفجار المروع في منطقة الخبر بالمملكة العربية السعودية كنت اقرأ مقالة في جريدة الانترناشونال هيرالد تريبيون في عددها بتاريخ ١٩٩٦/٥/٢٧ كتبه جون لانكستر وكان العنوان مثيرا وهو "هوية منفذي عملية التفجير " تزعج السعوديين " وبين تاريخ المقالة وتاريخ انفجار الخبر ليس ببعيد . وهذا يجعلنا نتوقف قليلا عند بعض المعلومات التي أوردها جون لانكستر وسنقوم باقتباس ما ذكره والعهدة على الراوي 'غير انه مقال يثير اكثر من تساؤل حول أبعاد الإرهاب في المنطقة العربية 'بل وأبعادها في منطقة بلدان الخليج العربي . إن أهم ما ورد في مقالة لانكستر في أواخر مايو بأن المتهمين الشبان الأربعة – اعدموا– تحدثوا على شاشة التلفاز السعودي في شهر أبريل وأشاروا إلى انهم "كيف هربوا المتفجرات من اليمن " ثم ذكر " كان ثلاثة منهم قد التحقوا بالمسلمين الذين قاتلوا الجيش السوفيتي في أفغانستان في أواخر الثمانينات " وقال واحد منهم " انه قاتل إلى جانب المسلمين في البوسنة خلال الحرب في الجمهورية اليوغسلافية السابقة " .كما أشار إلى أن في "٢٩ مارس اعترض حرس الحدود السعوديون سيارة كانت تحاول الدخول من الأردن محملة بمتفجرات بلاستيكية " بل وذكر أن

بيان بث من على شاشة التلفاز في أبريل حذر فيه وزير الداخلية السعودي الأمير نايف قائلا " إن البلاد ليست محصنة ضد هجمات أخرى . وقال " إننا لسنا معزولين عن بقية العالم ' بل نحن جزء منه وأستطيع القول أن وطننا مستهدف " . كل هذه المعلومات استوقفتني كثيرا ، حالة التهريب من منافذ الحدود المختلفة وهي مناطق أيضا تتركز فيها القوة الأصولية ' بل وبالإمكان أن تعبر منها . وهناك حالة استشعار ملحوظ من الدولة بالخطر المحدق ' وهناك ربما أسلحة كشفت وأسلحة مرت ، وهنا يكمن الخطر في بلد واسع الأطراف . ولكن بالرغم من كل ذلك استوقفني اكثر ما جاء في المقالة حسب جون لانكستر ، إن " مسؤول سعودي قال أن التحقيق بدأ بمراجعة ملفات ١٥ ألف سعودي قاتلوا في الحرب الأفغانية التي كانت تربة خصبة لتوليد متطرفين إسلاميين " .فإذا ما سلمنا بضخامة حجم الملفات ' وبأن ثلاثة من المشاركين في الانفجار في مقر بعثة التدريب شاركوا في أواخر الثمانينات في القتال في أفغانستان ، فإن من البداهة أن ذلك الملف الضخم لم يكن هادئا في موطنه طوال تلك المدة ، إذ التفريخ استمر بين " الشبان " والذين القوا بأسلحتهم في أفغانستان لم يلقوا بعمل الدعاية والتحريض والتعبئة بين أروقة الجدران الصامتة ' فما يصدر علانية في المساجد والمنابر له وجه آخر بين البيوت والاجتماعات المغلقة . وهذا ليس بسر وإنما بديهية يعرفها رجال الأمن في كل أنحاء العالم ، وما تحذير وزير الداخلية السعودي إلا تحذير مبني على معطيات أولها الأسلحة التي اكتشفت في عملية التهريب ومصادرها ومموليها الخ من الأسئلة التي لا تنته عند رجال الأمن الذين يقلقهم ما يتسرب للبلاد وما يدور بين أوساط المتطرفين الإسلاميين . لن نعود للملف التاريخي لتحميل كل الأطراف التي دفعت بهؤلاء فترة الحرب الأفغانية - السوفيتية ، فقد كان يومها جهادا في سبيل الإسلام . وهؤلاء أنفسهم لقبوا بالمجاهدين ' اليوم تحول المصطلح إلى الإرهابيين . المفاهيم تحدث داخلها انقلابات مثلما تحدث انقلابات في الفكر والتكنولوجيا

واكتشافات العلم والمعرفة . ولكن الذين عادوا أواخر الثمانينات من أفغانستان إلى بلدانهم ، ترى هل استكانوا للراحة والحياة العائلية ومواصلة أعمالهم الاعتيادية أم تحولوا في بلدانهم إلى قوة جديدة من اجل بناء مشروع واسع وطموح ؟ التجربة في الجزائر ومصر والسودان واليمن والأردن وغيرها من الاقطار ، تدلل على مواصلتهم الجهاد داخل بنية مجتمعات إسلامية ، يظنون إنها لا تنسجم والمشروع الحلم والمرجو ، وقد منحتهم أحاسيس القوة وشعورهم بامتلاك المال الوفير والغطاءات الجيدة ، وزهوهم انهم هزموا دولة عظمى فكيف لا يهزمون دولا صغيرة ' ونسوا! أن العالم ليس ثابتا وتتحرك بوصلته في اتجاه واحد . ولكي نؤكد عدم هدوء الشبان المجاهدين ، فإن مصطلحا جديدا تولد بعد مصطلح الأفغان العرب" وهو مصطلح "البوسنيون العرب" . ذلك الطموح الإسلامي الشاسع عبر بوابة العنف ، كان شعارا جديدا لانبعاث المستقبل من خلال "الصحوة" فتمددت إلى داخل أوربا والولايات المتحدة وجزء من قارات أخرى ، يتمركز فيها الإسلام والمسلمين . واصبح المجاهدين في البوسنة أزواج لنساء بوسنيات مثلما حدث لباكستانيات وأفغانيات ' وهناك يتم بناء البؤر والإعداد والهروب والاختفاء في ظل المطاردة العالمية للإرهاب ، والتي وضعت خطوطها العريضة في مؤتمرات متلاحقة وسوف يتم التحرك الجدي في اتجاه فلسفة "الضرب بيد من حديد" . وفي الغرب هناك تحرك جدي حول المقاتلين العرب والمسلمين في البوسنة' حيث ترد معلومات عن انتشار أعداد منهم في الأقطار الأوربية ، وبعض منهم يتمركزون في البوسنة 'قراها وجبالها ومدنها ، مما يضع حكومة البوسنة القادمة أمام معضلة جدية . ولا نستغرب أن تطلب البوسنة منهم الرحيل الفوري أو تسلم منهم أسماء مطلوبة' بل وليس مستبعد أن تسلم ملفات بأسماء ربما جديدة لم تصل صورها لأرشيف أجهزة الأمن العالمي . إن مشهد الوطن العربي باعتباره قلب ومركز الإسلام فمن الطبيعي أن يولد اتجاهات إسلامية متطرفة ' اكتمل قوس التطرف بشكلين مع الحرب

الأفغانية وبعد الثورة الإيرانية ، مما ادخل العالم في مرحلة جديدة ونوعية مختلفة أربك أوراق العالم . ونحن في منطقة الخليج في كلا الفترتين ' حتى ألان كنا نضخ البشر والمال النفطي وكل أشكال التسهيلات تحت حجج مختلفة وتمويهات عديدة ، فكانت بلدان الخليج الممر والمعبر والممول' ولا نريد أن نطلب الكشف عن حجم التحويلات المالية للخارج منذ بداية الثمانينات ولا عدد المؤتمرات واللقاءات والوفود المبتعثة من بلدان الخليج صيفا للذهاب إلى باكستان ' ومن هناك إلى معسكرات التدريب والدعاية والتثقيف . لقد كان غالبية المدرسين الإسلاميين يذهبون في العطل الصيفية للتبشير بالإسلام في "باكستان الإسلامية " وتعليم الأفغان الإسلام في بشاور وقندهار . ومازالت تلك القوافل في بلدان مجلس التعاون ، تتسلل للمواقع الهامة عندما تجد ذلك ممكنا ' وتغطس تحت الماء عندما تتم المطاردات الخفيفة كإغلاق الأمكنة والمحلات . بل وهم اليوم من اكثر دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي طالما إنها تخدم الأهداف المرجوة ، غير أني اعرف أن السكاكين الحادة حول عنق الأبرياء في الجزائر وغيرها لا تعرف لا حقوق الإنسان ولا الديمقراطية ، حالما يتبوءون سدة السلطة ' بل ويمارسون اشدها وهم خارجها حيال المجتمع الذي لا ينسجم مع أطروحاتهم ، والنساء اكثر عناصر المجتمع عرضة لتلك القسوة تحت حجج لا أول لها ولا آخر . ألان تدور عجلة المطاردة فبعد انفجار الخبر تكشفت الأشياء بكل أبعادها ، بل ويذهب بعيدا رئيس وزراء الكويت الشيخ سعد العبد الله إلى قوله "إنه مؤشر خطير " وكأنه يبعث برسالته للمتطرفين الإسلاميين في الكويت قبل غيرهم ' مما يدفع بحركة " المجاهدين" سابقا و" الإرهابيين " حاليا بتغيير تكتيكهم بأسرع ما يمكن ، أبرزها الهروب بعيدا عن المياه الساخنة أو الغطس تحت الماء . هذا الاختفاء المؤقت لا يؤمن به رجال الأمن في العالم ، طالما بدت نيرانه تحصد الأخضر واليابس من قتل وتفجيرات ، مما يعني لدى منظور الأمن أن من الضروري "اصطياد السمك في الماء وإذا لا تستطيع اصطياد

السمك في الماء فإن من الضروري تنشيف الماء " . يظل العالم العربي بكل تاريخه الإسلامي والمحيط الجغرافي الإسلامي الواسع حول الوطن العربي ، بحاجة إلى الحكمة والروية والتدقيق للتمييز بين الألوان المتعددة داخل الحركة الإسلامية من أقصى التطرف إلى أكثرها محافظة واعتدالا . وتظل أيضا مسألة أخرى مجتمعية وسياسية من الضروري أن تلتفت لها الأنظمة ، وهي إعادة النظر في مؤسساتها وخطابها السياسي والديني مع الجمهور والمجتمع في عالم يموج بالتناقضات والإعلام المفتوح وتناقضات السلوك والثروة والمناهج التربوية في وزارات التربية والتعليم التي مسؤولة بدرجة ما بقولبة الإنسان في مجتمع عربي ومسلم ومحافظ . فما هو النهج المرجو اتباعه ، بحيث لا تثور البراكين بين حين وآخر وخصوصا البراكين الصامتة التي يجهل العلماء زمن انفجاراتها الكاسحة ؟ إذ من الضروري أن نتذكر أن الأفغان العرب" لا يميزون بين السوفيت ولا الأميركان فإن الفرق لديهم بين الاثنين هو في الدرجة وليس النوع ' فالسوفيت كانوا كفارا وملحدين وشيوعيين أما الأميركان فإنهم كفار وصليبين لذا تلتف الرشاشات من جهة إلى جهة أخرى جديدة ' تلتف من أفغانستان إلى البوسنة ، غير أنها تعود إلى مواقعها الأصلية بين جدران الوطن ومضارب العشيرة .

فيلم هوليودي في قندهار .

بين الفينة والأخرى وحسب تصاعد وأهمية الأحداث لدى المتتبعين للقضايا المثيرة للمغامرة

تلتقط سينما هوليود ومنتجيها القيمة السياسية والمالية لريع تلك الأفلام .ففي السبعينات أتحفت الجمهور بأفلام العنف لليسار في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط ، واحتلت المنظمات واختطاف الطائرات واجهة الحدث السينمائي ومشاهده المثيرة ، تشاركها أمريكا اللاتينية طليعة العنف السياسي والإرهاب من الزاوية الفنية .غير أن ظاهرة الإرهاب السياسي الجديد وسط الأصولية احتل مكانة خاصة في السينما الأمريكية فما عاد البطل "رامبو" وحده المميز ولا الممثل الشهير شين كونري المعروف بشخصية "جيمس بوند" العالم المثير للمطاردة .

فالخيال السينمائي ينتقل اليوم من التخيل المحدود إلى الواقع المحسوس كما أن أبطاله ليسوا شخصيات مصنوعة داخل استديوهات هوليود ، وإنما مدربة بين أروقة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . أما مشاهد حركة العدسة والتقاط الصور وفن الحركة والمطاردة ، فقد تحركت

بين الظهران وإسلام آباد ومقاطعة نانجاهار وقندهار . وغدا تنتهي في بقعة من بقع أفغانستان . وإذا ما حاولنا مشاهدة الفيلم وأبطاله والذين يصيغون السيناريو لوجدنا العجب يتبين من وراء الكواليس ، إذ ينقطع عنا المونتاج دائما ، فتبدو لقطة ناقصة على المشاهد ' وعليه تكميل تلك اللقطة بطريقته الخاصة .

فمنذ فترة وعد وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي الأسبق بمحاكمة المسؤولين عن انفجار الخبر ، وجاء ذلك في رسالة موجهة إلى القوات الأمريكية بمناسبة الاعتداء على قاعدة الظهران الجوية في السعودية في ٢٥يونيو ١٩٩٦ وقتل من جراء ذلك ١٩ أمريكيا وجرح ٥٠٠ آخرين بإصابات متفاوتة الحجم . وقد أكد وزير الدفاع عن أن مكتب التحقيقات الفيدرالي "يتقدم في جهوده للعثور على الإرهابيين" وفي الوقت ذاته رفض كينيث بيكون المتحدث باسم وزارة الدفاع "التعليق على سير التحقيق لكنه علق عن حالة اعتقال أحد المشتبه بهم أخيرا في باكستان" . وكان المقصود بذلك مير آمال خانزي "والذي كتبته بعض الصحف ، كانسي" مما يوحي بان اسمه قد يبدو أجنبيا بينما في الحقيقة خانزي ليس إلا مواطنا باكستانيا تحرك في لعبة ذكية أعد نص السيناريو لها ليس في هوليود وإنما في مبنى التحقيقات الفيدرالي .

ولكي نربط بين تواليات الأحداث وتداخلها مع وجود خبر مغر للتسليم بتقديم جائزة كبيرة لتسليم خانزي ورفيق دربه المجهول ' هكذا لم ترغب الوكالة إظهار كل الأخبار!! بل حولت الأنظار إلى توجيه التهمة إلى إيران بتورطها -ربما- بحادثة الخبر وتم ربطه بإبراز محاكمة ميكونوس ' بينما أبطال هوليود المختفيين يتحركون في اتجاهات أخرى . فهناك ترابط زمني وحدثي واختلاف جغرافي بين الشخوص ' غير أن السلة واحدة بثمارها وحاضنها المختفي ، فوكالات الأنباء والصحف قدمت لنا خبر تسليم هاني عبدالرحيم الصايغ من كندا إلى واشنطن وفي ذلك دلالات واضحة فالعملية تعني إكمال التحقيق وحماية "شاهد الملك" كما نعرفها في القانون أما محامي الصايغ مايكل ويلدز قال بأنه "

وصل إلى اتفاق سابق مع السلطات الأمريكية مؤكدا قوله " اعتقد أن الترتيبات تخدم مصالح الطرفين وضمان سلامة موكلي ومصلحة الحكومة الأمريكية في التحقيق في تفجير الخبر" واكثر من ذلك تؤكد الأخبار عن وجود "اتفاق سري بين القضاء الأمريكي ومحامي الصائغ والسلطات الأمريكية وتعبير السلطات هنا ضمير مستتر تقديره "هو" والمستتر دائما عبارة السلطات ، حيث الأمن في العالم يحبذ استخدام عباراته المحببة مثلما تعمل عبارة الدولة ، حينما تزيح أحد موظفيها بعبارة "تمت قبول استقالته لأسباب صحية" وإذا كانوا غاضبين عليه اكثر فإننا سنقرأ عبارة تمت إقالته مما يعني أن القرار كان فوقيا وليس إراديا برضا المقال .

هذا الخطاب الهوليودي ترافق مع صفقة المعلومات التي قدمها الصائغ ، باعتباره عنصر من عناصر العملية وعضو من أعضاء الشبكة . ولا نريد أن نعتمد على المخيلة السينمائية وإنما سنقدم رصدا للحدث والعملية ثم نقوم بربطها مع مجمل السيناريو .

أولا تم احتجاز الصائغ في كندا بتاريخ ١٨ مارس وتم اعتقال خانزي في مقاطعة نانجارهار بتاريخ ٢٠ مارس أي بعد يومين من احتجاز الأول . وقد سلمه بعض من أعضاء حركة طالبان . ثم نجد صمتا وتشويشا وأنباء متفاوتة عن سير التحقيق مع الاثنين في مواقع جغرافية متباينة . ومضى شهر أبريل ومايو -وهي حركة زمن الشريط السينمائي -بهدوء وفجأة في منتصف يونيو تظهر لنا الأخبار بعض الخيوط الغريبة من ضمنها كما ذكرته الصحف " إن الولايات المتحدة أبقت نبأ القبض على خانزي سرا ربما كجزء من الاتفاق مع العناصر الباكستانية والأفغانية التي سلمته " وتضيف الصحف "بأن المحققين كانوا في حاجة إلى بعض الوقت لاستخلاص بعض المعلومات منه قبل الإعلان عن وجوده داخل الولايات المتحدة بعد نقله إليها " . ثانيا تم تسريب خبر فرارخانزي من الولايات المتحدة وقد غادرها بسلام آمنين في رحلة جوية عادية إلى أوربا ومنها إلى دبي ثم باكستان و أخيرا إلى

أفغانستان ترى هل استطاع خانزي الهروب من أمريكا بقدرته الخاصة أم رتبت عملية الهروب من اجل أهداف غير معلنة ؟ وهو المعروف بملفه المشبوه بالارتباط مع الوكالة فقد جند بواسطتها في منتصف الثمانينات وتلقى على يدها تدريبات وتكتيكات في فن حرب العصابات في أحد المراكز التابعة للوكالة في ولاية ساوث داكوتا "للجهاد" ضد الاحتلال السوفيتي .

غير أن حكاية خانزي وإنهاء خدماته من الوكالة ١٩٩١وفتحه مطعم في نيويورك ، وتردده على بعض مفتشي الوكالة عام ١٩٩٢م تثير شهية كل مخرج سينمائي وكاتب سيناريوهات ، فالأخبار بعدها تنقلنا إلى انه نفذ عملية هجوم على مقر وكالة المخابرات بغرض الانتقام ! أما محاميه فقد قال انه "يعاني من جنون مؤقت !" . غير أن المسألة كانت واضحة وضوح الشمس للوكالة .

فهي بحاجة كما ذكرت إلى "معرفة المجموعات الإرهابية التي يحمل أعضاؤها جنسية عدد من الدول " لذا يصبح خانزي بطل المهمات الصعبة ، غير انه ليس مكان الثقة فهو شخص اسقط اسمه من ثقة رفاق الدرب ، فكان لابد للوكالة من اختراق المجموعات الإرهابية من جديد ، بعد أن فلتت من يد المخابرات الأمريكية في حادث الخبر ، فتم فتح ملف صاحب مطعم نيويورك المدرب والخبير في حرب العصابات والعارف لجغرافية أفغانستان وباكستان فتم حبك نسيج الهروب والهجوم لإعادة الثقة في رفاق الدرب الذين "هرّبوه ببساطة من الولايات المتحدة وبرحلة عادية" . لقد وصل خانزي إلى باكستان وأفغانستان لكي يقترب من الشخصية المهمة جدا والرقم واحد والمطلوب للوكالة وهو أسامة بن لادن .

ثالثا وبمراجعة بسيطة للغاية تم إقناع بن لادن قبل أسابيع بالموافقة بالظهور في مقابلة مع محطة السي ان ان . وبعد ترتيبات أمنية مشددة تمت المقابلة وكان رفيق الدرب من معدي المقابلة . بعدها حاول رجال

الوكالة" الكومندوز" اصطياد الاثنين معا بن لادن وخانزي غير أن بن لادن فلت من الكمين لشعوره الداخلي بأن الهارب من أمريكا ورجل الوكالة ليس مكانا للثقة مثلما هم الأفغان الذين خانوا صاحبهم مقابل جائزة مالية لإظهار الوكالة للعالم أن الصفقة ليست إلا صفقة شخصية ولا تمت لحركة طالبان نفسها والتي مازالت تصر على عدم تسليم بن لادن .
وبالرغم من أن الصفقة بين طالبان والولايات المتحدة يهدف من وراءها الاعتراف السياسي بحكومة طالبان وإن كنا ندرك أن الولايات المتحدة ليست بحاجة إلى صفقة تبرر الدعم الخفي والحقيقي للحركة وانتظارها السياسي للاعتراف بمراقبة تطور الأحداث الداخلية المتأرجح . وبين مأزق الولايات المتحدة الحقيقي في مطاردة الإرهاب والتعاون مع عناصره وحركته ونظامه "المؤقت" نكتشف صفقة قادمة لا ريب فيها ترتبط بحادثة الخبر ، وتنتهي عند حدود قندهار بتسليم الرقم واحد في الحركة وهو أسامة بن لادن ، الذي تحتضنه دول صديقة للولايات المتحدة ، في وقت يولول بوق بلد الحريات عن اهتمامها بحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب ! مثل هذا الحدث الهوليودي لا ندري أين ينتهي لكننا نتوقع من رجال الكومندوز التابعين للوكالة أن يتموا مهمتهم في أسرع وقت ، حيث سيلتقي شاهد الملك (الصايغ) ورفيق الدرب خانزي الشاهد الثاني ثم الرأس الأكبر الممول والقيادي الذي صمم فكرة هجوم مجمع الخبر وهو أسامة بن لادن . أما المستفيد السياسي من صفقة التسليم فهي أطراف عدة متخاصمة . طرف قبض دولارات نقدا وطرف ينتظر اعتراف سياسي بإظهار النوايا الطيبة ، بتسليمه دزينة من الرجال ، إما عن طريق ترحيلهم ثم يقبض عليهم في ارض ومكان آخر ، أو يسلمون بكل جلاء وتنتهي المرحلة التاريخية الأخيرة بطلاق الوكالة للإرهابيين ، غير أن طرف المعارضة الباكستانية لنظام نواز شريف وفي مقدمتهم بناظير بوتو تحاول استثمار الحدث باعتباره تم ومر عبر الأراضي الباكستانية بالمزايدة على موضوع السيادة واحترام القانون في باكستان ، بدلا من تحويلها إلى مرتع للجميع ، حيث أشارت بقولها بأن

من المحتمل أن تحدث عمليات مشابهة تقوم بها أجهزة الاستخبارات الهندية أو الموساد الإسرائيلي على أراضي باكستان . وكلا الجهازين لديهم مطالب بأعضاء منظمات "إرهابية" متعددة الجنسيات . فهل هناك اتفاق خفي بين الجميع بتصفية العدو المشترك مهما رأينا من اختلاف سياسي بين الأطراف المتعددة ؟ . ومع انتهاء -عاجلا أو آجلا- الفيلم الهوليودي في قندهار ندرك أن يهوذا باع المسيح بثلاثين قطعة من الفضة ، غير أن اليوم يباع رفاق الدرب "بحفنة من الدولارات" . ومعذرة للممثل الأمريكي كلاينت ايست وود باستخدامنا عنوان أحد أفلامه الهوليودية . كما أن الحياة لن تمكن شين كونري (جيمس بوند) من لعب الفيلم الجديد في قندهار . فلكل أفلام دولة ورجال .

الروليت الأمريكي في أفغانستان

بمناسبة تدشين افتتاح كازينو أريحا المبشر بالأرباح والتنمية المستقبلية ' وددنا أن نبارك بهذا المشروع "الوطني" و "السياحي" فذلك دليل للتطور الحضاري للسلطة الفلسطينية ورغبتها في إنجاز المشاريع التنموية المربحة ودليل آخر على تخلف دولة إسرائيل . إذ رحلت مثل ذلك المشروع إلى الأرض المجاورة حفاظا على " طهارة " الدولة العبرية من رجس القمار والميسر!! ومع كل الطهارة المفتعلة تظل على الأقل منسجمة مع التيارات الدينية ، التي من المهم استرضاؤها في هذه المرحلة وإلا فقدت حكومة نتانياهو ركيزة هامة من ركائز الدعم السياسي .

وبما أن عالم السياحة مرتبط بعالم الكازينوهات فلماذا لا يرتبط عالم السياسة بالروليت الدولي الذي تدور عجلته دون توقف في دنيا الاستثمارات ؟! . ويدور الروليت هذه المرة دون توقف في لاس فيجاس أو فيينا أو في أية بقعة من العالم ، غير أن الروليت في أريحا مختلف تماما ومتناقض من جميع النواحي ' حيث يقفز السؤال الخبيث من جانبنا ترى من الذي وافق على مثل ذلك المشروع ووقع على بنوده ؟

ومـا هو أيراد السلطة الفلسطينيـة من ذلك المشـروع "التنمـوي " " الخـدمـاتي " المربح ! ؟ وهل قـبض عـمـولة من وافق على مـثل ذلك المشروع ؟ سنترك السؤال الثالث يجيب عليه الشاعر طرفه بن العبد البكري الذي قال :" ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود " . ولكن أخبار الروليت الحقيقي ألان تدور في الولايات المتحدة حول قضية أفغانستان إذ تلتقي مجموعة ٦+٢ من اجل التفاوض حول قضية في منتهى الحساسية والخطورة ' فمن أفغانستان يندلع اللهيب ' ومن أفـغـانسـتـان تمرالانابيب النفطيـة المسـتـقـبلية وتتـحـرك في كل الاتجاهات شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . فكل أولئك المتفاوضون لديهم مصالح متفاوتة في ذلك المستنقع ، الذي يتحول أحيانا إلى كعكة شهية لم تطبخ بعد ولكن مواصفاتها طيبة وتحت القيد والدرس .

من يحرك الروليت ؟

يبـدو للذين شـاهدوا لعـبـة الروليت في الأفـلام السـينمـائيـة يتذكرون ، كيف تسقط الكرة البيضاء في الحفر المرقمة بعد دوران العجلة الدائرية ، مما يوحي للذين يشـاهدون اللعبـة عن بعد أو الذين يلعبون عن سذاجة ، أن للحظ نصيب كبير في نجاحهم . ومع ذلك لا يسمح للذين يلعبون إلا جني فتات من المائدة ' مائدة القمار ' فالحظ الحقيقي معدوم ' بل ومرهون بدفة تحكمه' وهي ابعد من قدرات الشخص الواقف أمامك وهو يحرك اللعبة ، وكأنه لا دخل له ' فيوهمك بأن الكرة وحـدها التي تحـدد الحظ للسـعـداء المحظوظين والمغـفلين أحيانا . بينما فـي الواقع هناك غرفة ورجال وراء الكواليس يديرون خيوط اللعبة والعملية الفعلية للحظ المنتقص ويقررون حجم نصيبك من الحظ والنجاح فلا يسمح لأحد بتخطى -حظه- بحيث تفلس المؤسسة الاستثمارية البالغة في الذكاء ومهارة الاحتيال . ومع ذلك فهناك مقدار من الحرية للأشخاص بالدخول في اللعبة أو عدم دخولها فلا إكراه في

اللعب . أنت وحدك تدخل بإرادتك وأنت وحدك تقرر الخروج . مبدأ "الحرية " متاح وكل الخيارات مفتوحة للإنسان بين طريق الشيطان أو الجنة كما تقول الحكمة المنسية في قاموس العصر .

هكذا سيتحرك الروليت الأفغاني في الولايات المتحدة ' وبين أروقة الأمم المتحدة ، فالعالم سيشاهد ثمانية دول تتحاور وتناقش القضية الأفغانية الملتهبة ، غير أن ما يدور وراء الكواليس يظل هو الأكثر أهمية ورجحانا ' فهناك تحاك المناورات وتساس المساومات وتعقد الصفقات السياسية وإلا لم يدع علي اكبر ناطق نوري رئيس مجلس الشورى الإيراني " الدول الصديقة في المنطقة إلى تمييز نفسها عن حركة طالبان وأن تتخذ مواقف واضحة وشفافة من الحركة " .ترى هل يخاف نوري من الدول الصديقة المجاورة أن يتخلخل موقفها ، بسبب مشاريع النفط وتدفق الاستثمارات من الدول العظمى ؟ فبين تلك الدول الست مصالح متشابكة ' وبين الدولتين –الولايات المتحدة وروسيا – صفقات غير معلنة في الموزاييك السياسي في منطقة القوقاز . وهناك رغبات مشتركة للجميع ، بأن تدخل سوق أفغانستان بعد تحديد علاقاته بعضها البعض ' ثنائيا وجماعيا ' دون السماح للولايات المتحدة التفرد بنصيب الأسد من الكعكة الأفغانية .

كيف ستدور كرة الروليت ؟

لقد حاولت إيران وتركيا ودول آسيا الوسطى بناء محور إقليمي جديد بعيدا عن هيمنة الولايات المتحدة وروسيا خلال السنوات الأخيرة ، نتيجة التقارب الثقافي والجغرافي والإحساس بضرورة الدخول في عالم التكتلات . لذا فإن القضية الأفغانية تصبح مشجبا لدول أخرى كالباكستان وأفغانستان للدخول إليه مما يعنى عبور البوابة الإقليمية بسهولة للعربات الأمريكية ودون تعب يذكر ، ويقل التأثير الإيراني في ذلك التجمع الإقليمي بعد أن كانت متوازنة مع جارتها تركيا في ذلك

التجمع . واستبعاد باكستان و أفغانستان من ذلك المحور يضعف الدور التركي في مواجهة إيران إن لم نقل يحجمه .فكلاهما ترغبان التأثير على دول آسيا الوسطى الإسلامية الخمس الجديدة ، بعد مرحلة التفكك من الاتحاد السوفيتي . فقد استبعدت أفغانستان في قمة اسطنبول في يونيو١٩٩٧ من مجموعة الثمانية ، كما إنها لم تدخل في المحور التركي والإيراني مع دول آسيا الوسطى .فأين سيكون موقعها في القارة الآسيوية وتكتلاتها الإقليمية ؟ فحركة طالبان مازالت تسعى للاعتراف الدولي بها وتتوق للمقعد الرسمي في الأمم المتحدة ، في وقت لم يحسم الصراع نهائيا في أفغانستان ولم تلق المعارضة بأسلحتها بعد . كل ذلك الروليت يدور الآن من اجل المساومة واسترضاء الدولة العظمى والوحيدة في العالم ' وبتحديد دورها في النزاع .

وتصبح لدى الأفغان – الطالبان – ورقتهم الخفية بأنهم سيمنحون الولايات المتحدة الأولوية في حجم الاستثمارات والاتفاقيات ويليها باكستان مقابل الاعتراف واستمرارية الدعم في حالة النزاع مع إيران في الأيام القادمة . بل ولن تتردد الحركة في التفاوض على تسليم بن لادن إذا وجدت نفسها كحبة البندق . وتدرك الولايات المتحدة إنها تمتلك فرصة تاريخية للمساومة على كل الأوراق ، بما فيها رأس يوحنا المعمدان . وهناك من يبيع بأكثر من أكياس الذهب ' غير أن في وقت الإفلاس فإن البيعة ارخص بكثير كما فعلت السودان مع كار لوس ' حيث لا أحد يبيع السلطة ويفرط فيها مقابل رؤوس أشخاص مطلوبون للمجتمع الدولي تحت حجة الإرهاب ' وخصوصا أن الولايات المتحدة تدعي إنها تقود العالم ضد الإرهاب . تلك الازدواجية ستكون نقطة تفاهم جوهرية بين إيران والولايات المتحدة .

من هنا ندرك لماذا احتفظت الولايات المتحدة بفكرة عدم وصم منظمة مجاهدين خلق حينذاك بالإرهاب ' إن لم تدرك قيمة التفاوض عليها ومن ثمة التفاوض على مستقبل العلاقات القادمة بين حكومة خاتمي وإدارة كلينتون ، التي سعت في السنوات الأخيرة إلى مد

جسورها وقنواتها بشتى الطرق . والآن جاءت الفرصة التاريخية - والتي ربما تم خلقها - لكي تعود الولايات المتحدة للسوق الإيرانية وإنعاش التنمية والاستثمارات الضخمة فيها . هناك أضواء من كل الأطراف في الروليت الأفغاني ' وهناك ربما مشاريع تقسيم أفغانستان إلى شمال وجنوب في حالة استمرار النزاع أو في حالة الإخفاق في تشكيل حكومة ائتلافية في ظل توازن القوى بين الطرفين . ذلك هو أحد السيناريوهات الممكنة في زمن البلقنة ' وفي زمن تهيئة كردستان القادمة فيما لو حاولت إيران والعراق الدخول في معركة جديدة مع الولايات المتحدة ، فإيران تدرك بأنها غير قادرة على فتح جبهتان معا ' مثلما ليس بإمكان العراق الآن فتح جبهة مع تركيا والولايات المتحدة ألان . الروليت يتحرك والكرة البيضاء تدور . أما أين ستقع الكرة فإن ذلك مرهون بمن يديرون اللعبة من وراء الستارة السوداء . إذا اشتعلت الجبهة الإيرانية الأفغانية واستمرت بعض الوقت فإننا سنجد مشاريع دولية جديدة تخرج للنور . والتوتر الحالي بين إيران وطالبان يستجيب لنزعة التطرف الموجودة في خط التشدد داخل إيران ، مما يجعل الوضع الداخلي متناقض في اتجاهين متعاكسين ، إما المصالحة بين التيارين من اجل الجبهة الخارجية وإما انقسام إيران إلى جناحين داخليا ، فتضع تلك الخيارات الصعبة حكومة خاتمي أمام الأمر الواقع وتحدياته . إن التراجع عن الحرب كارثة وطنية والدخول فيها كارثة وطنية اكبر' فكيف سيمسك خاتمي بكرة النار في لعبة الروليت الأمريكية ؟

السعودية وطالبان
والقرار الموجع المفاجئ .

يأتي قرار المملكة العربية السعودية بتجميد علاقاتها مع حركة طالبان حدثا صارخا في الوسط الدبلوماسي ' إذ غادر القائم بالأعمال الأفغاني في الرياض مولوي شهاب الدين بعد أن طلبت منه الجهات السياسية المختصة بالمملكة المغادرة فورا ' كما إنها في الوقت نفسه ، سحبت القائم بإعمال السفارة السعودية في أفغانستان . مثل هذا القرار المفاجئ لابد وان يثير الكثير من التساؤلات في الأوساط المختلفة ' السياسية والإعلامية ' وخصوصا أن التجميد جاء مع فترة محددة من حيث ، التوقيت أولا حيث تلازم ذلك مع جولة ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبد الله بن عبد العزيز إلى كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، وفي كل الجولات تم إثارة قضايا دولية ساخنة ومن ضمنها قضايا المنطقة وأمن الخليج والوضع في أفغانستان والسياسة الجديدة لإيران في ظل حكومة خاتمي . والحديث عن الأمن العالمي يقود بالضرورة الحديث إلى موضوع المخدرات والإرهاب الدولي . ثانيا : يأتي تجميد العلاقة مع الدورة ٥٢ للجمعية العامة للأمم المتحدة . والتي

أثيرت فيها مسألة الإرهاب بشكل واضح وخصوصا انه يترافق مع تورط حركة طالبان في خرقها للأعراف الدولية واغتيالها موظفين رسميين للأمم المتحدة وقتل الدبلوماسيين الإيرانيين . ثالثا : يترافق التجميد مع التوجهات الجديدة لدول الاتحاد الأوروبي وعلى رأسها المملكة المتحدة في إعادة النظر في الجماعات الإسلامية المتطرفة وتشريع قوانين بريطانية ضد الإرهاب تسمح للسلطات البريطانية باعتقالهم وتسليمهم لدولهم . مثل تلك التشريعات الدولية حيال الإرهاب لابد وان تقود المملكة لمثل ذلك القرار' والتي سعت المملكة مع نظيراتها الدول العربية في الضغط على بريطانيا ، لكي تعيد النظر بتلك الجماعات التي تستخدم أراضيها ، بعد أن منحت بعضهم حق اللجوء السياسي ' غير أنهم وظفوا تلك الحقوق في أعمال مخالفة .

فمثل تلك القوانين ' تم استغلالها بصورة إرهابية بعد ما تحولت بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية الى ساحة مفتوحة للنشاطات اللاشرعية والعنيفة والمخالفة للقوانين البريطانية وتقاليدها المجتمعية . ولكي تنسجم المملكة مع ما يدور في العالم من ملاحقات للإرهاب لابد وان تتخذ إجراءات مماثلة مع حركات ودول متورطة بنفس النهج الإرهابي رابعا : شكلت المعلومات المتجمعة عن نشاطات بن لادن منذ حادث تفجير الخبر ، مرورا بالتصريحات المتشددة في النصف الأول من هذا العام ، عن أنه سيطارد الولايات المتحدة وجميع حلفائها ' وسيفاجئ الجميع بأعماله في موسم الصيف بعد أن شكل " منظمة دولية " للجهاد الإسلامي . وعندما وقع حادث التفجير في كل من نيروبي ودار السلام وخروجه للإفصاح المعلن وتصديره البيانات بأنه يقف وراء تلك التفجيرات ' بل ويعود مفاخرا بأنه كان وراء حادث الخبر . كل تلك الاستفزازات لم تخرج المملكة من صمتها وإنما واصلت جهودها بهدوء في تجميع المعلومات من الدول الأخرى . وأخيرا اقتنعت المملكة بأن هناك عدد من المشتبه بتورطهم في اعتداء الظهران في عام ١٩٩٦ يختبئون في أفغانستان تحت مظلة الحماية التي يوفرها لهم بن لادن .

مثل تلك المعلومات التي بدأت تتجمع خيوطها بشكل كثيف بعد أحداث الصيف وتوتراتها ، كانت لابد وان تدفع المملكة بالحديث مع حركة طالبان حول " النمر السعودي في قفص أفغانستان " . ولم تصرح المملكة في الإعلام الرسمي عن ماذا كان يدور بين الطرفين بصدد بن لادن . غير أن انفجاري نيروبي ودار السلام كشفت عن بعض التصريحات من طرف حركة طالبان تفاوتت حدتها وقوتها ' بل وتناقضت إلى ابعد الحدود . وقد ظهر ذلك اكثر جلاء بعد ضرب الولايات المتحدة لمصنع الشفاء قي السودان ومعسكر التدريب في أفغانستان . ففي البداية صرح المسؤولون في طالبان بأنهم لن يسلموا بن لادن ' والأكثر من ذلك أبدوا استعدادهم في الدفاع عنه مهما كلف الثمن ' ثم تراجعوا بعد فترة في بيانات اقل حدة بقولهم " أن بن لادن لا يستخدم أراضي أفغانستان كمقر للأعمال الإرهابية " .وتراوحت التصريحات بين المطاطية والتملص والاستنكار للدور الحقيقي لابن لادن ، والذي تجمعت خيوط الاعتراف والرصد والبيانات عن دوره في إدارة وتحريك عناصر وخلايا في مناطق متعددة من العالم حسبما أوردتها الوكالات ووسائل الإعلام .

الوجع المفاجئ.

لقد كانت ضربة موجعة لحركة طالبان مسألة تجميد العلاقة لتميز العلاقة التاريخية مع حركة طالبان ، لذا أعرب الناطق بإسمها عن "الأسف العميق " لقرار السعودية ' والأسوأ من ذلك أن الحركة " لم تتوقع هذا من دولة صديقة مسلمة مثل المملكة العربية السعودية " . وحاول الناطق الرسمي تضليل نفسه مثلما يرغب تضليل الرأي العام ، حيث أن " أسباب القرار السعودي ليست واضحة . وهناك الكثير من الاحتمالات إلا أننا لا نعرف السبب بالتحديد "! . إلى هنا والحديث بحاجة إلى الدخول في مكامنه كما يتم الدخول إلى عالم النص وإعادة

تفكيكه . لقد شكلت جولة ولي عهد المملكة عبد الله بن عبد العزيز كدولة لها مكانتها في العالم بشكل عام وتحديدا اكثر في العالم الإسلامي فإنه أراد أن يزيل الصورة القاتمة والخاطئة عن الإسلام لدى دول كثيرة بسبب ما سببه الإرهاب الأصولي من إساءة . مثل تلك الرسالة في الجولة السياسية الأخيرة كانت واضحة ' وابرز دلائل ذلك هو ما قامت به المملكة في قطع علاقتها مع طالبان لتزيح من أذهان العالم ، بأنها ليست على استعداد بدعم هذا النوع من " الحركات الإسلامية " الموصومة بالإرهاب . ومن المحتمل أن الخلاف الحقيقي الواقف وراء قطع العلاقة ، هو أن المملكة لابد وأنها طلبت بن لادن لمحاكمته مثلما طلبت تسليمه الولايات المتحدة ' أو ربما معا طلبتا بن لادن باعتبار أن حادث الظهران أصاب الطرفين معا . ونميل إلى أن حركة طالبان رفضت الطلب نتيجة أن مراكز القوة في الحركة وقياداتها اكثر التصاقا بأبن لادن .

والورطة الكبرى هذه المرة أن لا ارض ولا سماء قادرة على استقبال رجل مثله ، وأمامه أحد الخيار ين إما الاستسلام أو المقاومة والموت بطرق مختلفة . لذا تم تسريب خبر لإيهام الرأي العام أن بن لادن موجودا في فنزويللا وكان ظريفا طبيعة الخبر وظريفا من قام بترويجه لأسباب شتى . والورطة الكبرى الثانية أن حركة طالبان معرضة للانشقاق والاختلاف بخصوص الموقف من بن لادن وخصوصا أن الحركة تمر بظروف قتال قادم ' شرس وبحاجة إلى تمويل ومساعدات . وستكون الحركة ما بين خسارة الحلفاء القدامى مثل الولايات المتحدة والمملكة – وربما في الأيام القادمة – باكستان ' والتي تلوح بأنها ستقف على الحياد مع النزاع الإيراني –الأفغاني ' فهي بدورها لا تستطيع أن توتر علاقاتها مع الولايات المتحدة والمملكة ودول العالم قاطبة من اجل "عيون طالبان" . ودخلت حكومة نزار الشريف المأزق في تحديد رأيها بصورة نهائية حول الحركة وموضوع الإرهاب وقضية بن لادن . وتدرك بشكل واضح حركة طالبان إنها بدون سند إقليمي

وعالمي عسكريا وماليا فإنها لن تستطيع أن تحسم حربها مع المعارضة الأفغانية ' بل على العكس من ذلك فإنها معرضة للخسائر بما فيها خسارة المواقع الجغرافية التي انتزعتها . فإذا ما رأينا أن حركة طالبان بدأت تخسر دبلوماسيا وسياسيا ' الاعتراف بشرعيتها ' وخصوصا بعد تجميد علاقات المملكة معها 'فإن الأيام القادمة لربما تكشف عن عزلتها كليا بعد انتهاء بعثة التقصي المرسلة من الأمم المتحدة للتأكد من الإبادة الجماعية . هذا الامتحان الدولي العسير أمام طالبان يفقدها المصداقية بشرعية حركتها وانتصاراتها العسكرية ' والتي مرشحة للتراجع والانكسار طالما الأصدقاء سينفضون أيديهم عنها .

لحظتها ستقف الحركة في منتصف الطريق بين خيارين الإذعان للضغوطات الدولية ' حسب نوعية المطالب ' فلدى إيران شكواها ولدى السعودية جروحها ' ولدى دول الجوار مخاوفها ولدى الولايات المتحدة همها الأكبر وهو مطاردة الإرهاب . الجميع يطالب حركة طالبان باستحقاقات محددة تبدأ بالمخدرات وتمر بتسليم قتلة الديبلوماسيين وتنتهي عند الكنز المدفون في كهف قندهار ' حيث يعيش محبوسا النمر السعودي في قفص العزلة بينما أظافره مدفونة في أمكنة كثيرة من العالم يتم التفتيش عنها بعجالة . عند هذه المحنة والوجع المفاجئ تمر حركة طالبان في اصعب لحظاتها بين البينين ' فنتذكر شعر أبو فراس الحمداني في معركته وخياره بين الفرار أو الردى . والردى لم يكن إلا الوقوع في الأسر أو الموت . وكان حظ أبو فراس السجن بعد أن وقع في الأسر . فهل ننتظر في الشهور القادمة اصطياد النمر وتسليمه لكي نشاهد أهم محاكمة في بداية القرن الواحد والعشرين أم ينتهي بموتة شجاعة مع رفاقه الطالبان في الصراع ضد المعارضة الأفغانية . وموت الأبطال والشهداء في التاريخ لدى مؤيديهم ، يتحول إلى رمز لعالم الأيقونات الخالدة ، غير أن التاريخ سرعان ما يحطم الأيقونات نفسها .

الغبار واللهيب في أفغانستان .

رجحنا في مقالتنا في الأسبوع الفائت والمكتوب تحت عنوان "الحشود الإيرانية والفخ الأفغاني " عن أن مصير الديبلوماسيين سيكون القتل وان دوافع القتل الغامضة اقرب إلى سياسة التصعيد منها عن أسباب الفوضى والكراهية ' وخصوصا أن حركة طالبان لا تجهل العرف الدولي حول حصانة الديبلوماسيين ' بل وكانت تدرك أن من الأفضل الاحتفاظ بهم كورقة للتفاوض ' ولكن يبدو أن الذين قتلوهم أو نفذوا قرار القتل يدركون مدى فداحة ذلك السلوك ' ومع ذلك لم يتراجعوا عن تنفيذه . وستكون حركة طالبان عرضة للاستهجان الدولي والاستنكار العالمي في كلتا الحالتين ' حالة تعمد القتل أو تجاهله وجهله للأعراف مما يضعها تحت ميزان التقييم الدولي من جديد بعد تلك الممارسات .

ويأتي فعل قتل الديبلوماسيين التسعة وتصفيتهم عمدا في وقت تحاول بعض الدول المؤيدة لهم إخفاء رأسها في التراب ، مثلما تفعل النعامة لما ترتكبه حركة طالبان من إبادة وقتل . وقد استنكرت دول عدة ومنظمات دولية بما فيها الأمم المتحدة ذلك السلوك العدواني العنيف ، حيال المدنيين في مزار الشريف ، والى محاولة إبادة بعض

الاقليات العرقية كقبيلة هزارة . مثل تلك الفوضى الضاربة أطنابها في الحروب الأهلية تقود عادة إلى حالات إبادة وتطهير عرقي ومذهبي إلى جانب تجاوزات تتخطى الأعراف والقوانين الدولية ، مما يعني وضع منظمة الأمم المتحدة من جديد في أفغانستان أمام المحك . وقبل أن تشتبك إيران وجيوشها الحاشدة مع حركة طالبان ، نراها تمارس ضبط النفس إذ انتظرت أولا نتيجة التقصي عن مصير الدبلوماسيين ، ولما وصلها خبر موت تسعة منهم تحول خطابها الرسمي إلى مناشدة حركة طالبان بتسليم الجناة لمقاضاتهم ومحاسبتهم في إيران . فماذا يعني ذلك الطلب للحكومة الإيرانية ؟ أولا في حالة رفض حركة طالبان تسليم الجناة فإنها تضيف إلى سجلها إدانة إضافية بأنها حركة تمارس خرق الأعراف الدولية فتكسب إيران في هذه الجولة الدبلوماسية من الصراع تأييدا دوليا ، ويحقق لادعاءاتها مصداقية ' ويزيد من حالة عزلة حركة طالبان دوليا ويصّعب حالة الاعتراف بها . ومن جهة أخرى يزداد شك المجتمع الدولي بأن الذين قتلوا الدبلوماسيين ليسوا عناصر فوضوية نفذت العمل بمفردها ' كما انهم ليسوا بالضرورة عناصر باكستانية متطرفة تقاتل في صفوف الحركة .

أما في حالة نجاح إيران في استلام – وهذا أمر نستبعد تحقيقه – مجموعة صغيرة تقدم ككبش فداء ' إلى إيران لمحاكمتها لكي تخفف حركة طالبان من الضغوطات الدولية ' وتتملص من ورطتها ' فلا نستغرب بأن تسلم مجموعة ليست هي التي ارتكبت عملية القتل . وهناك احتمالات أن تسلم عناصر مسجونة في أفغانستان بتهم إجرامية إلى البعثات الدولية على انهم الجناة في حالة قبول حركة طالبان ببعثة التقصي وتسليم جثث الدبلوماسيين . وإذا ما استلمت إيران المجموعة المقتولة والقاتلة ، فإن فحص الجثث ومحاكمة الجناة ستكشف عن فضائح الجريمة وطريقة القتل . ولابد أن حركة طالبان ستقّيم الآن بشكل جدي خسارتها الإعلامية والسياسية والدولية ، من جراء قتل الدبلوماسيين الإيرانيين في أراضيها أثناء دخولها مزار الشريف .

وتوجه إيران أصابع الاتهام إلى تورط باكستان في دعمها ومشاركتها برجال منها مع حركة طالبان . ولن تنتظر الحكومة الإيرانية طويلا المماطلة حول تسليم الجناة ، وإنما ستقرر بسرعة ضرورة استرداد الجثث مع مواصلة الضغط دوليا حول شرعية مواقفها في الدفاع عن مواطنيها . ومع التحرك الإيراني دوليا من اجل انتزاع التأييد في أروقة الأمم المتحدة ' فإننا في الوقت نفسه نراها تتحرك في حشد جيش قوامه اكثر من مائتين ألف جندي على الحدود الطويلة المتاخمة لأفغانستان من الجهة الشمالية الشرقية . والرقص كما يقولون لا يبدأ إلا بقرع الطبول . لذا مؤشرات الحرب والتدخل لا تبدأ إلا بالحشد العسكري أحيانا . لقد بدأت الخطابات الرسمية الإيرانية تتعدد بأشكال متباينة ' وبين لغة رئيس الدولة المرنة ولغة الحرس الثوري المتحمسة ، يطلق رجالات الجيش والاستخبارات الإيرانية مفرداتهم الموحية ذات الدلالة والتي تعبر عن اقتراب لحظات المواجهة الساخنة . وهذه المرة لن نشاهد غبارا كالمعتاد ولا لهيبا كالمعتاد وإنما حريق وكوارث عنيفة في المواجهة والقتال ، فهي تعبر هذه المرة عن صراع مصيري في الأراضي الأفغانية أهدافها ودوافعها معروفة ، غير أن نهاياتها لازالت في المجهول ' هذا أن لم تكن في بداية الطريق المتعرج .

أفغانستان غابة متوحشة .

من السهل أن نحرق الغابات ومن الصعوبة إطفاء الحريق ، وخصوصا عندما تهب الريح العاصفة فهي وحدها تلعب بالنار وتطوح بالأشجار . وما سيحدث هذه المرة في الغابة الأفغانية المتوحشة أن للأطراف جميعها أصدقاء ' وللأطراف جميعها عناصر بشرية ' وللأطراف جميعها أيضا مخازن من الأسلحة المكدسة . وما قاله الرئيس رباني حول السماح للاجئين الأفغان بالمرور من الأراضي الإيرانية له دلالته ' والأكثر من ذلك ، قدرته على حشد مائة ألف مقاتل من مجموع أولئك اللاجئين . ودخول

مائة ألف مقاتل أو نصفهم معناه استمرار الصدام وتأخير حركة طالبان في حسم الصراع الدائر حاليا ' ومن ثمة تعليقه إلى أجل مسمى ، بحيث تتحرك بين التفاوض السياسي والنزاع العسكري إلى أن يستنزف الطرفان نفسيهما . وسنجد هذه المرة أن الداخلين للغابة الأفغانية المفترسة سيكونون أيضا عناصر مقاتلة من كل الأطراف ، وسيلبسون ملابس أفغانية ويقاتلون مع المعارضة ' فالجميع في مثل تلك الحرب يرتدي الملابس المحلية من اجل إخفاء الهويات المتماثلة .

وتأتي جولة رباني الأخيرة إلى إيران وتركيا وطاجيكستان وتركمنستان بهدف الحصول على الدعم المادي والسياسي والعسكري لحكومته ' طالبا من تلك الدول أن تقدم كل أنواع الدعم في حرب المواجهة ، فهي من جهة - حكومة رباني - ستطالب تلك الحكومات بخنق تجار المخدرات القادمين من أفغانستان عبر أراضيهم ، ومن جهة أخرى السماح بمرور المقاتلين والعتاد لإسناد المعارضة الأفغانية وتعزيز صمودها ومواقعها واسترداد الأماكن التي خسرتها في المعارك الأخيرة . وبحثا عن إعادة التوازن بين قوى الطرفين في بداية المعارك - على الأقل في أسبوعها الأول - فإن تحسين مواقع المعارضة يظل هو الهدف الأساسي في مناطق شمال أفغانستان بما في ذلك تحديدا شمال كابل العاصمة . إن اشتعال الغابة بين الأطراف المتنازعة لن تخمد مناشدة الأمم المتحدة حريقه . وعندما تبدأ الغابة بالاشتعال في مهب الرياح ' لن يكون التحلي بضبط النفس مجديا لإيران ' فقد بلغ السيل الزبى في قمة المجتمع الإيراني وقاعدته ' وتصاعدت أدخنة تلك الغابة المحترقة من ارض أفغانستان ' والتي لم يبق منها إلا أشجار قليلة تنتظر الاحتراق !!

أعواد الدخان المختبئة

لم يكن النزاع بين إيران وباكستان وليد اللحظة ' فالتوتر في

المنطقة بعيد المدى منذ الثورة الإيرانية . وظلت العلاقات متقلبة و متوترة بسبب الموضوع الأفغاني والكشميري ، كما تميزت العلاقات الجيدة بين إيران والهند خصوم باكستان وعلاقات باكستان الجيدة مع الولايات المتحدة ، خصوم إيران كجزء من دائرة الصراع والتحالفات والتنسيق الإقليمي . تلك الكرة المطاطية ما عادت قادرة على المرونة لوقت أطول بسبب المتغيرات العالمية وانعكاسها على المنطقة . لقد توالت في السنتين الأخيرتين حالة شد متناهية ' فمنذ أول فبراير من عام ١٩٩٧ وحتى نهاية فبراير ١٩٩٨ اغتيلت عناصر إيرانية في باكستان ، مما جعل الدخان يرتفع بين أعواد القصب الجاف والقش . بعدها حدثت هجمات متكررة على المراكز الثقافية الإيرانية في كل من لاهور وملتان . وأعقبها في شهر سبتمبر ٩٧ اغتيال خمسة من الفنيين العاملين بالجيش الإيراني في مدينة راولبندي . وفي أوائل مارس ١٩٩٨ تعرض إيرانيين للاعتداء في مدينة كرا تشي من قبل عناصر مجهولة بدوافع سياسية .

ونتيجة لتراكم تلك الاعتداءات المتكررة وجهت إيران الانتقادات لحكومة باكستان محملة إياها الفشل في اعتقال المسؤولين عن تلك الحوادث . وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان يدركان طبيعة الاعتداءات ومن يقف وراءها ، فإن الطرف الباكستاني ' والذي وقعت الاعتداءات علي أراضيه ' تملص من مسؤولية أعمال العنف المتكررة محاولا تحويلها وتأويلها على إنها من أعمال جهات أجنبية ترغب في الإضرار بالعلاقات الباكستانية – الإيرانية . ولم تكن الجهات الأجنبية المعنية في ذلك التبرير إلا الهند الخصم اللدود للباكستان . على هذا المنوال من الشد والجذب بين البلدين ' تواصلت المعارك الديبلوماسية المستترة وتم دفن القنابل الموقوتة حتى إشعار آخر . واليوم ينتقل برميل الزيت إلى أفغانستان لإشعال الحريق الدامي هناك .

وعندما ينتشر الحريق في الغابة الأفغانية فإن الرياح المتسارعة والعنيفة ، ستنقله بقوتها أيضا إلى المدن الباكستانية في حالة تبلور

النزاع إلى حالة حرب ومواجهة ، وتحوله واتساعه من موضوعه السياسي إلى جذوره الطائفية . ساعتها ستدخل المنطقة بشوارعها ومدنها في حريق أوسع مما نتصور ' قد يمتد من العراق ولبنان وينتهي بدول آسيا الوسطى ، وغيرها من المدن المستقرة على ضفاف الخليج ' والغير بعيدة عن غابة النزاع وتوتراته المحرقة . اليوم الجميع ممسك بيده اليمنى أعواد الثقاب وبيده اليسرى صفائح الكيروسين ' ولا ينتظر إلا لحظة إشعال الغابة ' تلك الغابة الأفغانية التي دام حريقها لعقود وتنتظر إحراق الشجيرات المتبقية في أودية الجبال الرمادية القاسية . فهل ستصمد هذه المرة زهور الخشخاش وأعوادها ، حين يهب مثل ذلك الحريق الكبير المدمر ؟ .

منع الأغاني
في بلاد الأفغاني .

جلست أتأمل هذه الأيام بشكل عميق "الظاهرة الأفغانية" الغريبة والتي تقوم حركة طالبان بتنفيذها ' وهي سلسلة إجراءات الحظر والمنع والتأديب لأمور كثيرة تمس حريات الفرد والناس تحت ذريعة التطبيقات الإسلامية " الصحيحة " والصارمة ' بل ولا اخفي عليكم أن أحد السواقين التاكسي الأفغان في الإمارات ، قال لي باعتزاز أن أفغانستان هي البلد الوحيد الذي يطبق الإسلام بصورة سليمة وحسب التعاليم الإسلامية . استمر نقاشنا البسيط ، فقلت له عن أن هناك كثير من البلدان الإسلامية تحترم وتطبق الإسلام ، وذكرت له المختلف بينها والمشترك ، فمصر بلد إسلامي وتركيا أيضا ' باكستان بلد إسلامي وماليزيا وإندونيسيا بلدان إسلاميان ' المغرب العربي وبلدان الخليج 'كلها بلدان إسلامية ' إيران والسعودية والعراق ' كل أولئك ليسوا بلدان إسلامية وحسب . بل ويعتبرون مراكز إسلامية وبها أماكن مقدسة للأديان والمذاهب ' جميعها لم تحرم على الناس حق الغناء! وحق امتلاك شريط الكاسيت بالأغاني . سألته كيف تستطيعون العيش من دون غناء ؟! .

لقد حاول صاحب التاكسي الأفغاني أثناء المزايدة في النقاش ' أن يتذكر لحظتها أن شريط الكاسيت بلغة البشتو كان يعمل بإيقاعاته الجميلة في سيارته . وعادة غالبية أصحاب التاكسي مولعون بأشرطة الكاسيت واكثر اختياراتهم هي الغناء . والشريط الأفغاني موجود على الدوام في سياراتهم . ولم يكن يتوقع أنني سأتحدث عن أمورهم البسيطة وستنصب أحاديثي معه عن قضايا حياتية . كان يعتقد أنني سأتناقش معه عن إجراءات جديدة سنتها حركة طالبان تحدد فيها طول اللحى 'غير أنني كنت اهتم بظاهرة اعقد بكثير وتمس أوسع قطاع من الناس يفوق قطاع الرجال وحدهم ' فالغناء ظاهرة إنسانية وتاريخية وتراثية فكيف بإمكان الناس العيش دون غناء ؟ . وعندما سألت صاحب التاكسي عن جمال الإيقاعات في شريطه أجابني بفرح بأنها أغاني نعزفها ونغنيها في الأعراس . من هنا تعجبت ما الذي سيفعله الناس ألان في الأعراس ؟! فقال ، ألان أصبحت تلك الامورممنوعة في الزواج واحتفالات العرس . فقلت له وبتعجب شديد ماذا ! .كيف سيكون هناك فرح دون غناء ؟ هكذا تمضي الأمور لدينا ألان ، فكل ما نستطيع فعله في الأعراس هو قراءة القرآن والتراتيل الدينية . كان سائق التاكسي خائفا وحذرا في التمادي معي نتيجة إحساسه بفضولي الكبير بمعرفة تفاصيل مجتمعية صغيرة ، كالغناء في مجتمع كانت الطبلة والرقص والإيقاع الرجولي أمرا هاما . كان الأفغاني فظا وعنيدا من جوانب معينة ورقيقا وحالما من جوانب أخرى ، وهو في حلمه لا يغادر عالم العشق والحب والغناء فكيف توصد أمامه أبواب الحياة وروعتها ؟ كيف سيفعل بروحه وينتهك صمته الداخلي ويخنق رغباته في الغناء ؟ والغناء سر الوجود الذي لم يستطع علماء النفس ولا الاجتماع أو الانثربولوجيا معرفة سره كظاهرة إنسانية ' الشيء الذي توصلوا له فقط تفسيرات متناثرة من أبرزها أن الغناء حالة تعبيرية وحاجة ضرورية للإنسان .

هذه الضرورة أو الحاجة الداخلية للإنسان كيف ستستطيع حركة

طالبان في رصدها وحصارها وملاحقتها في البيوت والأماكن المغلقة ؟' في بلد ظل لسنوات لا يستطيع القضاء على المخدرات ، فكيف بإمكانه القضاء على الغناء ؟ قد تنجح الحركة في منع الغناء من الأماكن العامة ' وقد ينجح (القسم العسكري في وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . عبر إذاعة الشريعة) بمطاردة من تطول لحيته عن القياس المسموح أو تنقص عن القياس المسموح ! . وإذا كان تقصير اللحية تعتبر خطيئة كبرى في الإسلام ، فماذا سيكون نصيب الغناء ؟ وخصوصا أن صوت الغناء النسوي مثير ومهيج . كيف ستمنع الحركة الناس من الغناء في داخلهم ' في بيوتهم وهم يطبخون طعامهم أو يعملون بيدهم وحركتهم . لابد من أن الظاهرة الجديدة والممنوعة ستولد حولها ظواهر عد ة طريفة نحن بحاجة إلى تأملها' وقراءة التجربة الإيرانية في مرحلة الثورة حتى صعود خاتمي للسلطة .تعلمنا التجربة الإيرانية على مدار عقدين أن النظام لم يستطع ، أو حتى ينجح في منع الناس من ممارسة " الممنوع " من وراء ظهر الأجهزة القمعية ، ففي مثل تلك الظروف القاسية نشطت السوق السوداء لبيع الكحول وأصبحت مثار تساؤلات عدة . كما أن الشادور في الخارج لم يستطع تحصين المرأة من الهروب من أنظار لجان الأخلاق والآداب . وكل المسميات البوليسية من تعاطي المرأة مع المحرمات ' بل وذهبت الباحثة الأمريكية من اصل أيراني الدكتورة حائري عن أن زواج المتعة نشط وازداد بين النساء في إيران لعاملين ، الأول كثرة النساء الأرامل بسبب الحرب العراقية – الإيرانية والثاني بسبب المكبوت الاجتماعي مما ضاعف من زواج المتعة كمخرج شرعي لممارسة اللاشرعي . وتشكل دراسة حائري واحدة من افضل الدراسات الحديثة للظاهرة المجتمعية والسياسية من خلال دراسة ظاهرة محددة إلا وهي زواج المتعة . ومن يدخل بيوت الشرائح الوسطى والبرجوازية الصغيرة والموظفين الكبار وغيرهم سيجد في ذلك الداخل – البيوت – ملابس عصرية أوروبية تخالف التابو الرسمي بأكثر من المسموح ' ولكونها تحت الشادور في الشارع وخارج الشادور في البيت ، فإن ذلك

لا يخضع لقانون الحشمة والإثارة !! ولكن من سن قوانينه تناسى أن ذلك تعبير عن فلسفة " المقاومة بالحيلة " للكاتب جيمس سكوت ' فحين يقمع الناس ويمنعون من الكلام المسموح والمسموع ، فإن كلامهم يتحول إلى همس ' يتحول إلى خطاب مراوغ وتآمري وخبيث ، واكثر من ذلك أحيانا تجاه السلطة المتسلطة ، فهو متلون يعتمد على السرية والتمويه وتعددية الخطاب والتقنع .

فما الذي سيحدث في مناطق أفغانستان الخاضعة لحركة طالبان والممنوع فيها الغناء ؟ سينشط المهربون الجدد في بيع أشرطة الكاسيت . وسيصبح لسعره وطعمه نكهة أخرى . سيتم كتابة نصوص غنائية سياسية ملتوية ، تهاجم بتهكم ما يدور في أفغانستان . وجمارك وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ستطارد الأشرطة كما تطارد شبح الشيطان . وربما سيبدع المهربين وسائل لا يمكن أن يتخيلها عقلنا نحن' باعتبارها حاجة في مكان ما ' بينما لا تشكل ذات قيمة لنا ' ألم يقل الناس أن الحاجة أم الاختراع . وسيغرق سوق أفغانستان ببيع الأشرطة الجديدة لان هناك طلب عليها في البيوت "السرية " وسيسجل الناس الأشرطة لبعضهم البعض ويتبادلونها سرا كما كانوا يتبادلون الممنوعات في كل مراحل التاريخ ابتداء من المنشور السري وانتهاء بالمخدرات وتهريب السلاح والكحول .

لقد عرف الاتحاد السوفيتي في المرحلة الأخيرة من أيام غورباتشوف ظاهرة سلوك ما يسمى المقاومة بالحيلة ' فحين ناقش الحزب ومكتبه السياسي ظاهرة الإدمان في الاتحاد السوفيتي ، صدر قرار بالحد من بيع كميات الفودكا في المحلات دون تمهيد ودراسة النتائج أو التوقع بما يمكن أن يحدث ' فماذا حدث نتيجة ذلك القرار ؟ أولا نشطت السوق السوداء وارتفعت أسعار الفودكا ' بل ولم يخف الاستهلاك برغم الارتفاع ' غير أن العبء وقع على المدمنين – كمستهلكين – بدلا من معالجتهم بوسائل أخرى . ثانيا اختفت من الأسواق جميع السلع التي لها علاقة بتحضير الفودكا وفي مقدمتها

السكر إذ بدأ ينشط صناعتها في البيوت والأماكن السرية دون مراقبة صحية أو قانونية . مثل ذلك الأجراء اللامسؤول خلق تبعات سلبية ترتبت عنها أنشطة سلبية ' مثل اختفاء سلع وارتفاع أسعار سلع أخرى وزيادة مردود حيتان السوق السوداء ' ولا عجب أن يكون من بين المستفيدين رجال متنفذون في أجهزة الدولة .

وبعد أن استخدمنا مثال بلدين متباينين في السلوك والقيم في معالجة الظواهر ، فإن بلد مثل أفغانستان لن تبتعد عن مثل تلك السوق السوداء في عالم أشرطة الكاسيت والتسجيل بطرق سرية ، إلا أن المهرب هذه المرة ليس زجاجات الفودكا ولا المخدرات وإنما أشرطة الغناء التي تطرب الروح . ومن المعروف أن الكحول يطلق عليها مشروبات روحية ' فربما يتم تحريم كل ما له علاقة بتنشيط الروح إذ ممنوع الفرح في بلاد الأفغان بما في ذلك أيام الأعراس ' فلا أحد بإمكانه أن يتصور كم بشع أن تذهب للعرس وكأنك ذاهب لمأتم عزاء ' انهم يريدوننا أن نعيش الحزن كل الوقت . هكذا قال لي صاحب التاكسي ولفظ كلمة الحزن بنبرة أسى ، شعرت منها وجعه الإنساني ، ختمها بكلمة سياسية ممنوع كتابتها . لقد تعلمت من صاحب التاكسي الأفغاني درسا تاريخيا مريرا ' تعلمت أن التهريب ظاهرة ليست دائما لاشرعية ' وإنما سلوك شرعي لدى أناس يشعرون انهم في عالم لاشرعي وعليهم التحايل عليه ' حينما تفرض الأقلية عبر سلطتها ما هو غريب وعجيب ، يحتاج أن نصنفه في هذا العصر من عجائب الدنيا السبع . فالظاهرة الأفغانية تخطت كل سحر العالم المغلق ، فهي ظاهرة منغلقة في دائرة اكثر انغلاقا من محاكم التفتيش .

بل وتذكرنا ببداية القرن حينما هجمت جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على محطات الإذاعة ، محاولين سحبها بالحبال بعد أن تم ربطها ' إلا أن الجمل الحديدي استعصى على الحركة ورفض أن يتلحلح من مكانه ' مواصلا بث برامجه الغنائية دون هوادة ' معلنا عالم التحديث أن تلك المحطة ليست شيطان اخرس ' ولن تصمت حتى وإن تم نسفها

بالديناميت .فهل بإمكان حركة طالبان مصادرة أجهزة راديو الكاسيت القادمة من الخليج كهدية للأهل ؟ ومعها دزينة من أشرطة نظيفة صالحة للتسجيل دون الحاجة لبطاقة استئذان من القسم العسكري في وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر' في بلد جمال الدين الأفغاني ' الذي لو عاش اليوم ما بيننا لقال الكثير من فكره التنويري في أفغانستان ' وربما سيكون معلقا على المشنقة بتهمة الزندقة . وإذا ما كان الأفغاني بمقياس ألامس يعتبر متحررا كرجل دين ' فإنه بمقياس أفغانستان اليوم ليس إلا رجل معصية لأنه لن يشاطرهم منع الأفغان من حق الاستماع إلى الغناء . فما الذي سيبقى للفقراء غير متعة الغناء كسلعة قليلة التكلفة !! ولو عاش الأفغاني عصرنا هل سيكتب مرة أخرى كتابه " الرد على الدهريين" و " تتمة البيان في تاريخ الأفغان " بروح جديدة أم سيضيف إليها آخر مشاهداته على الطالبان فتكتمل الحلقة " الوثقى – على وزن العروة الوثقى – " من عجائب هذا الزمان ' حيث تمنع الأغاني في بلاد جمال الدين الأفغاني .

عشاق الاقتتال يلتقون
في عشق آباد .

كادت قبل شهور خوالي ، أن تنفجر حرب إقليمية ضروس ما بين إيران وأفغانستان بسبب أزمة الديبلوماسيين الإيرانيين في محافظة مزار الشريف . وقد شاهد المجتمع الدولي حجم التحرك العسكري ، وحشوده الكبيرة ولغة التصعيد القصوى ' ثم تبعه بعد ذلك تحرك سياسي وديبلوماسي من قبل الأمم المتحدة والقوى الكبرى العالمية والإقليمية بهدف احتواء الأزمة المتفجرة ' ولحسن الحظ استطاعت الدول الإقليمية تطويق الأزمة وتحجيمها عند نقطة ما ، ونقلها من خندق المواجهة العسكرية إلى طاولة الحوار السياسي على أساس أن الطريق الأمثل لحل المشكلة بين الأطراف جميعها هو الحوار السلمي ' والجلوس معا والبحث بهدوء عن حلول مرضية تمنع سيل الدماء والخراب ، الذي ما عادت تحتمله الدولتان المتنازعتان ولا دول الجوار' حيث النتائج والانعكاسات من جراء حرب من هذا الحجم سيكون ثمنه باهظا . وسارعت الأطراف جميعها عن طريق تدخل الأخضر الإبراهيمي مبعوث الأمم المتحدة ومتابعته الحثيثة في وضع تصورات أولية ، ومقترحات كلفته رحلة إياب

وذهاب بين عواصم المنطقة الساخنة كان من أهمها ونتائجها وضع أسس اللقاء التاريخي في مدينة عشق آباد . وهناك اقتنعت الأطراف جميعها حول أهمية الحوار السياسي ، وان كانت بعض التيارات المتشددة تتوهم حتى الآن ، بأنها قادرة على حسم الصراع لطرف ما ضد طرف آخر عبر لغة السلاح ، مما يدفع على الدوام إلى توتير تلك الأجواء وإعادة تسخين البؤرة المتفجرة بين الحين والأخر ، برغم مشاكل المجتمع الدولي ومشاغله بقضايا كبيرة كارثية الطابع كما هي الأحداث الجارية في البلقان . ففي ١٦مارس ١٩٩٩ تم في عشق آباد إعلان مشروع تقاسم السلطة وهو ما كنا قد أشرنا إليه في مقالات سابقة عن توازن القوى السياسي والاثني في أفغانستان ، والذي لن ينته لصالح طرف ضد طرف آخر نتيجة التركيبة السكانية الداخلية ، ونتيجة القوى الخارجية الإقليمية والدولية ' والتي لكل طرف من أطراف النزاع لديها علاقة خارجية ودعم وإسناد قوية لها . وإذا ما وقع الطرفان في العاصمة التركمانية برضى أو امتعاض إعلان الاتفاق – اتفاق تقاسم السلطة – فإنهما أيضا ' سرعان ما وجدا أن الطريق إلى السلام يظل طويلا ومضللا بالغيوم لأسباب عدة ' من أهمها تشدد أجنحة في حركة طالبان برفض قوى سياسية بالمشاركة في السلطة المزمع تقاسمها (ينص اتفاق تقاسم السلطة على المستويات التالية القضائية والتنفيذية والتشريعية) وخصوصا أن لدى كل طرف رؤاه حول قضايا عديدة وتفصيلية ، تمس أسس ونهج الطرف الآخر بما فيها اطروحات طالبان حول الحقوق المدنية والمجتمعية ، كالتعليم وحقوق المرأة والقضاء والحريات الشخصية ومكافحة تجارة المخدرات والسياسة الإعلامية وهناك قضايا تفصيلية لا حصر لها . وحالما انفض لقاء اتفاق التقاسم على السلطة ، سارعت طالبان بإطلاق تصريح حول استبعاد تشكيل حكومة ائتلافية مع خصومها مما يعني بلغة أخرى ' الاستعداد من جديد إلى حوار القتال والدم والعنف ' وخصوصا أن العالم تفاءل بعد أن نجح الوسطاء ' بتخفيف حالة التوتر ووقف إطلاق النار بصورة دائمة . وبما أن

المحادثات الباحثة عن طريق وضع أسس سلام نهائي لم يتبلور منذ ذلك التاريخ في عشق آباد ، وكاد المجتمع الدولي يطمئن للهدوء النسبي هناك ' إذ أن الإعلام العالمي كان مشغولا بقضية كوسوفو فهي وحدها من سلب الأضواء عن قضية أزمة أفغانستان ' والتي كانت حتى شهور قريبة من اكثر القضايا أهمية وسخونة ' بل ووجدنا إهمالا متعمدا وصامتا من قبل الإعلام ووكالات الأنباء عن متابعة اختفاء بن لادن باعتباره جزء لا يتجزأ من القضية الأفغانية لتشابكات معينة معها . وفي ٢٤/أبريل ' أي بعد مرور شهر من قصف القوات الأطلسي لبلغراد ، خرج محمد كريم خليلي زعيم حزب الوحدة الأفغاني بتصريح حول استعادة قواته مدينة باميان من حركة طالبان ' معلنا أن الحرب طريقها مسدود أمام الجميع ، ولا أحد بإمكانه حسم الصراع لصالحه عن طريقها . هذا الإعلان الدعائي والواقعي من الناحية السياسية يؤكد حالة الكر والفر الدائمة بين الطرفين واستمرار حالة الهزيمة المؤقتة والانتصار المؤقت ' واحتلال منطقة وسقوطها ثم استردادها من جديد في قتال لا يتوقف بين الأطراف . هذا الوضع المتساوي في القوة والمتحرك عسكريا في ميزان الصعود والهبوط سيظل على هذا المنوال وقتا غير معروف ' ولن تخمد الحرب و أوارها إلا بقبول مشروع الحكومة الشاملة الائتلافية كحل عادل لمستقبل أفغانستان . إن اندلاع العنف مجددا في مدينة باميان لن يكون إلا درسا آخر استجد مع الأحداث ' وهو ينسف فترة ما بعد اتفاق إعلان تقاسم السلطة في عشق آباد الربيعي ، حيث لا غالب ولا مغلوب ' في حرب مأساوية لشعب مازالت الشركات العابرة للقارات تحلم بتسويق الهواتف النقالة في أراضيه قبل تسويق الماء والدواء والغذاء ! لقد كان لقاء عشق آباد فاترا وحذرا منذ البداية ، حتى وإن كان المشروع في مضمونه هاما وضروريا ' وإذا ما اشتعلت النيران واستيقظت أعمال العنف في باميان مرة أخرى فإن إعلان تقاسم السلطة قدر لا مفر منه للشعب الأفغاني بكل طوائفه وقواه ' وإذا كان لقاء ١٦ مارس ٩٩ في عشق آباد مر مرور الكرام لدى المهتمين بالمنطقة ، فإن

الاقتتال بين الأطراف نفسها سيّذكر العالم أن السلاح والاقتتال والناس هناك لازالوا أحياء ويتناسلون ' وبنفس العقلية والخطاب عادوا للحوار الدموي ، وكأنما الجليد في جبال أفغانستان لم يذب بعد ' فالربيع مازال غائبا وبعيدا ، إن لم يكن بعيدا جدا . وإذا لم تتغلب الحكمة مرة أخرى ويعود الجميع إلى اتفاق عشق آباد بهدف السلام النهائي لأفغانستان وتعليق السلاح فوق جدران المنازل الطينية كذكرى لحرب مجنونة ' فإن أفغانستان تحمل في أغوارها مشروعا لبذور بلقنة ممكنة ' وبقدر ما نجحت القوى الخفية في زرع بذور الخشخاش ، فإن بذور البلقنة أمرا ليس مستحيلا في المرحلة القادمة ' في ارض يشكل القتال فيها لرجالها عنوانا لرجولتهم .

مأزق بن لادن
أم مأزق طالبان ؟

تبوأت في الأسابيع الأخيرة صورة أسامة بن لادن صدارة الصحف والأنباء حالما أعلن عن نبأ اختفائه المزعوم ' وهو الذي كان تحت حراسة مشددة حسب ادعاءات حركة طالبان ، والمعنيين عن إحصاء تحركاته وتقييد نطاقها طبقا لأوامرهم المعطاة له ولوسائل الإعلام ' وإن كانت تلك الأوامر لا تبدو حقيقية وصادقة وإلا كيف هرب من بين أصابع الحركة ؟! .وحالما تم القبض على عبد الله اوجلان تراجعت حادثة اهتمام هروب بن لادن من الواجهة إلى الخلف وفقا للأهمية ولسخونة الحدث ' غير أن المهتمين بالمطاردة لشخصية ما وفريق العمل المنهمك بمنطقة محددة لا يعنيهم إلا تنفيذ مهماتهم على اكمل وجه . فهل توقفت الولايات المتحدة وإعلامها وغيرهم من المعنيين بملاحقته ، وترك قضية بن لادن دون تعقب ومتابعة ؟ أم أن العمل قائم على قدم وساق ، باعتبار أن قضية الإرهاب تقع في صلب اهتمامات المجتمع الدولي ' وقضية بن لادن واحدة من أهمها على جدول الأعمال لدى الولايات المتحدة الأمريكية ' ويهمها مطاردة عدوها رقم واحد ، والذي يهددها

بالتفجيرات ' ولكونه يمتلك مجموعات اثنيه متناثرة وجنسيات مختلفة في مناطق عدة .

منذ أن ضرب معسكر بن لادن في أفغانستان والتحرك الامريكي والباكستاني المشترك ، وتعليق صوره في الشوارع الباكستانية تطالب بتسليمه مع التأكيد على تقديم جائزة كبيرة قدرها خمسة ملايين دولار' فإن معنى ذلك ' أن الحرب قد بدأت تتصاعد بين الطرفين مما أدى إلى تطورها السياسي والديبلوماسي ، حيال حركة طالبان نفسها والتي متهمة بإيواء الإرهاب . مثل ذلك الموقف المتشدد من طالبان دفع بالأصدقاء والأقرباء لها بالتخلي عنها ، والتلويح بتضييق الخناق عليها ، غير أن الحركة تمادت في الكبرياء وبأنها لا تسلم أو تتخلى عن بن لادن لأنه "ضيف عليها !!" مثل ذلك التبرير كان واهنا بعد أن تأكدت الولايات المتحدة ودول عديدة تورط بن لادن في تشكيل خلايا إسلامية ومجموعات ضاربة لها ضلع في تفجيرات كثيرة ' وحالما تكثف مطاردة بن لادن بعد الضربة (ضربة المعسكر) اختفى وانكمش في منطقة محصورة كالنمر المسجون في قفص كبير . وإذا ما عرفنا أن الولايات المتحدة وأجهزتها الأمنية في أفغانستان متشعبة وقوية منذ الحرب الأفغانية -السوفيتية فإن ذلك يتيح لنا الجزم بأن الولايات المتحدة تعرف جيدا جغرافية وأمكنة منطقة قندهار وغيرها بشكل جيد ' وهي قادرة على حصار منطقة واسعة للمراقبة كالمداخل والمخارج دون أن يكون لديها قدرة -بالضرورة - على التوغل داخل المغارات الجبلية . والأكثر من ذلك ، أن الولايات المتحدة تسعى -مفضلة - المسك به ومحاكمته بدلا من تصفيته ' ويصبح خيارها الأخير تدمير الأسد بمغارته بدلا من تدمير الأسد دون القفص أو تدمير القفص وترك الأسد يركض خارجا مكشوف الظهر . من هنا بدأت الأزمة تتحول إلى أزمتين الأولى أزمة الأسد وهو بن لادن وأزمة القفص أو المغارة والمكان المأمون ، وهو الذي قدمته حركة طالبان لصديقها الحميم جدا . وإذا كانت أزمة بن لادن هو عدم معرفته إلى أين يذهب في عالم بات محاصرا بالتقنيات

العالية للرصد' والمرفوض من كل الدول ، فإن أزمة حركة طالبان تبدو اكثر تراجيدية ، فهي تدرك أن إصرارها على مواصلة عدم تسليم بن لادن يعني خسارتها على المدى الطويل صراعها مع المعارضة الأفغانية 'وهذا ما تكشف عنه وقائع الشهور الأخيرة ، فهي لا يمكنها أن تقاتل بدون دعم سياسي وعسكري ولوجستيكي لايأتي عبر باكستان ، ومن وراء تلك البوابة الهامة للحركة . وتتعقد أزمة حركة طالبان إنها باتت ليست مهددة بالضرب من جديد من قبل الطائرات الأمريكية وحسب 'بل وان الاعتراف بها دوليا اصبح أمرا مستحيلا ، مما يعني أن الأبواب كلها أخذت في الانغلاق . مثل ذلك السياج المضروب حول طالبان وهي في معركة مصيرية مع المعارضة ، وضعها في دائرة الحيرة والتساؤل مما فجر -موضوعيا - خلافا حادا مرتبطا بمصير الحركة ، والتي لا يمكن أن تفرط بسهولة في مستقبلها كحكومة ائتلافية قادمة من اجل حماية " ضيفها" . كما أن الأزمة تصبح اعقد سياسيا لو تراجعت الحركة وقدمته ضحية للمساومة كصفقة مستقبلية' فهذا يضعها في خانة خيانة للمبادئ ، وخطورته قد يسبب انشقاقا حادا داخل الحركة ' و الأزمة الكبرى هي علاقة القرابة ما بين الملا عمر زعيم الحركة وصهره بن لادن مما يجعل القضية متشابكة ، ولها ذيول عدة تقود للمتاهة السياسية لحركة ترفض الانصياع للواقع ' إذ لا يوجد مكان مفتوح " للأسد الهارب " إلا مساحة مغارات الجبال الجرداء .

لقد أثارت حركة طالبان وإعلامها المحدود الخبرة في التمويه على موضوع هروب واختفاء بن لادن بطريقة مريبه ' دفعت الولايات المتحدة بكل خبرتها التاريخية الطويلة في الأمن وبالذات في أفغانستان وباكستان للقهقهة من جراء أكذوبة " طريقة الاختفاء" ومن أكذوبة الدول التي ذهب إليها بن لادن أو يزمع للذهاب إليها . وقد تم ذكر ثلاث مناطق' الفليبين والشيشان والعراق كخيارات بن لادن ' وطالما ذكروا العراق ، فلا بد أن تسرب أجهزة إعلام الحركة أنها شاهدت بن لادن عند الحدود الإيرانية لاقناع الجماعات المطاردة له بأنه وصل للعراق

بينمـا الوصول للعراق معناه أن بن لادن سيكون سجينا هناك ' ولن يكون مصيره اكثر من صفقة للمساومة ما بين العراق ورفع الحصار' لذا لن يغامر بن لادن للذهاب لدولة قابلة للمقايضة برأسه . أما الفليبين فهو المكان الأسهل لاصطياد الأسد فخبرة القواعد الأمريكية وتواجدها وتعاونها مع الحكومة الفلبينية يسهل من مهماتها . أما في الشيشان فهناك المافيا والأمن الروسي وكلاهما قادر على تفجير بن لادن ومن يحميه من مسافات بعيدة . لم تجد أو تنجح لعبة اختفاء وهروب بن لادن بإقناع الولايات المتحدة كطرف أساسي بالتغاضي عن إلغاء فكرة الملاحقة والضربة العسكرية . لقد أبلغت حركة طالبان الحكومة الأمريكية رسميا أن أسامة بن لادن ليس موجودا ألان في الأراضي التي تسيطر عليها " وكأنما هي بشكل آخر ترغب في التأكيد انه موجود في أفغانستان ولكنه في الأراضي الخارجة عن نطاق سيطرتها ' حيث تدور معارك بين الطرفين المتنازعين . وبعثت الولايات المتحدة عبرجيمس فولي الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية من خلال وسيط آخر لممثل طالبان في نيويورك حين أكد " إن طالبان لن تدعم الإرهاب الدولي بأي صورة " فقد كان إجابتها واضحا " نأمل أن يثبت صحة هذا " مستطردا فولي عن" أن وجوده في أي مكان غير أيدي العدالة غير مقبول للولايات المتحدة " دون أن ينسى أن يذكّر طالبان بأن وجود بن لادن في أفغانستان يضر بمصالح الشعب الأفغاني ، ويضع حاجزا كبيرا أمام إرادة حركة طالبان في التوصل إلى اعتراف اكبر من المجتمع الدولي . مثل تلك الرسالة تضع حركة طالبان أمام خيار واحد لاغير ، وهو إما تسليم بن لادن أو التخلي عن حمايته كتأكيد لتخليها عن الإرهاب الدولي أو عزلتها عن المجتمع الدولي كحركة وتقلص دورها ومكانتها . هذا الخيار الصعب لابد وان يدفع بن لادن أو طالبان أو الاثنين معا ، بالتنسيق في اتخاذ موقف سريع ' طالما انهما إدراكا أن الوصول إلى بن لادن أمر قائم والضربة العسكرية قادمة ، وستطال هذه المرة مقرات الحركة نفسها' لذا فمن الأفضل أن يتم تهريبه – وليس

هروبه – فهو في هذه الحالة ، يحافظ أولا على الحركة وتماسكها من الانشقاق لكونها لم تخن مواقفها حياله . ثانيا في حالة القبض على بن لادن حيا أو ميتا ، فإن حركة طالبان لن تخسر الدعم الامريكي لها في صراعها مع المعارضة ، فعل الأقل برهن الطرفان ' الامريكي والأفغاني للعالم ' أن بن لادن لم يكن في ضيافة حركة طالبان !!

ما تشهده الاستعدادات البطيئة والسرية في أفغانستان حول التحضير للقاء المعارضة الأفغانية وحركة طالبان ، يؤكد ما نميل إليه ، فإن أهم عنصر من عناصر تعطيله يجب أن يزاح أو بتعبير آخر عنصر من عناصر اختلال التوازن في الصراع بين الطرفين ' إذ بفقدان حركة طالبان الدعم الامريكي والباكستاني يصبح حظها في حسم الصدامات العسكرية أمرا مستحيلاً كما أن الولايات المتحدة لا ترغب أن تخسر طالبان كحليف استراتيجي في أفغانستان ضمن حكومة ائتلافية . وتأتي زيارة وفد من وزارة الخارجية الإيرانية برئاسة محمد إبراهيم طاهريان لمناطق المعارضة الأفغانية ضمن تلك الترتيبات ' فقد بحث طاهريان خلال لقائه مع احمد شاه مسعود " مختلف وسائل إنهاء الحرب في أفغانستان " . وإذا ما عرفنا أن الوساطة والدور الإيراني في النزاع ، يباركه البيت الأبيض ودول الجوار ، فإن الجميع يتابع مثل تلك الزيارات والتحضيرات والتحركات الضاغطة ' كل مع أصدقائه ' سواء بالتهديد أو بالحوار . وأمام الخيار بين الأزمتين ' أزمة بن لادن وأزمة طالبان (الحصول على الدعم والاعتراف بها الخ) فإن النهاية المتوقعة من الموقف الوسطي لحركة طالبان ' لابد وان يصب في خيار لعبة التملص وادعاء الاختفاء والهروب ، فلا توجد في التاريخ قضية قدم على مذابحها الوطن والقضية قربانا لشخص ' إن لم يكن مجرى التاريخ عكس ذلك تماما .

هل يستوعب الطالبان الدرس الإيراني ؟

في السابع والعشرين من شهر أبريل المنصرم من العام ١٩٩٨ تطلعت أنظار العالم نحو مدينة إسلام آباد ، حيث التقى الطرفان المتصارعان في أفغانستان على طاولة المفاوضات بحثا عن تسوية لنزاع يدور منذ عشرين عاما سعت الولايات المتحدة أن تضع لبناته الأولى عندما أرسلت وفدا عالي المستوى بقيادة بيل ريتشاردسون مندوبها الدائم في الأمم المتحدة إلى كابل عاصمة البلد المدمر .وبين متشائم بنجاح اللقاء وآخر متفائل ، بأن ربيع أفغانستان سيكون مزهرا هذا العام !! كانت النتائج مخيبة للآمال . لقد كان الرجوع من إسلام آباد يعكس مصداقية المثل العربي " عاد بخفي حنين" فجميع الأطراف تجمدت عند النقاط الأساسية ، بل ولم يتزحزح ممثلو حركة طالبان عن " الاتفاق على صيغة تحديد مفهومهما لمصطلح " علماء الدين " أو "رجال الدين " والتي سميت بلجنة التوجيه أو لجنة التنسيق ما بين حركة طالبان والمعارضة . وأصر أحد مراكز القوى في حركة طالبان ، ومركزه الجغرافي قندهار ويقوده الزعيم ملا عمر في بيانه عن رفضه فكرة أن تمنح اللجنة صلاحيات حق اتخاذ أية قرارات مؤكدا على أن ذلك الحق من صلاحية

" لجنة علماء الدين " وحدها في كلا الطرفين ، بينما تخول لجنة التنسيق المشتركة بين أطراف الحوار تحديد قائمة أسماء رجال الدين المناط بهم مهمة الحوار .

وفي الوقت الذي تفضل مجموعة كابل في حركة طالبان موافقتها حضور الاجتماع والدخول إلى صيغة للحل ' كانت " قندهار" ترى عكس ما يراه الآخرين ، مما يعنى تبلور نواة انشقاق قادم مرهون في المستقبل القريب بمدى العثور على الحصان الهارب في الجبال والبراري الأفغانية القاحلة ، أي العثور على الثري السعودي بن لادن ، فإما أن تقايض عليه الحركة أو أن تقتنصه الفرق الأمريكية المطاردة ، والتي تمتلك بخبرتها وخبرائها في التربة الأفغانية الأمر الكثير . لقد كان مؤشر الخلاف واضحا منذ البداية بين زعامات الحركة وبروز مراكز جديدة في صنع القرار السياسي فما عادت قندهار – معقل بن لادن – الجهة التي تقرر وحدها الشأن الأفغاني . وكان منذ البداية ، ملا عمر يمثل اتجاه الجماعات التي تضع العربة أمام الحصان فتقفل إمكانية الوصول إلى حل انطلاقا من قراءة خاطئة لقدراتها العسكرية في حسم الصراع أولا ولثوابتها السياسية حول هوية وتعريف النظام السياسي الإسلامي أو الدولة الإسلامية المرتقبة .

وضمن تلك المناخات المتوترة في أفغانستان المدمرة والدفع الإقليمي المنهوك من آثار الحرب مثل – باكستان وإيران – والتدخل الأمريكي الجديد لفض النزاع الأفغاني ، كان لابد من الذهاب إلى إسلام آباد وان كان على مضض بالنسبة لحركة طالبان التي تدرك هذه المرة حجم الضغوطات الموجهة إليها من الأصدقاء والحلفاء ، القريبين منها جغرافيا والبعيدين عنها . لقد تواجدت المعارضة الشمالية –بالرغم من تبايناتها واختلافاتها – في الموعد المطلوب بينما تخلف وفد حركة طالبان عن الحضور في الوقت المحدد حتى ينتهي من تحديد حجم الصلاحيات الممنوحة للوفد المفاوض والصيغة التي يرغب مناقشتها والثوابت التي عليه التشدد حولها .

وكان واضحا لدى حركة طالبان أن النقاط الفرعية مثل تبادل الأسرى وفك الحصار عن المناطق والسماح للمعونات الإنسانية والإغاثة الدولية التابعة للأمم المتحدة بالمرور ، أمورا لا تشكل عقبة كبرى ، غير إنها لا تؤمن بمسألة جوهرية هو اقتراح قيام حكومة مشتركة موسعة تضم كافة الاتجاهات والأعراق كحل عادل ومعقول للتسوية ، انطلاقا من تصورها لحالتين ، الأولى عسكرية ، وذلك بالرهان على حسم ضربات الربيع القادمة ' والثانية ديموغرافية وجغرافية كونها تسيطر على نسبة ثمانين بالمائة من الأراضي وتحاصر مناطق تعتقد إنها في طور الانهيار والهزيمة . كل ذلك التصور السياسي للصراع يجعل حركة طالبان تضغط بورقتها في المفاوضات ، وتسوف بهدف إقناع الولايات المتحدة وباكستان بأنها ترغب الحوار والاتفاقات الممكنة ' غير أن المعارضة الشمالية وحدها هي التي تخرق الاتفاقات والهدنة مما جعل المدافع تستمر في أفغانستان' في وقت كان فيه حضور مفاوضات جلال آباد بالنسبة لحركة طالبان ، ليست إلا تأكيدا للحلفاء والأصدقاء بأنهم لا يرفضون مقترحاتهم ولا نزوعهم للسلم وتسوية المشكلة ' محملين الطرف الآخر مسؤولية وضع العراقيل والمعوقات في استمرار إشعال الحرب وأوارها .

وتدرك حركة طالبان هذه المرة بأنها لن تنال الاعتراف بحكومتها الحالية أو اللاحقة من البيت الأبيض ، بل وإذا لم تحسم النزاع في الشهور القليلة القادمة ، فإن هناك مشاريع كونفدرالية تنتظر كواليس الأمم المتحدة مما يعني نقل تلك المشكلة في مرحلة قادمة إلى مستوى آخر ، فقد نفذ صبر الجميع لما سببته هذه الحرب من آثار وويلات متعددة الوجوه ، انعكست بشكل أوسع على مصالحه ، والأكثر من ذلك ، تسببت الحرب الدائرة بتعطيل مشاريع طموحة في آسيا الوسطى ، حيث تدخل أفغانستان بموقعها وأهميتها الجغرافية في تلك الحسابات . ولا يمكن أن تتم تلك الخطط والمشاريع في ظل قبضة حركات متشددة و أنظمة غير مستقرة .

وإذا لم تقرأ حركة طالبان بشكل سليم التبدلات السريعة في المصالح ، والتي تدفع في اتجاه تغير في السياسات ، بل ومن الضروري أن تعي الظروف والمستجدات الداخلية والخارجية في باكستان وإيران و الضغوطات الصينية والهندية والآسيوية كاليابان ، والتي قدمت مقترحا للقاء القادم في أراضيها مما له دلالته السياسية في رغبة اليابان بالانخراط بقوة هذه المرة كقوة مهمة في المنطقة ، وإذا ما عرفنا أن اليابانيين إذا ما زجوا بأنوفهم في السياسة الإقليمية والدولية ، فإن معنى ذلك أن حجم استثماراتهم ستكون كبيرة وحيوية . وبالإضافة إلى الاتحاد الأوروبي الذي لوح ، بأنه لن يقدم مساعداته الإنسانية والتي تبلغ مائة وخمسين مليون دولار أمريكي لبلد تتقاسمه طوائف وعصبيات وجنرالات حرب و مافيا جديدة تتغذى من ثدي الحرب وأتونه ، فتنتعش تجارة السلاح والمخدرات والفوضى والإرهاب .ويدفع ثمنها الأطفال والنساء والشيوخ فهم وحدهم ضحايا الحرب الأهلية ، إلى جانب ما تعانيه أفغانستان من مآسي ، فإن معسكرات اللاجئين في باكستان وحدها تضم مليونا ونصف إنسان .

وإذا ما وقفت الولايات المتحدة وباكستان والعديد من البلدان وراء دعم المجاهدين و شعب أفغانستان المسلم ضد تدخل الجيش السوفيتي في فترة الحرب الباردة ، فإن الخارطة السياسية عالميا و إقليميا تبدلت كثيرا بما فيها إيران ، التي اكتشفت أن التزمت ومصادرة حقوق الإنسان وغياب دولة القانون وتقييد الحريات باسم التشريعات الدينية لن يجعل من إيران إلا دولة منعزلة ' برغم حجم التطور والإمكانيات الهائلة فيها قياسا ببلد كأفغانستان ، فقد أرهقت فاتورة الحرب جيوب البلدان النفطية وغير النفطية ، إذ ليس بمقدورها لا اليوم ولا مستقبلا ، أن تسكب الذهب في حرب خاسرة ، بينما هناك أنابيب نفط وغاز قادمة بحاجة لتلك الميزانية وذلك "الذهب" يمثل حاجتها إلى الاستقرار ، وبدونهما لن تستقر أفغانستان أو تتطور خطوة واحدة للأمام وتدخل القرن القادم بدون مشاكل ، فقد تورط الجميع في المستنقع الأفغاني .

فـهل تتـعلم حـركـة طالبـان -ألان وقـبل فوات الأوان - الـدرس الإيراني وتستوعبه ؟ إيران التي أنهكتها الحرب والعزلة والتزمت والأكثر من ذلك التورط في نزاعات كثيرة على حساب تنميتها الداخلية .

المثلث الملتهب

معروف أن الحروب الإقليمية التقليدية بمفهومها القديم ، هي الحروب التي تدور بين دول مجاورة يقتحم فيها أو يعتدي طرف على الآخر ' كما أن الحروب الأهلية هي تلك الحروب التي تدور إما بين فصائل معينة ضد النظام المركزي أو ما بين مجموعات وفصائل متحاربة في دولة محددة فقدت سيطرتها المركزية على المجتمع المدني ، غير أن الحروب الإقليمية الجديدة تحمل في طياتها ما بين المفهومين أو الطريقة الثالثة إذ نشاهد اليوم في الحروب الإقليمية المعاصرة ليس دعم دولة خارجية لحركة معارضة في دولة أخرى وحسب ، وإنما تسعى الدولة المجاورة بزج عناصر بشرية للقتال تحت غطاءات متعددة ، دون أن نرى جيوشا نظامية تخترق الحدود في شكلها الظاهري . وبذلك يتم تصدير الرجال إلى جانب العتاد العسكري في الحروب الإقليمية . مثل تلك الحروب الإقليمية تساعد على إمكانية الاستمرار وقلب موازين القوى لصالح جهة ما ، تكون على علاقة وثيقة بالدولة المجاورة وحليفها المستقبلي . وهي لا تختلف في صلبها عن الحروب الإقليمية التقليدية إلا في شكلها العسكري . وفي تحاشيها الإدانة الدولية من قبل المجتمع

الدولي وممثليه . بهذا المدخل البسيط نستهل موضوعنا بحرب إقليمية ممكنة الوقوع قد تحمل ما تم تفسير مفهومه .فربما تتحاشى إيران الدخول العسكري المباشر مثلما ستفعل دول متحالفة مع طالبان كالنظام الباكستاني في الدخول في المستنقع الأفغاني ، غير أن الواقع سيكشف حقيقة أن البشر سيكونون هناك جنبا إلى جنب ، يقاتل كل جيش إلى جانب أصدقائه والذين يرتدون ملابس قومية متشابهة .

حساسية تاريخية لم تنقطع .

عرفت العلاقات الإيرانية الأفغانية حالات من الصراع التاريخي بينهما . مرت بتقطعات وتعرجات بين الهدوء والتوتر إلى يومنا هذا . فمنذ القرن الثامن عشر " تزايدت هذه الصدامات ، فإيران بلاد صحراوية الطابع تحيط بها الجبال من جميع الجهات ويسكنها فئات وطوائف تتباين أصولهم ومنابتهم ' فمقاطعات إيران الجنوبية والغربية يسكنها فرس أصيلين يتحسسون أمجاد حضارتهم الغابرة ، وفي اللورستان اندمجت معهم عروق جديدة مثل العرب والعرق الأصفر في الكردستان ، وفي الشمال يتركز المغول والتتار والأتراك ، إضافة إلى كثير من الاثنيات المختلفة الذين مروا كغزاة أو رحالة واستقروا في هذا المجال الضيق " . وهكذا بدت إيران خليطا أو مزيجا من القبائل والأقوام المختلفة . وقد اقتصر حكم ورثة نادر شاه على منطقة خراسان وهو القائد الذي فكر بتحديث إيران ولكن لم يقدر له ذلك لأنه وجد مقتولا عام ١٧٤٧م . وكان قد بسط سلطان بلاده على مساحات واسعة شملت أفغانستان وتركستان وصولا إلى الهند . ودخل مدينة لاهور واتبعها بدخول مدينة دلهي واستولى فيها على ٧٥٠ مليون ليرة ذهبية . ونصب سلاطين يدينون له بالولاء .لكن أبناءه اكتفوا بحكم خرا سان واتخاذ مدينة مشهد عاصمة له . وهنا تمكن الأفغان من استعادة استقلالهم بعد نزاعات قبلية مريرة . كما قام القرغيز بتشكيل

جماعات مسلحة سيطروا بها على الولايات الواقعة إلى الشمال والممتدة من أرمينيا إلى أفغانستان . واستطاعت إحدى القبائل التركية من خلال سلسلة من الفضائع والمذابح بسط سيطرتها على إيران وامتدت إلى أفغانستان وبلوشستان وغرب العراق ، إلا أن أفغانستان استطاعت تحقيق الاستقلال عام ١٧٩٥م . من خلال هذا العرض التاريخي المكثف نرى مدى دخول المنطقة في حقبة زمنية في صراعات قبلية إقليمية مستمرة ، تعكس تاريخا لم تنقطع وشانجه حتى ألان من حيث التنوع الاثني والديني في زماننا الحاضر . ونتيجة لموقعها الجغرافي بين تلك البلدان والشعوب كانت أفغانستان تسعى إلى الاعتماد على مساعدات ودعم أطراف خارجية في صراعاتها الداخلية . وكانت تتحرك في تحالفات متعددة حسب المصالح المستجدة آنذاك .

ولادة حركة طالبان .

بدا اسم حركة طالبان يتردد في الأوساط السياسية الإقليمية والدولية منذ عام ١٩٩٣ م ، حيث ظهر هذا التشكيل السياسي الداعي إلى إقامة حكومة طلاب العلم ، الذين يتلقون تعليمهم الديني في الكتاتيب التي تؤهلهم (حسب اعتقادهم) إلى قيادة وحكم الدولة والمجتمع على أسس الشريعة التي يرونها . وقد بدأت القصة بقدوم موفد باكستاني إلى الملا محمد عمر اخنزاده طالبا منهم تشكيل هذه الحركة بدعم من جهاز المخابرات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي' وقد تم الاتفاق في مدينة شمن الواقعة على الحدود الباكستانية الأفغانية ، بمباركة من الملا فضل الرحمن رئيس جمعية علماء المسلمين الباكستانية ، التي رعت تدريب وتعليم أفراد حركة طالبان وهو يحظى باحترام كبير من جميع أفراد الحركة .

وينحدر معظم أفراد طالبان من طائفة البشتون المتواجدين في المناطق الزراعية في جنوب أفغانستان . وقد تلقوا تعليمهم الديني في

مخيمات اللاجئين الأفغان في مدينة بشاورالباكستانية ' وهم يعتقدون بحتمية التقليد وانتفاء مبدأ الاجتهاد . وتعود فكرة المدارس الدينية إلى الملا نظام الدين المتوفى في منتصف القرن الثامن عشر ، الذي يعتمد فلسفة التقليد لا الاجتهاد ، والتي كانت مثارا لخلافات شديدة بين علماء المسلمين في تلك الفترة . وقد اعتمد الملا نظام الدين في تأسيسه لهذه المدارس على علماء في اللغة العربية وقواعدها النحوية مع التركيز على دراسة المنطق وعلوم الفلك والتنجيم .ثم أضاف في فترة لاحقة دراسات تركز على تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وهنا يجب التنبيه إلى أن التفسير المدروس يدخل في باب التقليد نقلا عن العلماء الذين يحظون باحترام الحركة وأصحاب هذه المدارس الفقهية . ولم تكن حركة طالبان حركة وليدة الساعة المعروفة أعلاما في الساحة الأفغانية ، إذ إنها كانت تعد المقاتلين في فترة الغزو السوفيتي للبلاد . ويلعب خريج المدرسة الدينية دورا قياديا سياسيا واجتماعيا ، مثل هذا التزاوج ما بين الاجتماعي والسياسي في المجتمع الأفغاني ، اكسب الحركة قبولا شعبيا بدت ذات أهمية في ظل الصراع السياسي اللاحق في الساحة الأفغانية بعد رحيل السوفيت . ولذا تطرح الحركة نفسها على إنها جاءت لتنقذ أفغانستان من حالة الفوضى والصراعات السياسية وتخليصها من السياسيين الذين يهدرون قدرات البلاد في حروبهم الشخصية والمطامع الفئوية !!

الدور الباكستاني .

حظيت المدارس الدينية بدعم الحكومة الباكستانية وأحزابها وخاصة حزب الشعب الذي ترأسه بنازير بوتو وحزب الرابطة الإسلامية بزعامة نواز شريف إضافة إلى حزب علماء الإسلام وهو حزب قريب من بنازير بوتو ' وان كانت الحكومة الباكستانية غير معنية رسميا بإبداء وإبراز هذا الدعم أمام العالم الخارجي خشية الاتهام بالإرهاب'

فإنها تلقي بهذه المسؤولية على عاتق أحزابها السياسية ، التي لعبت دورا هاما في ترسيخ جذور هذه الحركة ، من خلال مواصلة دعمها المادي اللامحدود وجمع المساعدات ' إضافة إلى المعونات التي كانت تتلقاها الحركة من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، والتي تخلت عن القيادات الأفغانية التقليدية والتي ظهرت خلال مقاومة الغزو السوفيتي لأفغانستان بسبب تقاربها الكبير ، ليس من إيران وحدها وإنما تعداها إلى إقامة علاقات وصلت حد المساعدات العسكرية مع الهند العدو التقليدي لباكستان . فقد ظلت الأحزاب الأفغانية مثل الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار والجمعية الإسلامية بقيادة برهان الدين رباني وحركة الانقلاب الإسلامي بقيادة محمد بني محمد وحزب الأمة الشيعي بقيادة كريم خليلي وجمبيش ملي بقيادة عبد الرشيد دوستم يمثلون واجهة المقاومةالاسلامية الأفغانية ضد السوفيت ، ولكن كان يقف خلفهم بشكل أولي الأفغان العرب وباكستان والولايات المتحدة وبعض الدول الإسلامية ، حتى أن الولايات المتحدة زودت المجاهدين الأفغان بألف صاروخ ستنكر مضاد للطائرات . وكان مثل هذا الدعم من نوع السلاح المقدم للمجاهدين ذي دلالات على حجم التأييد الأمريكي ضد خصمهم الأول إلا وهو الاتحاد السوفيتي سابقا . وقد وضع جزء من هذه الصواريخ في خدمة العراق خلال حرب الخليج الثانية . وما أزعج باكستان هنا ليس حصول العراق على بعض هذه الصواريخ ، إنما كان لجوء برهان الدين رباني واحمد شاه مسعود وعبد الرشيد دستم إلى الهند عدو باكستان التقليدي ، وحصولهم على مساعدات هندية عسكرية . وهنا أدركت باكستان أن دعمها للقادة الأفغان خلال عشر سنوات ذهب هباء ، وبدأت الهند تحصد نتائجه . لذلك بدأ البحث عن بديل سياسي جديد في الساحة الأفغانية ، يحقق التوجهات الاستراتيجية لكل من أمريكا والباكستان ، ولا يقع في أحضان إيران والهند . وهذا ما أثبتته حركة طالبان كقوة صاعدة قطعت إمكانيات التقارب مع إيران عندما أقدمت على تنفيذ حكم الإعدام بحق عبد الله

علي مازاري زعيم حزب الوحدة الشيعي في ١٢مارس١٩٩٥م ، إضافة إلى قتل الدبلوماسيين الإيرانيين المتواجدين في مدينة مزار الشريف واقتحامها لمبنى القنصلية الإيرانية فيها .

توازن القوى .

مع احتمالات نشوب الحرب بين إيران وأفغانستان سواء بشكل مباشر أو غير مباشر ، وبشكل محدود أو واسع ، فإن كل من الطرفين لجأ إلى حشد قواته وقدراته العسكرية ' بحيث يستطيع تحقيق النصر المطلوب ، إلى درجة وجدنا الخطاب السياسي والإعلامي لدى الطرفين عن الحرب فاق حدود التصرف ، خالقا لدى الدول قلقا على مصير المنطقة وثرواتها ومشاريعها التنموية القادمة .فهل طبول الحرب الإعلامية والسياسية تتوازى وحجم الاستعدادات العسكرية للطرفين ؟ وهل يدخل الطرفان الحرب أم يتم إيقافهما في اللحظة الأخيرة ؟ وهل تنفذ إيران عملية اجتياح عسكري أم تكتفي بتوجيه ضربات جوية وصاروخية لمواقع طالبان متحاشية الدخول في المستنقع الأفغاني ؟ أم هناك سيناريوهات أخرى تقوم خلالها إيران بتجنيد اللاجئين الأفغان ودعمهم وتسليحهم لخوض معركة طويلة المدى بأشراف ضباط وقادة إيرانيين ؟ كل ذلك ممكن في احتمالات حسابات الحرب المقبلة .
وفي أول رد فعل بدأت إيران تنفيذ مناورات عسكرية على الحدود الشمالية الشرقية حشدت لها اكثر من مائتي ألف جندي ومسلحين بالدبابات والمدفعية الثقيلة ، وصواريخ الكاتيوشا والمروحيات الهجومية ، ينفذون مناوراتهم على مساحة تتجاوز خمسين ألف كيلو متر مربع . وتعتبر اضخم مناورة عرفتها إيران بعد حربها مع العراق .
ورغم هذا الحشد ، فإن وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي أعلن أن بلاده تنوي استنفاذ جميع السبل الدبلوماسية والحلول السلمية قبل اللجوء إلى الحل العسكري . وأكد أن مجلس الأمن القومي في إيران

يدرس كل الاحتمالات مع إبقاء القوات المسلحة على أهبة الاستعداد الدائم مفضلا الاستفادة من فرص التسوية السياسية للمشكلة ومطالبا بعدم إضاعتها وإدخال المنطقة في مزيد من الحروب التي لا تخدم طرفي النزاع . وتحشد إيران تسع فرق عسكرية يدعمها سبعون ألف من قوات الحرس الثوري الإيراني على الحدود ، في حين يمكن لها حشد اكثر من نصف مليون عسكري يستخدمون ١٣٩٠ دبابة وحوالي ٣٠٠ طائرة واكثر من ٤٠٠٠ مدفع . وهذا يشكل ذخيرة عسكرية ذات قوة نيرا نية مدمرة في حين تستطيع أفغانستان حشد ٤٢٩ ألف جندي يستخدمون ٨٧٠ دبابة و١٢٠٠ مدفع . كما تمتلك طالبان حوالي مائتي طائرة مقاتلة . وبذلك نرى أن إمكانيات الرد الأفغاني لن يجعل العمل العسكري لإيران سهلا . غير أن الدعم العسكري وتغيراته مرهون بمقدار ما ستحصل عليه المعارضة الأفغانية من دول الجوار كطاجيكستان وغيرها ، التي لديها طريق مفتوح من الدعم العسكري الروسي في مثل هذا النوع من النزاعات الإقليمية . مثلما قد تحصل حركة طالبان على دعم من دول صديقة أخرى كالباكستان .ومن المعروف أن جبال أفغانستان تختزن كميات هائلة من الأسلحة تعود للحقبة السوفيتية . يرى بعض المراقبون إنها تشكل ذخيرة هامة تمكن حركة طالبان في الاعتماد على نفسها لبعض الوقت ' غير أن كلما طالت أمد المعارك العسكرية ، فإن الحركة لن تكون قادرة على الاستمرار بقدراتها الذاتية . فهل ترضخ طالبان للشروط والقوات الأمريكية في حربها الذاتية مع إيران والمعارضة مقابل التخلي عن بن لادن كإحدى الورقات المهمة في لعبة أفغانستان ؟

طالبان من منظور أيراني .

تتباين مواقف الساسة الإيرانيين تجاه طالبان . فهي لا تبدو منسجمة وموحدة تجاه الفصائل الأفغانية ، أثناء وبعد مرحلة النضال

الأفغاني ضد الغزو السوفيتي . ويعتقد كثير من المعنيين بالشأن الإيراني أن طهران كانت متأرجحة في دعم الفصائل الإيرانية دون اعتماد أسس واضحة أو معايير محددة رغم ما يشاع من دعمها غير المشروط للفصائل الشيعية . وفي ذلك مغالطة للصواب ، لأن طهران دعمت بشكل واضح فصائل سنية بغض النظر عن الانتماءات الطائفية . ويتحمل بعض المسؤولين في قسم دعم حركات التحرر في الإدارة السياسية الإيرانية وزر الانشقاقات والصراعات الدموية داخل الطائفة الشيعية في أفغانستان . وتحديدا المسؤول السابق في قسم حركات التحرر في الحرس الثوري الإيراني مهدي هاشمي الذي أعدم قبل عشر سنوات بعد إدانته بجريمة دفع الشيعة الأفغان إلى التقاتل والصراع . إضافة إلى تجريمه بتغيير ولاءات الشيعة الأفغان تجاه الثورة الإسلامية . وقد حاولت إيران تبني زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار ، وتزويده بالأسلحة والمعدات الثقيلة ودخوله في حرب مفتوحة مع نظام الحكم في كابول ، وهي خلال تبنيها لحكمتيار لم ترفع عينها قط عن حليفها الدائم برهان الدين رباني رئيس الجمهورية المعترف به رسميا ورئيس الجمعية الإسلامية . كما مدت جسورها إلى زعيم الاوزبك ، الشيوعي سابقا عبد الرشيد دوستم ، ونصحت الإسماعيلية بالتحالف معه في عاصمته مزار الشريف . وهنا يكمن الخطأ الكبير للسياسة الإيرانية تجاه أفغانستان ، فهي لم تحدد بالضبط المعيار الذي تدعم به هذا الفصيل أو ذاك . وهذا ما جعل الشيعة يشعرون بالغبن نتيجة تجاهلهم أو انهم غير مرغوب بهم ، وليسوا ذوي حظوة لدى الساسة الإيرانيين كونها تفضل عليهم قوميات وأعراق أخرى . ويدافع المسؤولون عن الملف الأفغاني ، بأن إيران كانت وستظل مع هدف محدد وواضح . وهو عودة الاستقرار إلى أفغانستان بأي ثمن إلا ثمن الحرب والدمار وإقامة حكومة ائتلافية موحدة من جميع الفصائل والاثنيات والأعراق والمذاهب . وبهذا تضمن إيران للشيعة مكانا دستوريا وسياسيا يحفظ حقهم في المرحلة القادمة . وقد سجلت هذه السياسة

إخفاقا عندما تجاهلت طهران عن سابق قصد وعمد طلاب العلوم الدينية(طالبان) في السابق ورفضت التعاون معهم ، مما دفع الصراع بين الجانبين ليأخذ أبعادا مذهبية خطيرة في ضوء القراءة المتباينة للإسلام من كلا الطرفين ، إلى جانب الشكوك التي كانت تخامر طهران أن طالبان هي صناعة أمريكية في المنطقة ، في الوقت الذي كان فيه النظام الإيراني في أوج صراعه العدائي للولايات المتحدة . وكان ينبغي على طهران إدراك القدرات العسكرية والسياسية لطالبان على التقدم والانتصار منذ سيطرة الحركة في سبتمبر ١٩٩٦م على ولاية هرات ولكن قدمت تبريرات بأن الوالي استلم أموالا ليسمح لمقاتلي الحركة بدخول الولاية المحاذية لإقليم خراسان الإيراني دون قتال . وهذا ما تردد مع زعيم الحزب الإسلامي في عقد صفقة سرية مع الحركة أيضا . وقد بدأ خلال العامين الماضيين تيار أكاديمي أيراني بالدعوة إلى فتح باب الحوار مع الحركة التي تسيطر على حوالي تسعين بالمائة من الأراضي الأفغانية . ويتمسك الرأي الإيراني الرسمي بأن أية حركة أو فصيل أو حزب لن يكتب له السيطرة الكاملة على أفغانستان ، في حين أن المؤشرات العسكرية ترجح إمكانية سيطرة الحركة على كامل التراب الأفغاني ، وربما البدء بالدخول في أراضي دول مجاورة ولكن هذا يبقى إلى حين . وهو ما يرتبط بالتغيرات الدولية والإقليمية ومدى استشعار الخطر الديني والاقتصادي . وإيران التي كانت ترى ضرورة التعامل بحذر لا يثير غضب الحركة ، فإنها قد اتجهت إلى تعزيز استراتيجية الردع 'والتأكيد على أن القوات الإيرانية يجب أن تكون جاهزة للقيام بأي عمل عسكري يطلب منها' في الوقت الذي يصرح فيه السياسيون ، بأنهم غير راغبين على اختراق أو اجتياح الأراضي الأفغانية . في الوقت الذي تعتقد طهران أن هناك مخططاً أمريكيا يهدف لجرها إلى مستنقع لا تستطيع الخروج منه إلا بخسارة كبيرة .

انعكاسات الحرب المحتملة

لا تبتعد تأثيرات حريق الحرب المحتملة بين إيران وأفغانستان على دول المنطقة وبالتحديد بلدان مجلس التعاون الخليجي . فإذا ما عرفنا أن الصراع الإيراني الأفغاني كفيل بأن يخلق تصدعا في العالم الإسلامي ومنظمته ، باعتباره نزاعا إسلاميا -إسلاميا ، فإن ذلك أيضا لن يبتعد في التأثير على بلدان المجلس القريبة من غابة الحريق الأفغاني . فكوارث الحرب وانعكاساتها الاقتصادية ستكون واضحة وجلية وستمس النفط وأسعاره ، التي بالنتيجة ستنعكس على مشاريع التنمية والاستقرار في المنطقة . ولا نجهل احتمالات قيام عمليات إرهابية ينفذها الأفغان العرب ضد مصالح اقتصادية وحيوية مستغلين فترة الانشغال بالصراع بين الطرفين ، وغياب سلطة طالبان التي تحد من تحركاتهم ونشاطاتهم في اتفاقات سياسية متفق عليها مع الولايات المتحدة . إن زج المنطقة برمتها في حريق مدمر من هذا الحجم سيقلب الأوراق السياسية والعلاقات الدولية والإقليمية في خلافات شديدة قد لا تستطيع السيطرة عليها دولة محددة ، مما يعني في المحصلة النهائية أن الاستقرار المنشود سيكون حلما من أحلام دولنا المتطلعة إلى السلام والتنمية .

الورقة الأفغانية .

تتحرك الولايات المتحدة في الفترة الأخيرة بين ثلاث حلقات متداخلة ومنفصلة ، تتأثر كل واحدة بالأخرى في موضوع القضية الأفغانية ، فهناك الحلقة الأولى المتعلقة بموضوع بن لادن كقضية إرهابية دولية لا يمكن للولايات المتحدة غض الطرف عنها على المستوى الدولي . أما الحلقة الثانية أهمية الاحتفاظ بحركة طالبان كحركة سياسية وركيزة مستقبلية ، مع عدم الربط بشكل ميكانيكي ما بين أهمية الحركة وقضية بن لادن . ومثل ذلك التداخل بين الحلقتين يصبح من الضروري في

الحوار القادم التمييز بينهما للمساومة على بن لادن مقابل مواصلة دعم الحركة في نزاعها مع إيران . وتأتي الحلقة الثالثة وهي أهمية أفغانستان كمنطقة جغرافية هامة للمشاريع النفطية وأنابيب الغاز ، التي ستمر من أراضيها .وبين تلك الحلقات الثلاث من المتوقع أن تحدث بعض المتغيرات السياسية في وجهات النظر لدى قادة حركة طالبان ، بل وربما تقود إلى نزاعات داخلية حول تلك المواقف بدت تظهر في شكل تصريحات وإشاعات عن حدوث انقلابات داخل الحركة . وستشكل مسألة بن لادن عصب المشكلة المحورية بين قادة الحركة و حلفاء ألامس ، فبدون أولئك الحلفاء لن تتمكن الحركة من مواصلة طريقها حتى النهاية . إن مأزق بن لادن كفيل بشق الحركة فهناك أطراف لديها الاستعداد أن تساوم على النمر السعودي ، مقابل استمرار دعم الولايات المتحدة للحركة وديمومة بقاءها في السلطة . مثل تلك الشروط الأمريكية المعلنة وغير المعلنة ستشكل عقبة حقيقية بين الطرفين في تعاونهما المستقبلي ، إذا لم توافق حركة طالبان على تسليم بن لادن ، وتقديم معلومات عن معسكرات العرب الأفغان' وتحد من تحركاتهم وتمضي قدما في سياستها القائمة على مكافحة انتشار وزراعة المخدرات . وبمقدار ما ستضغط الولايات المتحدة على حركة طالبان بورقة بن لادن ، فإنها ستضغط بشكل غير معلن ، عبر مغازلتها إيران للوقوف بين الطرفين' فذلك يهيئ للولايات المتحدة أفاقا جديدة للتعاون القادم مع إيران ، والذي تسعى إليه منذ فترة طويلة . وتحقق الظروف الجديدة فرصة تاريخية للولايات المتحدة لا تعوض ، فكل الأطراف في الصراع الإقليمي بحاجة للدعم السياسي من دولة عظمى . وهذا ما ينطبق أيضا مع مجموعة الاتحاد الأوروبي إضافة إلى الصين واليابان .

طالبان تحطيم التماثيل
أم حرق للتاريخ ؟

ربما من الصعب تحديد ما هو حجم ومعيار الكراهية أو التعصب وغيرها من القيم الإنسانية كالغدر والجشع ' فهي أحيانا بلا حدود ومن الصعب تشخيصها وتعميمها كحالة واحدة . وما يحدث في أفغانستان اليوم من ممارسات عجيبة وغريبة تقوم بها حركة طالبان تجاه التماثيل البوذية النادرة ، ليست إلا دليلا على ذلك التعصب ' فهي لا تمثل تاريخا وثقافة شخصية وملك شخصي لطالبان ' وإنما ملك أفغانستان وتاريخها وشعبها برمته طوال عصور كاملة ' وبكل ما تعنيه تلك الكلمة من معنى تاريخي ' بل وتتحول الثقافة في بلد ما أحيانا إلى ملكية ثقافية عالمية ، لكونها تحمل في جوانبها بعداً إنسانيا يتخطى الحدود الجغرافية ' وهي تستمد قوتها وحقيقتها من حضورها التاريخي ورسوخها في الذاكرة الإنسانية . وبقدر ما يبقى ذلك الإرث الثقافي خزانا تاريخيا وينبوعا ثريا للإنسانية وكموضوع يحمل خصوصية الديمومة المستمرة ' فإنها في الوقت ذاته ' الحركات الطارئة والأنظمة السياسية المتغيرة لا يمكنها دوما أن تفرض حقيقتها بقوة السلاح والمدافع على التاريخ ، بقدر ما تدمر " الموضوع التاريخي " . لقد خسرت بغداد مكتبتها وتراثها من جراء حماقات هولاكو والمغول وبربريتهم ووحشيتهم ' وفاض نهر دجلة

والفرات بحبر المخطوطات والفكر الإنساني وخسرت الإنسانية ثروة باهظة لا تقدر بثمن . ومع ذلك ظلت بغداد شامخة وظل العراق كالطود المتين والعريق برغم تلك الخسارة وفداحة الألم . وقد ترك التاريخ غضبه خلفه ومضى ، وبقت اللعنة الأبدية تسكب ليلا ونهارا حول ذلك المثال الوحشي للمغول . وفي التاريخ المعاصر تكرر النهج المغولي اكثر من مرة ويتكرر مع بداية الألفية الجديدة ، فقد قارن أحد الوزراء الألمان لكل ما يحدث للتماثيل في أفغانستان ، بأنه شبيه بالحالة الشبيهة للنازية عندما أحرقت الكتب الثمينة . وقد أقسمت حركة طالبان بأنها ستحطم كل التماثيل في بلادها بما في ذلك التمثالين الضخمين والقديمين لبوذا الموجودان في منطقة باميان إذ يبلغ طول أحدهما ١٧٥ قدما والآخر ١٢٠ قدما ' وكلاهما نحتا في جسد الجبال الشامخة كتعبير عن رحلة الإنسان في عمق التاريخ وذلك المكان الصخري ' حيث يعود عمرها لما يقارب ٢٠٠٠ سنة . وقد بدأت كارثة الهجوم المسلح على التمثالين وغيرهما من التماثيل بمدافع وصواريخ المورتور كتعبير صارخ ضد الثقافة الأفغانية ، المجسدة في ذلك التنوع الثقافي والعرقي لأفغانستان لمرحلة ما قبل الإسلام ' والذي وصل الأراضي الأفغانية قبل ١٢٠٠ سنة . ومكث هذا الإرث العظيم ردحا طويلا من الزمن في ظل التعددية الدينية طوال ذلك الوقت ' حيث الإسلام والاقليات الهندوسية والسيخية والبوذية كديانات للدول المجاورة تترافق وتتعايش معها جنبا إلى جنب ، دون اعتداءات وحشية أو تجاوزات مجتمعية ودينية كدليل على حالة التسامح الديني الذي عرفتها أفغانستان في كل الأوقات ومع كل الأنظمة ، فيما عدا الاعتداء السافر حاليا من حركة طالبان على التماثيل ' التي تمثل واحدة من رموز الثقافة السائدة . وقد أظهرت الولايات المتحدة واليابان والاتحاد الأوروبي والدول المجاورة والأمين العام للأمم المتحدة ومسؤول اليونسكو والفاتيكان ، وغيرها من المنظات والشخصيات والدول عن امتعاضهم واستنكارهم لما يحدث في أفغانستان من تدمير للتاريخ والهوية الثقافية

العالمية ' التي تشكل فقدانها خسارة للإنسانية جمعاء . وناشدت إيران منظمة المؤتمر الإسلامي كمنظمة تمثل المسلمين دوليا باتخاذ خطوات عملية لإيقاف حركة طالبان . كما عبرت اليونان عن رغبتها بشراء كل التماثيل التي خلفها وتركها الاسكندر الأكبر في الفترة التي فتح فيها آسيا . وتظاهر اكثر من ٢٠٠٠ شخص في كوتماندو عاصمة النيبال باعتبارها المركز الحيوي لميلاد كواتاما مؤسس البوذية لاكثر من ٢٦٠٠ سنة مضت . هذا التعبير دليل على أن المناطق البوذية والدول المجاورة ، ستخطو مستقبلا خطوات عملية للرد على كل ما فعلته حركة طالبان حيال تماثيلها المقدسة وارثها الكبير ' مما يعني أن الاحتكاك السياسي والعنيف سينجم بهذا الشكل أو ذاك ، بين جماعات إسلامية وغير إسلامية في المنطقة المجاورة وفي داخل أفغانستان ' إذ لا تبدو الأمور أنها ستمضي دون عواقب ونتائج سيئة على حركة طالبان أولا وعلى مجمل أفغانستان المحاصرة في النهاية ' والمعرضة لعقوبات اشد ' مما سيضيف إلى مجاعتها المتزايدة مشاكل كبرى جديدة . ولا تأتي هذه الهجمات على التماثيل البوذية المعروفة منفردة وحسب ' وإنما تكملة للذي حدث للتماثيل البوذية الصغيرة في وسط أفغانستان كمنطقة غزني وهيرات ' حيث حطمت تماثيل تاريخية لا تقدر بثمن . تلك البربرية الثقافية واللاتسامح الديني هما تعبيرا عن حالة فقدان طالبان إتزانها السياسي ، وتأثرها الواضح حيال الحصار الدولي والعداء للغرب ، مما دفعها لإفراغ غضبها على تلك التماثيل الصامتة انتقاما من العالم الخارجي الذي يمارس الحصار عليها . واجمل ما قاله أحد المراقبين الغربيين بوصفه ما يحدث حاليا في أفغانستان بقوله " بأننا لا يمكننا وصف هذا التحطيم بأنه سلوك يعود إلى مرحلة العصور الوسطى فقد عرفت أوربا الإسلام في العصور الوسطى وكان نموذجا للاختلاف والتسامح الدين" . وذهبت بعض الآراء إلى ضرورة التعامل دوليا مع حركة طالبان بالطريقة التي تعاملت بها مع نظام جنوب أفريقيا العنصري ' حيث تم عزله كليا . كما وصف بعض القساوسة من البوذيين في فينوم بن عاصمة كمبوديا

"بأن جماعات الخمير الحمر قد حطموا المعابد والتماثيل البوذية كما تريد و تفعل اليوم حركة طالبان ' ولكن هذا العمل لن يربحوا من جرائه غير الندم ' لهذا فإنهم سيخسرون السلطة" . ولا يأتي هذا العدوان الحالي على التماثيل من فراغ ' فقد اصدر الملا عمر في أبريل من العام ١٩٩٧ أمرا بذلك ' غير أن الاحتجاج العالمي دفع وزير خارجية باكستان في ذلك الوقت ، بالضغط على حركة طالبان لكي تتراجع عن تنفيذ قرارها . لقد كانت أفغانستان بلدا إسلاميا منذ ١٢٠٠ سنة ولم يحاول رجال الدين (الملالي) أبدا تحطيم هذه التماثيل . فلماذا لم تثر قضية هذه التماثيل كموضوع ضد الإسلام منذ ١٢٠٠ سنة ؟ . وانهم بهذا الفعل كما يقول حميد خرزي نائب وزير الخارجية الأسبق لحكومة برهان الدين رباني " يحاولون تحطيم تاريخ أفغانستان وذاكرة أفغانستان ، إذ التماثيل ألان ما عادت جزءا من الدين وإنما هي جزء من موروث البلاد وتاريخه ، كما هي قبور وأهرامات الفراعنة في مصر القديمة " . ووصف الفاتيكان تلك الأوامر بتحطيم التماثيل على أنها نوع من " الجنون " وهي نتيجة " للتعصب الأعمى " غير أن قائد حركة طالبان الملا عمر رد على الانتقادات الدولية معتبرا إياها نوعا من " الضجيج " واتهم الدول غير الإسلامية بأنها تحاول نمذجة الهوية الإسلامية لأفغانستان ، بحيث تصبح اكثر مقبولة لديهم ' وان العالم غير الإسلامي قد توحد ضد طالبان ، ولكننا لن نهتم وسنحافظ على طريقتنا الإسلامية " وفق التصريحات التي نقلتها وكالة أنباء بختار التابعة لحركة طالبان . ولكن مثل تلك التصريحات لم تجد استجابة مماثلة من دول إسلامية أخرى بما فيها باكستان وإيران . حيث اتهم السيد محمد خاتمي طالبان " بأنها تقوم تحت مظهر الإسلام بممارسة أعمالا عنيفة ووحشية ومعادية للثقافة " . هذه الحركة التي تحرم الكثير من القضايا والحريات الشخصية في أفغانستان تحت ذريعة تمثيلها ودفاعها عن " الإسلام النقي والخالص " قدمت للعالم أخيرا بتحطيمها للتماثيل " هدية كبيرة " في عيد الأضحى المبارك للبشرية كرسالة ثقافية

ونوعية لفكرها وثقافتها وتوجهاتها ' والتي لو استمرت ، فإن العالم سيشهد مذابح وتدمير لا حدود لهما ' فالتعصب هو أيضا لاحدود له فهو كالعصابة ، التي لا تغطي عين الإنسان وحسب ، بل وتغطي مساحة كبيرة من عقله وروحه .

الفصل الثاني

باكستان

المؤتمر الإسلامي
من إسلام آباد إلى طهران.

خلال الأيام القليلة الماضية نقلت وكالات الأنباء أخبارا عن القمة الاستثنائية لمنظمة المؤتمر الإسلامي التي بدأت أعمالها أمس في إسلام آباد ' أخبارا وتقارير تذكرنا بحالة الطوارئ العسكرية التي عرفناها في الستينات والسبعينات في قارة أمريكا اللاتينية ' بحيث يتوازى التحضير الاحتفالي والبهرجة العامة مع حالة البلد الذي يعاني من الفقر المدقع والصراعات الطائفية والتوترات الحدودية . فمن يعرف ويشاهد حجم الجيش المجند لحماية المؤتمر الإسلامي في المدينة ' والذي فاق التصورات بالرغم من أن باكستان صممته بهدف الاحتفال بذكرى خمسين عاما على تأسيسها كدولة مستقلة . هذا التأسيس المحتفى به والمظاهر الاحتفالية الكبيرة لم تكن من وجهة النظر الهندية إلا كارثة تاريخية وصفها يوما المهاتما غاندي ببذور الكراهية والتي وافق عليها على مضض ودفع حياته ثمنا لها ' وجاءت من العصبية الهندوسية مثلما جاءت رصاصات أخرى في التاريخ المعاصر .وعلى اثر ذلك النزاع انشقت شبه القارة الهندية إلى بلدين على أساس ديني حاول التمظهر تحت اللافتات السياسية والقومية والثقافية ' غير أن تلك الأسس – الدينية للخلاف – كانت نفسها بعد ربع قرن من الانفصال الأول محدثة انفصالا جديدا

ومحدثة شرخا في البلد الإسلامي ' فتبخرت المفاهيم والمرتكزات الوهمية السابقة لتقسيم الهند ' حيث ولدت بنغلاديش الإسلامية مما يعني أن مقولة الأساس الديني والانفصال الأول لم تكن إلا ذريعة حقيقية وسياسية في تاريخ الهند الحديث وجزء من مشروع بلقنة الهند . وقد صمتت تلك الأقلام التي هددت مطولا لدى الجانبين في دعم العصبيات العرقية والدينية بعد أن اكتشفت أن الصراع في شبه القارة الهندية كان جوهره الحقيقي اكثر من الحالة الدينية والخلافات المذهبية المزدانة بالرخاء اللامع داخل بهو الفندق وخارج مساحته الضيقة أمتارا . وإذا ما عرفنا أن جدول أعمال المؤتمر الإسلامي سيكون محصورا في مسألتين مهمتين وهي قضية القدس باعتبارها قضية محورية تهم العالم الإسلامي للقرن الحادي والعشرين ' غير انه ليس بالإمكان تخطي عدم الحديث عن قضايا مازالت ساخنة كقضية جامو وكشمير و أوضاع المسلمين في بلدان عديدة أهمها الأوضاع في آسيا الوسطى وأفغانستان التي لم تهدأ فيها قذائف الموت . ودون شك سيتوقف المؤتمر الاحتفالي في لقاءاته على هامش المؤتمر أو في دهاليزه عند حالات الاقليات الإسلامية في دول شتى ' ستكون ألبانيا ويوغسلافيا السابقة ومنطقة سيجيانغ الصينية ' غير أن هذا لا يلغي أهمية إعطاء الأولوية للقضية الكبرى والساخنة في جدول أعمال المؤتمر . وتشكل ظاهرة الإرهاب المرتبط بالأصولية الدينية وعنفها وتوجهاتها السياسية عصب الموضوع للقرن الحادي والعشرين ' حيث يسود توجها خطيرا في السياسات العالمية لدول الغرب والولايات المتحدة بأن الإسلام والحركات الإسلامية - دون التصنيف والتمييز - تقف في الخندق المضاد للحضارة الإنسانية وتطورها' وهي تشكل العدو الجديد ورقم واحد حسب التوجهات العالمية . وادعاءاتها المضخمة قد تكررت في مقومات عدة في الحضارة الغربية بأن ظاهرة العنف الأصولي والإسلام السياسي تحتلان في القرن القادم مرتبة الصدام والعدو رقم واحد لما بعد مرحلة الحرب الباردة . مثل تلك التوجهات العالمية والمعادية للإسلام سيوليها المؤتمر أهمية أيضا ' بهدف

الخروج بصيغة جديدة وواقعية في التعامل مع الآخر' عبر حوار الحضارات المطروح كنهج ثقافي للقرن الحادي والعشرين ' بين مناهج واتجاهات وتكتلات حضارية وإنسانية مختلفة تجمع بين ثناياها تعددية ثقافية وعرقية ولغوية . كما سيبحث المؤتمر - وبكل صراحة - أهمية الارتفاع بروح المؤتمر الاحتفالي من أفقه الضيق حول القضايا الإسلامية المصيرية والتي تهم العالم الإسلامي ومنظمته وفي مقدمتها قضية القدس الشريف' والذي يتطلب عملا مكثفا وموقفا موحدا وواضحا بين أعضاء المؤتمر الإسلامي وعلى أساس خلق مناخ أخوي ودعوة صادقة لبناء الثقة بين أعضاء ودول منظمة المؤتمر الإسلامي ' بحيث يتم التحضير أولا للحوار الإسلامي - الإسلامي والخروج بصيغة موحدة ' ثم الذهاب للحوار مع العالم المسيحي وكسبه إلى صف القضية الإسلامية والعربية العادلة حول مصير مدينة القدس ثانيا ' والتي يتآمر العالم الغربي - وليس كله طبعا - والولايات المتحدة وإسرائيل على تحويلها إلى عاصمة للدولة العبرية . وما سياسة الاستيطانات المستمر " وقرض" المساحات والأراضي المتواصل واقتطاع الحدود المتفق عليها إلا تأكيد على خارطة خفية تم رسمها مسبقا . وإذا مر المؤتمر الإسلامي في إسلام آباد دون تموجات كبيرة في الخلافات وانحصرت القضايا الثنائية في الاختلافات بهدف ترجيح الأولوية للتضامن الإسلامي وتحقيق حضوره أمام تحديات دولية كبرى ' تتربص بالتكتلات الإقليمية والعالمية غير المرغوبة أو لا تسير في فلكها أو تحت هيمنتها أو إنها تشكل عقبة أمامها في المواجهات والصراعات الإقليمية محاولة توسيع أسفين الخلافات الداخلية في تركيا أو أفغانستان أو قضايا حدودية بين دول إسلامية متجاورة مثل الإمارات المتحدة وإيران ' فإن الدول الإسلامية معنية أيضا بإظهار حسن النوايا تجاه القضايا الخلافية وحلها على أسس عادلة دون الانحياز والتعصب واحترام مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية . ففي داخل المعسكر الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي كثيرا ما واجهته قضايا وخلافات لم يحسم أمرها عكستها البيانات الختامية والتوصيات " المرنة والمطاطية "

التي رأيناها في أغلب المؤتمرات' حيث تقف بعض القرارات والصيغ البراغماتية أحيانا وسط النهر دون العبور إلى ضفة الحل النهائي وانتزاع فتيل الخلافات المتفجرة . وإذا لم يقف أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي بشكل أكثر تماسكا وفهم أوسع حيال مسؤوليات تاريخية كبرى كقضية القدس أو الخلافات الحدودية بين البلدان الإسلامية ومعالجة حالة أو ظاهرة العداء المصطنع بين الغرب والإسلام وإزالة الفروق والنظرات الخاطئة ما بين الأطراف المتنازعة والثقافات المتباينة ' فإن الحروب القادمة ستكون بذورها وأوارها الشعوب والطوائف في عقر دارها ' وبالذات صراع بلدان الجنوب – الجنوب ' وإنها لن تقف عند حدود معينة من كرتنا الأرضية حيث إنها – الحروب الأهلية – ستنتقل إلى بلدان الشمال وتتحول إلى قوة احتجاجية ومدمرة باعتبارها مخزونا كامنا في بنياته الاجتماعية وكونها موروثا ثقافيا واثنيا مختلفا وقابلا للصدامات العنيفة ' وحاضنا أيضا لتجمعات إنسانية وعرقية تفتش عن حقوق متساوية سياسيا وثقافيا واقتصاديا .فإذا كان شعار التسامح بين الأديان على صعيد كل مجتمع ' وبين البلدان ذاتها أمرا ضروريا لتفادي الصراعات الدموية فإن برميل البارود المدفون في مدينة القدس أمر ليس بمستبعد إذا ما واصلت الدولة العبرية سياسة نتانياهو في الصلف والعنجهية . أن الآراء والمقترحات والأفكار التي سيتم تناولها في مدينة إسلام آباد لن تكون إلا مقدمة ضرورية لتحضير جيد لمستقبل منظمة المؤتمر الإسلامي ' فإن مؤتمر القمة الإسلامية في طهران في شهر ديسمبر القادم يجب أن يكون انطلاقة هامة للعمل المثمر واللقاء الإيجابي تجاه قضايا عديدة تهم شعوب المنطقة والبلدان الإسلامية نحو القرن الحادي والعشرين .

كشمير كعب أخيل القارة الهندية .

كلما نشبت حالة توتر بين الهند وباكستان في منطقة كشمير ترتفع أصوات متعددة إقليمية ودولية تدعو الطرفين للتحلي بالحكمة وضبط النفس ' مما يعني أن القارة الهندية منذ فترة الاستقلال والتقسيم تمارس ضبط النفس المنتهك' والذي عمره الآن نصف قرن ' وهو بالمعيار السياسي لضبط النفس يعتبر طويل الأمد جدا . وبإمكان الطرفين المواصلة لنصف قرن آخر في ممارسة ضبط النفس وخصوصا أن النصف القادم يختلف عن النصف الذي مضي ' حيث أن إمكانية الأسلحة التقليدية في المرحلة المنصرمة تختلف عن الأسلحة المتطورة في المرحلة المقبلة ' وبالذات لدولتين تمتلكان أسلحة نووية بالإمكان أن تستخدم – ولو جزئيا– في نطاقات معينة ، وهذا ما يقلق العالم ودول الجوار التي ترى في تصعيد سباق التسلح النووي اللاسلمي ' أي بنزعته العسكرية المتسارعة مثار تساؤلات عدة للكثير من الساسة والعسكريين والمختصين بشؤون المنطقة فلكل طرف تفسيره لأهدافه ونوازعه ودوافعه ومن أهمهم أولئك الذين يرون أن امتلاك أسلحة نووية لدى الطرفين يخلق ردعا وتوازنا لديهما مما يساعد على التحكم في أبعاد أية أزمة سياسية -عسكرية ذات أبعاد إشكالية تمس قضية الحدود أو التوسع أو

الغزو . ويعكس حالة القلق ما قاله أمين عام وزارة الخارجية الباكستانية " أن بلاده لن توقع على معاهدة حظر أجراء التجارب النووية وذلك بعد سحب تعديل " براون باك " بشأن منع العقوبات الاقتصادية عن الهند وباكستان ' وهذا يعني أن هناك تطورات حدثت سياسيا ولقاءات عديدة مع الولايات المتحدة وغيرها من البلدان' بين فترتي الأزمة الحالية من الصدامات الحدودية والفترة السابقة من أوائل يناير وفبراير ١٩٩٩ ' حيث اتفق الطرفان في إعلان لاهور (والذي وقعه رئيسا حكومتي البلدين خلال الزيارة التاريخية التي قام بها فاجباي إلى عاصمة إقليم البنجاب الباكستانية في فبراير الماضي) . وينص الإعلان على أهمية تسوية الخلافات بما فيها مسألة كشمير نقطة النزاع الرئيسية عن طريق المفاوضات . ومع ذلك نسمع ونشاهد كل ما ينسف ذلك الاتفاق ' وتنجر المنطقة إلى مواجهات دائمة بسبب تلك النقطة الحدودية الساخنة . ترى هل هناك مشاريع وسيناريوهات خارجية لتوريط البلدين ؟ هل أحد الطرفين يغامر بلعبة سياسية أوسع من معضلة كشمير المزمنة ؟ لماذا التوقيت المتقطع للعبة كشمير المتشحة بالفقر والثلج والجبال الشاهقة ؟ أسئلة كثيرة قد تقود المخيلة إلى سيناريوهات بعيدة المدى لمشروع بلقنة المنطقة تبدأ في نزيف واستنزاف الهند وأضعافها ومن ثم تحريك موضوع التبت إذ من تلك الخاصرة القاتلة يتم استنزاف الدولتين الكبيرتين في آسيا نحو حروب نظامية وتحريك نزاعات اثنيه ' فإذا دخلت الهند صراعين في فترة واحدة أو تخرج من واحدة و تدخل في دوامة أخرى ' فإن ذلك ينهك قواها الاقتصادية ومشاريعها التنموية للقرن المقبل ' ومن جهة أخرى خلق بؤرة التوتر بين أطراف ثلاثة في تلك المنطقة روسيا –الصين – الهند يصبح ضروريا لمنع قيام محور وتكتل قوي يقف أمام مشاريع هيمنة القطب الواحد وتكريس النظام العالمي الجديد وفق الشروط الأمريكية ' أسواق كبيرة دون سيادة أو إرادة سياسية في القرارات المصيرية والحاسمة . وتبرز في لعبة كشمير أن الطرفين المتنازعين في الحرب الهندو –باكستانية يدركون حدود

وتحركات كل طرف العسكرية من جهة والمناورة السياسية من جهة أخرى . فالهند تؤكد دعم باكستان للقوات الانفصالية -حسب التعبير الهندي - وبأن القوات الهندية ستنظف المنطقة من تلك القوات المتسللة والمدعومة بقوات من حركة طالبان وجنود باكستانيون ' وانه تعمل عسكريا وفق جدول زمني معين ' وبمعنى ذلك أن الهند ليست معنية بالتوقف عن دورها العسكري في نطاق حدودها في القسم الكشميري التابع لها ' وهي من الجهة الأخرى تتفاوض سياسيا مع باكستان على مسائل حدودية في تلك المنطقة الحساسة . أما باكستان فهي تعتبر أن الحركة الأفغانية في كشمير شأن داخلي وهو نضال تحرري يجبره القانون الدولي ' ويجيز للشعوب حق الانفصال وحق تقرير المصير وهو مشروع سياسي استغرق عشر سنوات من الكفاح المسلح . غير أن للشعب الأفغاني في كشمير- وهو مصطلح خلافي بين البلدين - مشروعه الخاص به ' ولا يلغ أحلام قادته في تشكيل دولتهم ' أو الانصهار لاحقا والتوحد مع الجزء الباكستاني من كشمير بصورة طوعيه ' والدعوة لقيام دولة كشمير المستقلة المقسمة بين الشطرين الباكستاني والهندي ' ثم يتم الارتباط بشكل فيدرالي مع باكستان على أسس دينية . وتتحرك جماعة الجهاد المتحدة بقواه وفصائله التي تفوق ثلاثة عشر فصيلا تحت أهداف رئيسية موحدة . وبما أن مشروع الحركة الكشميرية الانفصالية -طبقا للتعبير الهندي- والتحررية طبقا للتفسير الباكستاني - هو مشروع سياسي قابل كورقة أن يتحول إلى مشروع أوسع من التطلعات الحقيقية والمعلنة ' فإن احتمال زج الهند وتمزيقها في مشروع بلقنة ' جديدة سبق وان اخفق في مشروع خاليستان أثناء حكومة انديرا غاندي والتي دفعت ثمنه حياتها على يد القوى الانفصالية من الجماعات العرقية والقومية المتعددة ' والتي تتمتع بها القارة الهندية مشروعا ممكنا . ما دفعته الهند من ثمن للتقسيم مع بداية استقلالها يجعلها اكثر حساسية حيال قضايا من هذا القبيل ' غير أن المتغيرات الدولية الجديدة يتيح إمكانيات مختلفة في تأجيج الخلافات وإنعاش النزاعات الأثنية

وتغذيتها بالدعم العسكري والسياسي والإعلامي .

الجديد هذه المرة في الصراع بين القوات العسكرية الهندية " والجهاد المتحدة " هو أن تسللها سبب احتلال مواقع استراتيجية في القسم الواقع تحت سيطرتها ' وعدد القتلى هذه المرة ليس أفراد قلائل ' كما أن المعارك قاسية وشديدة بين الطرفين ' والأكثر من ذلك أن القوات الهندية نفسها لا تعرف متى تنتهي من تلك المعارك ' فيبدو أن الهند هذه المرة تحاور سياسيا بورقة عسكرية اسمها كشمير ' وقد تكون أوسع من تلك المساحة الحدودية لها ' فقد ظلت النزاعات الحدودية بين الهند وباكستان موجودة دائماً ' وأشعلت ثلاث حروب ' وفي جميعها كانت كشمير هي كعب أخيل القاتل .

نواز شريف وبن لادن والسقوط المحتمل .

قبل البدء في الحديث حول ثلاث دوائر متداخلة ومعقدة من حيث تفاعلاتها وتأثيراتها على بعضها البعض' ومن ثم انعكاسها بقدر كبير على الأوضاع الباكستانية وحكومة نواز شريف وعلى مسألة الصراع الباكستاني -الهندي وأزمة كشمير . وهذه الدوائر الثلاث المتشابكة هي دائرة باكستان ودائرة طالبان والدائرة الثالثة دائرة بن لادن . وسنستعرض تعقيداتها السياسية بين خطابين داخلي وخارجي في باكستان' وخطاب معلن وغير معلن بين الولايات المتحدة وباكستان بصدد مجمل الأوضاع في المنطقة وخطورة النزاع الباكستاني -الهندي الأخير وتصاعد لهجة التلويح باستخدام الأسلحة النووية مما خلق أجواء من الخوف والقلق لدى الدوائر المعنية بهذا الجانب في البيت الأبيض ولدى جميع الدول المعنية بآثار تلك الأنواع من الحروب فيما لو فلتت قدرة السيطرة على تلك الأسلحة في بلدين يعاني الأول فيه -باكستان- من حالة التطرف الديني والنزعات التصعيدية للحرب والفوضى في الأوضاع الأمنية والنزاعات ألا ثنية مما قد يدفع بحالة التفكير للخروج من الضغوطات الداخلية في حرب خارجية مدمرة ' بينما هناك في الطرف الآخر -الهند- تلوح نبرات الخطاب الشوفيني القومي في بعض التيارات

السياسية والمؤثرة في مواقع القرار السياسي لربما يدفع إلى التقاء النزعتين في لحظات تصاعد النزاع حول مسألة كشمير إلى استعراض قوتهما العسكرية والنووية ' وتتحول الحرب المحدودة حاليا في كشمير إلى حرب رابعة واسعة النطاق تهدد قضية السيادة . ولكي تبدو المسألة اكثر وضوحا لتلك الدوائر الثلاث وتداخلها نفسر أولا عنوان موضوعنا الذي تعمدنا اختياره فالأزمة قد تؤدي إلى سقوط نواز شريف وحكومته عبر أزمة سياسية أو من خلال تحالفات سياسية تؤثر في الانتخابات القادمة أو يسقط نتيجة عملية اغتيال أو انقلاب عسكري ' إذ اصبح أعداء شريف في الساحة الباكستانية جماعات إسلامية وسياسية متعددة' أما بن لادن فإن سقوطه مطلوب أيضا من قبل دولة عظمى كالولايات المتحدة فهي تطارده ليلا نهار ' بل وشددت على عملية البحث عنه بطريقة مكثفة ومغرية ماليا ' وتفضل أن يسقط في يدها أسيرا لمحاكمته كما حدث لاوجلان ' وإذا ما عجزت عن اصطياده فإنها تترك الخيار الأخير بأن يسقط صريعا' لذا سيكون خيارها استخدام جميع أنواع الاغتيال بما فيها القصف الجوي وهو أرقي واحدث أنواع الاغتيالات السياسية التي شهدها العصر في سنواته الأخيرة . وبذلك تكون الاحتمالات والخيارات كلها مفتوحة لمصير الاثنين معا فهناك ارتباط بالعمق بين المسألتين ' وقد يدفع الثمن لهذه النهاية كل على انفراد ' فالأسباب والنتائج في هذه القضية مترابطة ' ابسطها موقف نواز شريف من قضية بن لادن وقبوله مؤخرا في التعاون حول مسألة تسليمه ' وردود فعل بن لادن وجماعته وأنصاره على هذا الموقف . ونحن بانتظار عقرب الساعة الذي قد يطول أو يقترب ، لكن بندوله لن يتوقف عن الحركة أو كما يقول المؤرخ إدوارد كار " أن التاريخ لعبة لا يوجد فيها " جوكر " .

بداية الأزمة وتطورها .

نحن بحاجة إلى تنشيط ذاكرتنا لشهور خلت ففي مايو٩٨ وقبلها

بشهور قليلة فزع العالم من التجارب النووية في الهند وباكستان ' وفي مثل هذا الوقت تضخم مشاعر الكبرياء القومي لدى رجل الشارع في البلدين ' ووظفت العناصر المتطرفة خطابها الديماغوجي من اجل كسب رهانات سياسية ' وحسابات خاصة حزبية ومهنية وطائفية ودينية . أمام ذلك المشهد العاطفي ' والتطورات السياسية والعسكرية فزع المجتمع الدولي لمثل ذلك الخطر المحيط بدول نامية وفقيرة ومتوترة سياسيا ' وبين دولتين دخلتا حربا لثلاث مرات بسبب مشكلة كشمير' فما الذي يمنع بدخولها حربا رابعة طالما أن خزان المد الإسلامي في المثلث الأفغاني -الكشميري -الباكستاني بات موحدا في قضية المشروع الإسلامي الواحد ' ولا يمكن تجزئته أو تفكيكه بسهولة . فقد تأسست رؤى سياسية وقوى مجتمعية لها فعلها السياسي والعسكري في المنطقة ' ولهذا اهتمت القوى العظمى وفي مقدمتها الولايات المتحدة بمحاولة الضغط لوقف تلك التجارب النووية' وبضرورة عقد اتفاقية حظر انتشار أسلحة الدمار الشامل بين البلدين . وفي الوقت ذاته أعلنت واشنطن عن لقاء مرتقب بين كلينتون ونواز شريف في أوائل ديسمبر ١٩٨٩' وكان لابد أن يسبق ذلك اللقاء ويتزامن معه سياسيا وتوقيتا عملية الإفصاح عن رفع الحظر الجزئي للعقوبات الاقتصادية المفروضة على باكستان ' ويمهد إلى الموافقة من قبل مؤسسة صندوق النقد الدولي على تقديم مساعدة مالية مطلوبة من باكستان قدرها خمسة ونصف مليار دولار . وبتصريح كلينتون برفع العقوبات تفاءلت باكستان بموافقة صندوق النقد على صرف ٥٠٠ مليون دولار من الترتيبات المالية بالإضافة إلى مليار دولار كان البنك العالمي والبنك الآسيوي في التنمية قد وعدا منحها قبل نهاية السنة المالية ٩٨ والمنتهية في يونيو٩٩ وكذلك ستطلب باكستان جدولة جزء من الديون المقدرة ما بين ٢ و٢,٥ مليار دولار . وقبل أن يطير نواز شريف إلى الولايات المتحدة عقد في الأسبوع الأول من نوفمبر ١٩٩٨ في مدينة إسلام آباد محادثات بين المسؤولين الأمريكيين والباكستانيين حول المسائل النووية . وكانت امتدادا

للمحادثات التي جرت في نيويورك في شهر أكتوبر بين وكيل وزارة الخارجية الباكستاني وكبار المسؤولين بالخارجية الأمريكية . وكان جدول الأعمال يتضمن مناقشة حظر الانتشار النووي والأمن الإقليمي وزيارة رئيس الوزراء نواز شريف إلى واشنطن .

شتاء واشنطن لم يكن دافئا

حالما وصل رئيس الوزراء الباكستاني إلى واشنطن في أول ديسمبر ٩٨ " أعلن الرئيس الأمريكي رسميا رفعا مؤقتا لجزء من العقوبات الأمريكية المفروضة على الهند وباكستان اثر تجاربهما النووية في مايو الماضي " وسبق وان قامت الحكومة الأمريكية بتجميد خطة لصندوق النقد الدولي قيمتها ٥'٥ مليار دولار لإنعاش الاقتصاد الباكستاني المهدد بالإفلاس . إلى جانب القيام ببعض الإجراءات المتعلقة بالشؤون العسكرية . ولم يذهب شريف إلى هناك إلا بعد ثمانية شهور من سلسلة التجارب النووية في الهند وباكستان ' حيث وصلت العلاقات مع الولايات المتحدة إلى درجة من التوتر والفتور . ولم ينجح اللقاء الفاتر في واشنطن ' والذي كان من المفترض أن تطرح فيه أهم المشاكل الاقتصادية والأمنية ومسائل تتعلق بحقوق الإنسان والوضع في أفغانستان ومكافحة الإرهاب وتهريب المخدرات . مع العلم أن مسؤولين أمريكيين قبل لقاء كلينتون –شريف قاموا باستئناف الحوار وتفعيله بين الهند وباكستان . فما الذي جعل اللقاء بين الطرفين لقاء فاشلا بعد أن راهن المراقبون أن الجولة الأولى من زيارة رئيس الوزراء الباكستاني – الزيارة الأولى بعد انتخابه– ستكلل بالنجاح ' متناسين أن الأوراق الداخلية كانت تضغط على شريف ' وتحدد عليه خياراته ومطالبه حتى وان كان يفاوض الدولة العظمى والحليف التاريخي والاستراتيجي لها في زمن الحرب الباردة ؟

لقد جلسا متقابلين وكل واحد منهما يحمل هموما مختلفة ' بعضها

داخلية وبعضها إقليمية ودولية ' غير إنها لكليهما تأثيرات كبيرة وواضحة فالتجارب النووية تسبب قلقا دوليا وخطرا يهدد الاستقرار العالمي وموضوع السلام ' كما أن الإرهاب والمخدرات تحولت إلى ظاهرة عالمية وتهدد الأمن القومي ' فإذا كانت كل تلك المسائل ضاربة جذورها في الجوار الأفغاني والتربة الباكستانية وشبه القارة الهندية ' فإن ذلك لا يعني أن غبار تلك الأخطار وحموتها وطاعونها لا يهدد المجتمع الأمريكي ومؤسساته ومواطنيه ' ومع ذلك كان التفاوض بين طرفين قوي وضعيف ' ثري وفقير ' دائن ومدين لذا كانت اللغة اوامرية وضاغطة ومشروطة إلى ابعد حدود المساومة . من هنا نكتشف لماذا حدث الفشل في ذلك اللقاء ؟ وقد كانت مطالب باكستان المال والسلاح بينما مطالب الولايات المتحدة مشروطة أولا بالمساعدة في تسليم بن لادن الذي تحميه حركة طالبان الموالية لها في أفغانستان وثانيا اتخاذ إجراءات صارمة لضبط ترساتنها النووية ومنع تسرب تقنياتها . ودون شك فهذا قلق مشروع دوليا فمسألة الضبط وعدم التسرب معنية بها دول إسلامية وحركات متطرفة إذا امتلكت أسلحة دمار شامل قد تستعملها في حربها في أفغانستان أو كشمير أو دول الجوار مما يعتبر أمرا خطيرا . بعد انتهاء اللقاء البائس خرج نواز شريف في مؤتمر صحفي وأعلن ما يهدد بلده ويعقد ظروفها' وكان مشحونا بالأسى المكظوم ليقول ما لم يفهمه البعض بشكل واضح وان كان نصف الكلام تفسيره سهلا يوم ذاك ' غير انه في لقاء يوليو٩٩ اصبح واضح المعالم عسكريا وأمنيا وسياسيا للطرفين . ففي طلبه الأول حول حل مشكلة كشمير طلب وساطة أمريكية ولكن كلينتون رد عليه أن واشنطن لا يمكنها الوساطة في هذه القضية المعقدة إلا بعد موافقة الطرفين مع الأخذ في الحسبان أن الهند ترفض أي تدخل دولي في هذا النزاع الحدودي . وعندما ضغط كلينتون حول التقيد بعدم استخدام السلاح النووي فإن الهند تصبح اكثر تفوقا في السلاح التقليدي . وبذلك تفقد باكستان التوازن العسكري ' فما كان من نواز إلا التقدم بطلب معونات عسكرية

أمريكية تقليدية تمكنها من استعادة التوازن التقليدي مع خصمها الهند وكانت أهم تصريحات رئيس الوزراء الباكستاني في مؤتمره الصحفي في نادي الصحافة القومي في واشنطن ' تلك المخاوف تعكس حجم القلق الذي تعانيه باكستان من اختلال التوازن العسكري وما يسببه من مخاوف تمس أمنه القومي وسيادته حين قال " إن المجتمع الدولي مهموم للغاية بقضايا منع انتشار الأسلحة النووية ولكنه لا يولي أي عناية لأمن باكستان الذي تضرر بعد التفجيرات الهندية النووية منتصف العام الماضي(١٩٩٨) مما دفعها للقيام بتفجيرات نووية بدورها لاستعادة التوازن الاستراتيجي وتحقيق الردع النووي المتبادل ' وبالرغم من ذلك التوازن -على حد تعبير نواز شريف- إلا أن الهند وفقا للخبراء تتفوق على باكستان بمراحل من ، حيث القوة العسكرية التقليدية والصاروخية . ولم تجد باكستان تشجيعا لمطالبها من الإدارة الأمريكية . وظل الطلب حول بن لادن غامضا إذ نقلت وكالات الأنباء ما مفاده أن الولايات المتحدة انتزعت وعدا ما غير محدد من شريف بالمساعدة في تقديم بن لادن إلى العدالة ' بل ولم يجرأ نواز أن يعلن في المؤتمر الصحفي بأنه سيضغط على طالبان من اجل تسليم بن لادن وخصوصا أن الولايات المتحدة تدرك أن الحركة تتلقى دعما سياسيا ومعنويا وعسكريا من باكستان . وتهرب نواز شريف في ذلك المؤتمر الصحفي حول مسألة تسليم بن لادن وعلاقته بالإرهاب مختصرا إجابته " لقد سلمنا إرهابيين للولايات المتحدة في مناسبات عديدة وشكا من انه لم يتلق أي معلومات مسبقة حول ضرب الولايات المتحدة لأفغانستان في شهر أغسطس ٩٨ وقال " لقد كانت مفاجأة بالنسبة لنا" وبذلك بعث نواز برسالة إلى طالبان يعلن براءته من الشكوك والأقاويل التي ترددت حوله بأنه اتفق على صفقة في زيارته في أوائل ديسمبر ٩٨ ' وكان العالم ينتظر إزاحة ستار الغموض عن مثل ذلك السؤال .هل فعلا لم تحترم الولايات المتحدة سيادة بلدان أصدقائها وحلقت من أراضيها نحو معسكرات بن لادن في أفغانستان لضربها واصطياده هناك ' وكان ذلك

ردا على هجمة أغسطس على سفارتيها في دار السلام ونيروبي ؟ . فعلا كانت مفاجأة ليست لنواز شريف وحده بل لكل العالم ' ومع ذلك لم تنجح الولايات المتحدة باصطياد الأسد فكانت مفاجأة لها ' إذ كانت معلوماتها المخابراتية انه سيكون هناك لحظة الهجوم . أما طلب الولايات المتحدة من باكستان بمكافحة المخدرات وتفشي تجارة السلاح ومنع الإرهابيين في استخدام أراضيها فإن ذلك لم يكن نقاط خلافية أو قضايا داخلية لاقتناعه بها مؤكدا انه " يجب التوصل إلى حل شامل لمشكلة أفغانستان لأنها تؤثر سلبا وبشدة على بلاده ، حيث أدت إلى إدمان ثلاثة ملايين باكستاني للمخدرات وانتشار تجارة السلاح والمخدرات والجريمة المنظمة وتدفق حوالي مليون ونصف لاجئ أفغاني على باكستان . دون شك كل تلك القضايا تضغط بقوة كفك القرش على حكومة مفلسة أو على حافة الإفلاس اقتصاديا وهناك احتياجات للمعونات المالية المشروطة ' كما تعاني باكستان من حالة تفكك اجتماعي ونزاع اثني وتوترات داخلية من جراء الصدامات السياسية العنيفة ومحاطة بقضايا إقليمية وحدودية تهدد سيادتها . 'تحت تلك الظروف القاسية فضل نواز شريف خيار الاهتمام بالتطورات السياسية الداخلية وموازين القوى فيها' وبالذات الاتكاء على قوة الحركات الإسلامية التي بدأت تتواجه معه في الشهرين الأخيرين في ١٩٩٨م والتي ستلجأ بعض التيارات منها إلى محاولة اصطياده بتفجير السيارات المفخخة والقنابل وغيرها من أساليب القتل .

معارك داخلية في أقاليم غير مستقرة

في الوقت الذي كان فيه رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف يفاوض كلينتون في واشنطن في شهر ديسمبر ٩٨ حول قضايا ساخنة كسباق التسلح والتجارب النووية في الهند وباكستان ' كانت تتراءى لنواز شريف الأوضاع الداخلية المعقدة 'فهو يحمل هموم المجموعة

البرلمانية للحركة القومية المتحدة والأحزاب الإسلامية ' التي عقدت جلسة لبرلمان السند في شهر نوفمبر وحالة الاستياء الشعبي ووجود بطالة واسعة وديون خارجية تقدر بحوالي ٣٢ مليار دولار ' وإزاء هذا الاستياء وجد رئيس الوزراء الباكستاني مخرجه بتعزيز التوجه الإسلامي للبلاد وأسلمة الدستور' فبذلك يضمن له القوى الإسلامية بغالبية أحزابها واستمالة رجل الشارع العادي . وإذا ما كان في استطاعة نواز شريف تبني إصلاح دستوري في الجمعية الوطنية التي تتمتع فيها الرابطة الإسلامية بقيادته غالبية ساحقة فإن تطبيق الشريعة في مجلس الشيوخ يصبح مشكلة كبيرة بسبب الرفض الشديد الذي يبديه تكتل المعارضة بقيادة حزب الشعب ' بالإضافة إلى وجود أحزاب يمثلون أحزاب من أقاليم السند وتحديدا من كرا تشي العاصمة الاقتصادية للبلاد وبلوشستان والحدود الشمالية الغربية . هذه التركة الثقيلة في باكستان لم تغادر ذهن نواز أثناء المفاوضات في البيت الأبيض وبالرغم من مفاوضات الفشل فإن رئيس الوزراء الباكستاني أكد للرئيس الأميركي كلينتون خلال محادثتهما عزم باكستان توقيع معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية قبل سبتمبر ١٩٩٩م . وهانحن في أغسطس من عام ٩٩ فهل وقّع الرئيس في زيارته الأخيرة (في يوليو ١٩٩٩) المعاهدة قبل أوانها أم اكتفى بحديث آخر وصفقات سياسية أخرى تضمن لباكستان سلامتها وسيادتها ؟ تنتظرنا جولات عدة من الصراع لن تنته بسهولة في المسيرة الصدامية للشارع الباكستاني .

في أوائل شهر يناير ١٩٩٩ نجا رئيس الوزراء نواز شريف من محاولة اغتيال . وبسرعة ألقت الشرطة مسؤولية الحادث على حركة المهاجرين القومية وتم اعتقال ثلاثة أشخاص . ثم بدأ مسلسل التحقيق في الحادث بشكل واسع النطاق من قبل وحدة خاصة لمكافحة الإرهاب وبمساعدة من وكالة التحقيق المركزية . في الوقت الذي لم تتوقف أعمال القتل والعنف تجاه شخصيات وكوادر من " الحجم الصغير " . وعلى ضوء تصاعد أعمال العنف والقتل في كرا تشي والبنجاب وغيرها

من المناطق ' دخلت الديمقراطية الباكستانية الهشة في حالة طوارئ وامتحان تاريخي صعب بعد أن قررت حكومة نواز شريف إنشاء محاكم عسكرية في أنحاء البلاد لمكافحة موجة العنف والإرهاب ' وهذه تكملة لإعلان الحكومة الباكستانية في (شهر نوفمبر٩٨) وذلك بتسليم إقليم السند للجيش الباكستاني و إقامة محاكم عسكرية في كرا تشي . ونتيجة لهذه الأجواء العسكرية ارتفعت الأصوات تنادي باستقالة حكومة نواز شريف معتبرة ذلك الإجراء العسكري فشلا للحكومة الفيدرالية في سيطرتها على الأمن والسلام في الإقليم ' وانه اخطر انتهاك للحقوق المدنية والدستورية للشعب في باكستان . والغريب أن في نهاية يناير ١٩٩٩ تم اغتيال الثلاثة الذين اتهموا بمحاولة اغتيال رئيس الوزراء وهم في طريقهم إلى لاهور لتكملة التحقيقات بهدف تحديد تفاصيل الحادث . أي أن تصفية المتهمين تمت بسرعة قياسية دون أن يمنحوا حماية كافية بالرغم من انهم أشخاص مهمين وقاموا بمحاولة اغتيال شخصية بمستوى رئيس الوزراء!! . هذا الإهمال المتعمد وطريقة التصفية تضيف حالة من الشك على الاختراقات الأمنية' وتغلغل التيارات المختلفة والمعادية للحكومة في أجهزتها ' مما يجعل السؤال الكبير يطرح نفسه . من يمثلون حقيقة أولئك الجماعات الذين حاولوا اغتيال نواز شريف في أوائل شهر يناير ٩٩ ؟ ومن هم أيضا أولئك الذين قاموا بتصفية المتهمين في محاولة الاغتيال في نهاية شهر يناير ٩٩ ؟ وطال القتل والاغتيال أربعة أمريكيين يعملون في شركة نفطية في أوائل مارس من العام نفسه' وسوف تتوسع عملية الاغتيالات دون توقف من أهمها اغتيال أحد زعماء حزب الجماعة الإسلامية في ١٩ /٧/١٩٩٩ قرب منزله في شرقي كرا تشي' وطرافة الخبر أن الجماعة نفسها وصفت الحادث في بيان لها بأنه عمل إرهابي مما يعني أن حلقة الدوران في الانتقام ما بين المجموعات المتناحرة مستمرة ثم يصدر بيان استنكاري وتنديدي من الطرف الآخر بأنه عمل إرهابي وهكذا دواليك في سلسلة العنف المتواصل منذ ثلاث سنوات وبالتحديد في كرا تشي حيث قتل ما

يقارب ٢٥٠٠ شخص في أعمال عنف متفرقة .

البحث عن بن لادن .

إذا كان لقاء كلينتون -شريف في واشنطن في أول ديسمبر ٩٨ ركز على ضرورة تسليم بن لادن ' وازدادت تلك الأهمية بعد تفجير السفارتين في القارة الأفريقية في شهر أغسطس مما جعل مكافأة البحث ترتفع إلى خمسة ملايين دولار أمريكي وهو مبلغ يحفز لهواة المغامرة والمرتزقة و الخيانة في المشاركة في البحث والتنقيب ' وبعد قصف المعسكرات في جلال آباد في أفغانستان اكتشف الطيران الأمريكي أن جثة أسد قندهار لم تكن موجودة بين أشلاء الجثث الأخرى ' فقرروا البحث من جديد بطريقة كثيفة ويبدو متأنية . من هنا بدأت وتيرة الضغط تزداد من الولايات المتحدة وبعض الدول على باكستان وطالبان بضرورة تسليم بن لادن أو دفعه للمغادرة 'غير أن حركة طالبان صرحت بأنها ستقوم بمنع بن لادن بالاتصال بالعالم الخارجي وحد نشاطه إلا أن ذلك لم يكن مقنعا للأمريكان . و نشرت صحيفة " أوصاف أن بن لادن اختفى في شهر فبراير ٩٩ دون أن تحدد التاريخ بالضبط ' مع العلم أن في الأسبوع الثاني من فبراير٩٩ توقع مولوي وكيل احمد المستشار الخاص للملا محمد عمر زعيم حركة طالبان أن تقوم الولايات المتحدة مجددا بقصف معاقل بن لادن في أفغانستان بهدف منعه من التخطيط لهجمات جديدة . في ٩٩/٢/١٧ أصدرت مجموعة في صنعاء بيانا تحذيريا موجه للأميركيين والبريطانيين بالقتل وتنذرهم بمغادرة اليمن ووقع البيان باسم " جيش الانتحاريين -المجموعة٦٦ من جناح بن لادن العسكري " فدخلت المجموعات في اليمن شبكة دائرة الاتهام ' ودخلت اليمن كمكان استراتيجي للإرهاب سيتم الاهتمام به مع مرور الوقت كما رأينا هذا العام حين طلبت الولايات المتحدة من اليمن منحها ترخيصا للسماح للأمريكيين في التحرك في الأراضي

اليمنية وشكل وجودهم أزمة سياسية داخل القوى الإسلامية . وبعد الاختفاء المفاجئ في شهر فبراير انهالت نشرات الأخبار ووكالات الإنباء في ٩٩/٢/١٥ بنشر الأحاجي والطلاسم حتى وجدنا بعضها فانتازيا سياسية' ففي كابول كان هناك تصريح من طالبان عن اختفائه من أفغانستان بينما بريطانيا وطهران شككتا برواية اختفائه . كما أن " منشقون " عن بن لادن – هكذا أطلقت عليهم وسائل الإعلام!! – أشاروا إلى خطة تمويه : بقولهم أن بن لادن لا يزال في قندهار بالتنسيق مع طالبان . وتواصل طالبان عدم علمها بالجهة التي قصدها . وأشار زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار بقوله " أتوقع أن تكون طالبان سلمته لرجال الاستخبارات الباكستانية لتسليمه إلى واشنطن . " ثم عاد بعد شهر واحد أي في ٩٩/٣/١٣ وصرح أن بن لادن مازال في أفغانستان ! ولم تجد واشنطن حيال تلك الأقاويل وحيال الرد الرسمي من حركة طالبان الذي يقول :" إن أسامة بن لادن ليس موجودا ألان في الأراضي التي تسيطر عليها " ما يمنعها من توجيه التحذير لحركة طالبان وبأن واشنطن تحتفظ بحقها في التحرك عسكريا ضد الإرهاب " .

واصلت فرق التفتيش والموت والاغتيال التنقيب عن منجم اسمه أسامة بن لادن مختفيا عن الأنظار داخل الجبال والمخابئ الأفغانية ' ومن هناك يبعث إشارات التهديد للسفارات الأمريكية وبعثاتها في الخارج ' ويتهدد رجاله العقاب بكل أمريكي أينما ذهب وأينما حل . أليس لذلك الرعب والإرهاب والمطاردة من ثمن ونهاية ؟ ولم تظهر وكالات الأنباء إلا أخبارا يتيمة في شهري مارس وأبريل وكأنما كانت المطاردة اكثر تكتما وصمتا وبعيدة عن أضواء الإعلام والشاشات ' وفجأة تتضح ثمار المطاردة في الثالث من مايو حول اختفاء ثلاثة أميركيين في أفغانستان كانوا يشاركون في عملية في أفغانستان لتحديد مكان بن لادن . في ٩ مايو أفاد تقرير من إسلام آباد أن أحد ثلاثة أميركيين فقدوا في أفغانستان قد لقي مصرعه ' ونتيجة لاختفاء الثلاثة وصل فريق

أميركي إلى المنطقة للبحث عنهم' حيث عثر على جثة أحدهم ونقلت إلى مكان مجهول . وفي ٢٦ يوليو نشر خبر مفاده " طالبان تحبط محاولة لقتل بن لادن " وتفاصيل نشر الخبر من صحيفة " أوصاف " المعروفة بعلاقاتها الوثيقة مع حركة طالبان . ويتضمن مضمون الخبر اكتشاف أربعة أشخاص واعتقالهم واكتشفوا انهم ينتمون للجنرال مسعود شاه وبحوزتهم كميات من الأسلحة الثقيلة و أجهزة اتصال لاسلكي

واعترفوا بأنهم نشروا بعض الجواسيس الآخرين في قندهار وحولها من اجل جمع المعلومات وإبلاغها للولايات المتحدة من خلال قاعدتهم في طاجيكستان . و أكدوا أيضا أن هدفهم كان قتل بن لادن أو تحديد مكانه لا تمام عملية ضده ' مشيرة إلى أن هؤلاء الأشخاص لديهم صلات مع أشخاص آخرين في بيشاور شمال باكستان . وسواء بالغت الصحيفة أو قدمت معلومات غير دقيقة ومحرفة ' فإن من المؤكد على الأقل' أن هناك مطاردة لاغتيال بن لادن وان هناك شبكة من الأشخاص في مناطق متعددة تواصل وتتواصل في البحث عن مكانه . السؤال بعد قتل أحد الثلاثة من الأميركيين أين البقية ؟ فليس من المحتمل أن يحتفظ بهما كرهائن أو هربا واختفيا ؟ لماذا فضل الإعلام الأميركي حالة التكتم أو التصريح عن حياتهما ومكانهما ومن يقف وراء الخطف أو بعث رسالة تهديد لمن خطفهما بعدم تعريضهما للأذى ؟ كل هذا ممكن في فضاء أفغانستان وباكستان' وتتحول المسألة إلى اكثر من لعبة خطرة وغامضة 'وتختفي البروتوكولات والأعراف الدولية ' وخصوصا مع حركة طالبان الغير معترف بها دوليا .

لاشك أن هناك خلافات دائمة بين الولايات المتحدة وحركة طالبان ' غير أن الخلافات وتطورها بعد أحداث أغسطس أخذت مجرى مختلفا مع العلم أن ممثل طالبان مازال مستقرا في الولايات المتحدة ' ويخرج بين الفينة والفينة للتصريح عن الحركة . لا نحتاج إلى فتح الملف التاريخي للعلاقة بين الحركة والولايات المتحدة 'وكيف تم تأسيس الحركة وأهمية تقويتها وإنما يظل معرفة التقاطعات والاختلافات اللاحقة من الأولويات

الهامة يبدأ من أسئلة متتالية . ماذا يعني احتفاظ الولايات المتحدة بعلاقات جيدة مع الحركة ؟ ومن هي العناصر من الحركة التي تقف وراء الكواليس في تلك العلاقات ؟ وهل تراهن الولايات المتحدة على نجاح الخيار العسكري بين طالبان والمعارضة في أفغانستان ؟ . لا يبدو التفسير صعبا للغاية فدولة عظمى كالولايات المتحدة لا تقطع خيوطها وتهدم جسورها مع تيارات أو أحزاب أو حركات أو مجموعات أو حتى شخصيات أفغانية ' فهناك أهمية استراتيجية لأفغانستان بالإضافة للأهمية الأخرى ' نبعت و ترسخ قناعتها بعد هزيمة الاتحاد السوفيتي ولمرحلة اكثر أهمية لاحقا لما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك دوله الواقعة في آسيا الوسطى . وهناك تطورات جديدة أفرزتها المرحلتان في الساحة الأفغانية وخلقت معها حربا أهلية ضروسه وشرسة . ومع ذلك لابد من التفكير في التفاحة الأفغانية التي يجب أن تكون من نصيب الأسد فيها للولايات المتحدة . ولا يوجد افضل من حركة سياسية قوية ستصل للسلطة مستقبلا وكان الرهان على حركة طالبان ' وخصوصا أن داخل هذه الحركة مجموعات متشددة دينيا واجتماعيا غير إنها سياسيا واقتصاديا وعسكريا مرتبطة بالولايات المتحدة وتؤمن بأهمية تلك العلاقة في كافة مستوياتها ' من جانب آخر هناك مجموعات متشددة جدا ولا ترغب نهائيا في علاقات مع الولايات المتحدة ولديها مشروعها الإسلامي' وهي بذلك تتقاطع مع بن لادن في حربها ضد الولايات المتحدة وحتى وان كانت لا تفصح عنه مباشرة مثلما يفعل بن لادن ' وكلتا المجموعتين الرئيسيتين تتعامل مع الولايات المتحدة ومرتبطة بها مباشرة أو عن طريق حليفها الاستراتيجي باكستان ' وهي بوابتها الرئيسية والوحيدة على العالم الخارجي بكل أبعاده بما فيها البعد اللوجستيكي كمعبر ومنفذ حيوي . وإذا كانت هناك خلافات بين الولايات المتحدة وحركة طالبان حول قضايا عدة كالإرهاب ومكافحة المخدرات وحقوق الإنسان في أفغانستان ' فإنها أمور قابلة للتفاوض والمساومة والمعالجة وأنصاف الحلول ' بل والاستغناء عنها وتجميدها

مؤقتا كورقة ضغط ضد طالبان والنزاع معها أمرا ممكنا ' فالولايات المتحدة يقلقها موضوع المخدرات ولكنها تضعه في الصف الثاني من أجندتها من حيث الأهمية ' ولديها تجربة طويلة مع دول مثل بوليفيا وكولومبيا وباناما وتايلند ' وهي بالإمكان أن تعوض أمريكا حركة طالبان الخسائر المالية من جراء المكافحة باعتبار المخدرات مصدرا من مصادر تمويلها العسكري والاقتصادي - بشرط حسم صراعها النهائي مع المعارضة الأفغانية وتسلمها السلطة كاملة على كل أراضي أفغانستان ' ويتم الاعتراف بها دوليا - أما قضية حقوق المرأة والتعليم فهي أمور ليست عاجلة لأفغانستان من وجهة نظر أمريكية والتي بالرغم من الخطاب الإعلامي الموجه للرأي العام والتصريحات الرسمية 'لا تفصح في دلالاته إلا عن خطابها المزدوج ' ما يهم المؤسسات الاستثمارية المصالح العاجلة وتترك للوقت إمكانية التحولات الاجتماعية البطيئة في ظل سيطرة حركة دينية متشددة تجاه أمور داخلية ' انطلاقا من سياسة الولايات المتحدة بعدم تدخلها في " الشؤون الداخلية للبلدان " ! طبقا للخطاب الرسمي وبالذات لدول لديها تقاليدها وقيمها ' كما فعلته وتفعله مع دول إسلامية عدة بما فيها إيران والسعودية وغيرها . فما يهم الولايات المتحدة الآن ليس التركيز العاجل على الشأن الداخلي الاجتماعي والسياسي ' إنما الاهتمام بالمصالح الاقتصادية والاستراتيجية أولا . لقد ظلت العلاقات مع حركة طالبان سمنا وعسل . وهذا لا يعني أن الولايات المتحدة كانت بعيدة في كوكب المريخ ' ولا تعرف شيئا عن ملفات الإرهاب وعناصره الدولية ' فهي تعلم علم اليقين ابرز العناصر والكوادر الأساسية ' ولديها معلوماتها عن الدول التي كانت تحتضنها وتمولها بكل الوسائل وتشرع لها أبواب النعيم كما يقولون ' غير إنها لم تكن مهتمة بإيقاف هذه المجموعات وتناميها وتفريخها لأسباب دولية وضرورات استراتيجية وتكتيكية اقتضتها الصراعات الدولية والتناقضات الأساسية بين أيديولوجيتين متعاديتين في تلك الحقبة .

ما بين اغسطسين .. ٩٨-٩٩

أحدثت انفجارات التجارب النووية في شبه القارة في شهر مايو٩٨ دويا ورعبا واضطرابا دوليا . وفي هذه المناخات التصعيدية بين الهند وباكستان بلغة " نووية" وبقنابل شبهت بأنها قنابل هندوسية و إسلامية ' في مثل هذا المناخ المحموم بالشوفينية والاعتزاز القومي كان العالم يرتعد بأن الرعب تجاوز مداه المعتاد وأصبحت الدول المجاورة مهددة بذلك السلاح المدمر وخصوصا أن بين البلدين ماضيا بثلاث حروب ومشكلة معقدة ومتداخلة دينيا و اثنيا وسياسيا واستراتيجيا هي مشكلة كشمير . لقد أيقظت التجارب النووية الروح الديماغوجية لدى جنرالات الجيش والمتطرفين من الساسة ' فخرجت في هذه الساعات الجماهير تردد أسماء أبطالها التاريخيين والمعاصرين فارتفع اسم نواز شريف كبطل قومي ' بعد شهور سنسمع مفردات معاكسة بعد عودة شريف في يوليو ١٩٩٩ م من واشنطن وقبوله بضغوطات أمريكية بالانسحاب من كشمير التابع للقسم الهندي ' بأنه خائن وارتفعت أصوات منادية بقتله . هكذا أحيانا تتحرك العواطف الجماهيرية وتتصلب وتغذى بمشاعر عدوانية ' ومنه يندفع أفراد للاستعداد لتصفية ما تسميهم بالخونة ومن باعوا القضية والوطن للأعداء . تاريخ الاغتيال السياسي أفرز العديد من هذه النماذج وفي مراحل وأوقات و أمكنة مختلفة ' غاندي وتروتسكي ورابين و انديرا والسادات وغيرهم .هذا على سبيل المثال . وخشية من التصعيد طوقت الولايات المتحدة الأزمة . غير أن في أغسطس جاء زلزال السفارات وردا عليه اضطربت فضاءات أفغانستان بطائرات القصف الأمريكية . الارتباك ساد في الوسط السياسي الباكستاني والأفغاني إذ هذه المرة المسألة تجاوزت الخطوط ' وأصدقاء ألامس حدث بينهم ما يشبه الطلاق . وطار نواز شريف إلى واشنطن في أوائل ديسمبر ٩٨ ليتم هناك الحوار الجدي في مسألة بن لادن . ما أعلن عنه مختلف عما لم يعلن عنه ' وتوالت الضغوطات من باكستان بالتدريج حول حزام بن لادن وحصاره . أولها ابتدأ بتسليم

الأسماء المطلوبة لمصر والولايات المتحدة ومطاردة العناصر الهاربة وتعليق ملصقات في الشوارع ' وتقصي المنافذ الحدودية والتحويلات المالية ' وشكلت فرق لمكافحة الإرهاب ووضعت مكافأة مغرية قدرها خمسة ملايين دولار لكي يشمر محبو الجوائز عن سواعدهم في ملاحقة رجل مطلوب من عدة دول وفي مقدمتها " زعيمة العالم " . وتدافعت الأحداث وكادت أزمة الديبلوماسيين الإيرانيين أن تدفع المنطقة إلى مستنقع الحرب بين بلدين إسلاميين وتم احتواء الأزمة وتجاوزها . في هذه الفترة كانت طالبان تراهن على حل صراعها مع المعارضة الأفغانية بالخيار العسكري السريع ' وانتظرت الولايات المتحدة وعود باكستانية بذلك الرهان' غير أنها تأخرت لشهور مما اضطر الطرفين للجلوس في عشق آباد . مرت شهور طويلة وباكستان تحارب على جبهتين في وقت واحد وضد دولتين إيران والهند ' الأولى مع المعارضة الأفغانية والثانية في صفوف الكشميريين وزجت بجنودها وضباطها المدربين تدريبا عسكريا عاليا . وبررت أن المقاتلين في صفوف حركة طالبان ليسوا إلا باكستانيين مجاهدين مؤمنين بقضية طالبان مثل بقية العرب الذين التحقوا بصفوفها . ربما هذا الكلام يمر مرور الكرام لدى رجل الشارع العادي أما لدى خبراء الحرب والمختصين السياسيين وأجهزة الأمن في الدول المجاورة والعالمية فإنها تعرف الحقيقة بما فيها معلومات تستمدها من الأقمار الصناعية . الانتظار الأمريكي برغبة باكستانية ووعودها بحسم الصراع في أفغانستان لم ينجح حتى وإن حاولت شغل العالم بمواقع وقتال في كشمير . وفي الوقت الذي مازالت طالبان تراهن حتى هذه اللحظة على الخيار العسكري وجدت نفسها حكومة نواز شريف بين فكي الرحى الأمريكية والهندية في قضية كشمير' والتي تعقيداتها إذا ما تطورت ستصبح اعقد بكثير من الحرب الأهلية في أفغانستان ' بل وحدوثها سيؤخر موضوع الحل الأفغاني وربما يبدل موازين القوى فيه . وحده نواز شريف اكتشف أن الحرب في كشمير ثمنها باهظ ويهدد سيادته ' فهو لا يستطيع أن يستخدم السلاح النووي في الدفاع ' ولا

يمكنه أن يقاوم في حرب تقليدية . ما قدمته الولايات المتحدة في لقاء يوليو ١٩٩٩ في واشنطن ليست معلومات عسكرية عبر الأقمار عن تحرك عسكري هندي وحسب ' بل ومعلومات أن الهند قادرة على كسب حرب سيكون ثمنها أراض وحدود باكستانية وربما ابعد من ذلك . وبحساب الأرقام فإن تكلفة الحرب الخاسرة الأخيرة لمدة شهرين في كشمير كان قدره ٧٠٠ مليون دولار ' وفاتورة هذه الحرب القصيرة لا تستطيع دفعها دولة مفلسة ' وليس مستعدة دول وصناديق دولية دفعها لحروب غير مجدية سياسيا ' فالهند ليست الاتحاد السوفيتي والعدو الأيديولوجي في زمن الحرب الباردة ' كما لن تجد الولايات المتحدة نفسها منحازة لحرب إقليمية من هذا النوع في مرحلة توجهات جديدة في العالم ' ويهمها أن لا تنشغل آسيا في ثلاثة حروب دفعة واحدة حرب الهند و-وباكستان بسبب كشمير وحرب الصين مع تايوان بسبب تايوان والحرب بين الكوريتين . إن آسيا قابلة للهيب إذا تركت الدول العظمى قوى إقليمية تتصرف بمفردها وخصوصا أن تحت يدها سلاحا نوويا فتاكا . لقد وضع بيان واشنطن في ٩٩/٧/٥ حكومة شريف في مأزق ولكن التاريخ يعلمنا أن الطرق كلها تصبح مغلقة في بعض الأحيان 'وأمامك في تلك الحالة إما الرجوع إلى الوراء أو القبول بالانتحار . وهذه المرة كان نواز شريف اكثر من سياسي محنك وواقعي إذ جنب بلاده مصير احلك من قضية جزئية اسمها كشمير القابلة للتدويل والتفاوض السياسي . لقد أشار بيان واشنطن ما يلي :" اتخاذ إجراءات ملموسة لإعادة خط المراقبة طبقا لاتفاق سيملا ' وان المعارك التي تدور حاليا في كشمير خطيرة وتهدد باندلاع نزاع واسع النطاق " . ويقول المسؤولون الأمريكيون انه لم يكن من الصعب تخيل سيناريو تلجأ فيه القوات الباكستانية إلى سهمها الأخير المدمر-المقصود السلاح النووي – بعد أن يكون الجيش الهندي الضخم قد سيطر على جزء كبير من أراضيها وسد عليها جميع الطرق الأخرى . الحكمة وحدها سيدة الموقف والحماقات لا تجد نفعا في عالم السياسة ' وشكرا

لأقمار التجسس الأمريكية التي أنقذت باكستان فوحدها كشفت في ولاية راجستان الصحراوية عن أفراد القوة الهجومية الأساسية في الجيش الهندي يحملون معداتهم العسكرية الثقيلة مما يوحي بأنه استعداد هندي لغزو شامل لجارتها باكستان . الدرس في كشمير كان مهما للساسة في باكستان هذه المرة ' حتى وان خرجت المعارضة بكل أطيافها تندد برحيل نواز شريف من الحكومة وباتهامه بالخيانة ' غير أن المعارضة تدرك جيدا أن قرار نواز شريف كان حكيما في موقفه بإنقاذ بلاده من كارثة كبرى . ولم تعد جماعات بن لادن عناصر بعيدة في الخارج تنتظر الأوامر بتنفيذ العمليات الانتحارية وإنما أصبحت قوة سياسية في الشارع الباكستاني ' وقوة مؤثرة في الجماعات الإسلامية الكشميرية . لقد اعتقلت قوات الأمن الباكستانية في فبراير٩٩ أربعة من ابرز زعماء حركة تطلق على نفسها " طريق طالبان " الباكستانية والتي تعتبر طالبان نموذجا يحتذي . وإذا كانت هذه الحركة ممركزة بشكل ما في الحدود الشمالية الغربية المتاخمة لأفغانستان فهي دون شك لديها أنصارها والمتعاطفون معها في الأقاليم الأخرى ' وإذا كانت هذه الجماعات محدودة العدد كحركة فهي كتيار إسلامي موجودة داخل الجماعات والتنظيمات الإسلامية الباكستانية ' وهي بهذا القدر أو ذاك تلتقي مع بن لادن وحركة طالبان الأفغانية وقد عبرت في شهر يوليو ٩٩ تظاهرات كاسحة تتهم شريف بالخيانة وان الهجوم على بن لادن سيكون نذيرا بالموت وقد قال قاضي حسين احمد زعيم حزب جماعة الإسلام الرئيسي انه إذا وقعت غارة أمريكية جديدة على بن لادن فسوف تسبب اضطرابات خطيرة في باكستان في أعقاب الخيانة التي تعرض لها المجاهدون الكشميريون هذا الشهر بموجب اتفاق مع واشنطن . لقد اخفت طالبان منذ ضربة أغسطس حقيقة ومكان تواجد بن لادن ' وأنكرت طوال تلك الفترة معرفتها بمكانه ' ثم بدأت بالتدريج تتراجع عن المراوغة ' فقد استنفذت كل الوسائل في تغيير وجهة نظر الولايات المتحدة بقبول مساومات عدة ' فما عاد الطرد مطلوبا إذ لا

يوجد ملاذ للأسد المختفي ' وكما يقول روبرت اوكلي المكلف لمكافحة الإرهاب " لم نقتله لكننا ضيقنا دائرة حركته إلى حد كبير مشيرا إلى أن بن لادن لم يتمكن من إيذاء أي أميركي خلال السنة المنصرمة أي ما بين اوغسطسين . ترى هل الأميركيون الثلاثة الذين خطفوا في أفغانستان ووجد واحد منهم مقتولا لا يدخلون في نطاق المواطنة الأمريكية أم أن القتل حدث من جماعة أخرى ليست لها علاقة بأسامة بن لادن ؟ وتراهن الولايات المتحدة عبر تضييق الخناق عليه بارتكاب هفوة وستكون عندها نهايته . السؤال الذي يبقى مهما دائما أن موت بن لادن لن تكون نهاية سهلة ' فهذا المنبوذ من أطراف ما تحول إلى أيقونة قديس لدى ملايين المسلمين الصامتين والغاضبين . وسواء عاش أو مات ' اختلفنا معه حول أساليبه أو اتفقنا على مثله ' فهو سيظل بمعيار الحلم انه ثري ترك خلفه الثروة في زمن يحلم الملايين من الناس بامتلاك ١٪ من ثروته . لذا سنجد أن أنصاره في بلدان ما سينتقلون بفكرته إلى نطاق آخر وسيتحول لديهم إلى نموذج جدير بالاحترام . فمن يستطيع أن يقنع عالم ما أن القديس المنبوذ لم يكن منبوذا وقديسا في الوقت نفسه ؟



متاهات الساحة السياسية الباكستانية .

في خريف عام ١٩٩٧ م حينما كادت المعارضة الأفغانية وحركة طالبان تجلسان للمفاوضات في إسلام آباد وجدنا أن الطرفين يراوغان في التملص من ذلك الاجتماع فطالبان وجدت أن التفاوض السياسي لا لزوم له طالما إنها ستحسم النزاع عسكريا وأنها مسألة وقت لا غير ، وكان وراء التشدد الطالباني في التفاوض صقور المؤسسة العسكرية والأمنية في باكستان . أما المعارضة الأفغانية فإنها كانت - حسب تصريحات القائد الأفغاني مسعود شاه - ترفض إجراء محادثات سلام في باكستان وهو العرض الذي اقترحته طالبان وقال أن هذا الإجراء غير مفيد حتى تغير باكستان موقفها المناصر لطالبان . وأضاف أن المحادثات يمكن إجراؤها في بلد آخر محايد . وفي الفترة نفسها اتهم رباني في بيان له حكومة إسلام آباد بمواصلة تدخلها العسكري المباشر في القتال الدائر لصالح طالبان طالبا منها بوقف تدخلها في شؤون أفغانستان . و أثناء تلك الفترة تم اسر الباكستانيين في المعارك التي دارت في مزار الشريف (أكتوبر ١٩٩٧) حيث طلب رباني من المنظمات الدولية كالصليب الأحمر لقاء الأسرى الباكستانيين لتأكيد

هذا التدخل . وتشير التقديرات أن حجم القوة الباكستانية المساندة لحركة طالبان يتراوح ما بين ٢٥ -٣٠ ألف شخص تحاول باكستان أن تتملص من مسئوليتهم بحجة أن أولئك أشخاص متطوعون للجهاد في حركة طالبان . وهذا ما جعل من جديد المعارضة الأفغانية في ختام اجتماعاتها الأخيرة بحضور العلماء الموالين لها في إقليم بروان الخاضع لسيطرة احمد شاه مسعود بمناشدة باكستان وقف مساعداتها لطالبان والكف عن التدخل في شؤون أفغانستان الداخلية واحترام علاقات حسن الجوار وفقا للبيان الصادر من الاجتماع الموسع في إقليم بروان .
وجاء تصريح حسين سيد وزير الإعلام الباكستاني وهو في طريقه إلى نيويورك لحضور اجتماعات الجمعية العمومية للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والخمسين فيه من الدلالات المتناقضة لموقف بلاده إلا انه حاول أن ينفي الاتهامات الموجهة لباكستان بمساندة طالبان وإنها لا تتدخل في الشأن الأفغاني . ولكن بلاده مستعدة دائما للقيام بدور " الوسيط النزيه بين إيران وطالبان" . ومع ذلك التناقض الجوهري في الخطاب الإعلامي الباكستاني عاد الوزير وطالب بمنح مقعد أفغانستان في الأمم المتحدة الذي تشغله حكومة الرئيس المخلوع برهان الدين رباني إلى حركة طالبان التي تسيطر على ٩٠ في المئة من أفغانستان!! مثل ذلك الموقف يبدو لنا لن يستمر أو يصمد في المرحلة القادمة إذ ستشهد حكومة باكستان بزعامة رئيس الوزراء نواز شريف ضغوطا داخلية وإقليمية ودولية لموقفها المنحاز لطالبان وتورطها في كشمير والذي ربما يكلفها الثمن غاليا لذا بدأت حركة التراجع البطيء تعكس نفسها في مستويات متعددة .

سلطة الفساد وفساد السلطة .

تجاذب السلطة وسقوطها عناصر عدة منذ تأسيس دولة باكستان وانفصالها عن شبه القارة الهندية منذ خمسين سنة . غير أن العنصرين

الأساسيين في ديمومة السلطة وسقوطها كانا على الدوام سلطة الجيش وسلطة الفساد المالي . وكان الأول يحاول إخفاء عورة الثاني ويطوي ملفاته لأسباب كثيرة هو أن الجنرالات أنفسهم كانوا متورطين فيها . وبقدر ما تصبح سلطة العسكر حامية للفساد سرعان ما نجد الصراع في القمة يتبلور بسببها أو بسبب النزوع نحو السلطة وهرمها . وهناك يتم من جديد الصراع على الثروة ' فيعود الفساد عنصر توحيد للجريمة والمشاركة فيها وعنصر فضيحتها في ذات الوقت . وتتداخل وظيفة السلطة - العسكرية مع السلطة المالية وتتعاركان حول كعكة النفوذ المغرية . لذا منذ أن حكم العسكر كان الفساد يطفح على السطح مع كل انقلاب جديد وسرعان ما يهدأ بعد أن تغلق الملفات بسرعة حين يتهم الانقلابيون الجدد زملانهم القدماء بأنهم قادوا البلاد نحو الكارثة والأزمة !! . وكانت الحكومات الباكستانية المدنية جميعها منذ إعادة الديمقراطية عام ١٩٨٨م قد عزلت بتهم الفساد . النعمة الكبرى ما بين الديمقراطية وحكم العسكر أن في الأولى تصبح ملفات الفساد مكشوفة للنقاش والتحقيق والمساءلة ' بل وتلوح بها الصحافة والإعلام كيفما تشاء إلى درجة نشر غسيل الفضائح في كل طرقات باكستان . أما تحت قبضة الحكم العسكري فإن الفساد سلطة لا تبرز قباحتها إلا في الخفاء في وقت تقوم بذاتها ليس بتأثيم مرتكبيها وحسب 'بل وتتآكل من الداخل إلى أن تصل قمة الانهيار ' فالفساد المالي (الاختلاسات) ليس إفلاسا سياسيا لرجالات السلطة وحسب بل وإفلاس أخلاقي وروحي في المجتمع . ويؤثر تأثيرا قويا على مشاعر الناس ومواقفهم ' من هنا نفهم مدى أهمية استخدام القوى والقوى المضادة لبعضها البعض سلاح التشويه والتضخيم لقضية الفساد . لقد نجح نواز شريف بإزاحة بنازير بوتو حين مسكها من الخلل الأخلاقي كموضوع الفساد المالي والاختلاسات قبل نقده لأخطاء النهج السياسي مما يعني تأليب الرجل العادي في الشارع الباكستاني للتصويت ضدها ومهاجمتها بعنف . لقد استطاعت بنازير بوتو الخروج بكفالة مالية قدرها ١٠٠ ألف دولار بعدم

اعتقالها ولضمان حضورها الجلسة القادمة والتي ستعقد في ٢٠ أغسطس ١٩٩٩ م . مثل ذلك التمديد سيمنح بنازير بوتو بالمناورة حتى تنتصر في العمل لإسقاط حكومة نواز شريف في الشهور القادمة أو تنتظر من يغتاله من القوى السياسية الأخرى . وتشير لوائح الاتهام الموجهة إلى رئيسة الوزراء الأسبق " إقامة شركات خارج البلاد من اجل الحصول على عمولات ورشاوى لإتمام الاتفاقات مع الحكومة ' ومن بين التهم الموجهة إليها حصولها على عمولة ٨ في المائة من صفقة استيراد جرارات تصل قيمتها إلى ٣٢ مليون دولار . ويقبع في السجن بتهمة الفساد زوج رئيسة الوزراء عاطف علي زاردازي والذي يتهم نواز شريف بمحاولة اغتياله في السجن . ولا نرغب الإطالة حول مدى تغطية رئيسة الوزراء لسلوك زوجها ولا ادعاء كل خصم أن الطرف الآخر يلفق عليه تهمة الرشوة والفساد والسرقة . فنحن أمام فرضية مفادها إما أن يكون المتهم سارقا أو لا يكون ولا يوجد بينهما موقف ثالث . بمثل تلك الجهنمية البوليسية وبين أنيابها يترعرع الفساد ويستظل تحت "غطاء رحمته "! وحالما تدور عجلة الأيام ويطاح برؤوس تتسرب التقارير الموجعة والفاضحة . واليوم متهم رئيس الوزراء نواز شريف حسب التقرير الذي نشرته الاوبزرفر ' والمؤلف من ٢٠٠ صفحة أعده رحمن مالك وهو مسؤول سابق في وكالة التحقيقات الاتحادية الباكستانية ، وخرج مالك بكفالة وهو بانتظار محاكمته بتهم إساءة استخدام السلطة في ظل حكومة بنازير بوتو . ويؤكد على أهمية التقرير كمادة لإدانة نواز شريف وزير الداخلية السابق نصر الله بابار المتحدث باسم حزب الشعب الباكستاني . مطالبا رئيس الجمهورية محمد رفيق تارار بضرورة تشكيل لجنة تحقق في ما ورد في التقرير . ويشتمل على وجود ثروة تحققت في فترة قياسية من بينها أربع شقق في لندن في حي مايفير الراقي تزيد قيمتها على خمسة ملايين دولار' وتتضمن أيضا تهمة إخفاء الإعلان عنها تهربا من دفع الضرائب ووجود اكثر من ٧٠ مليون دولار وضعت في حسابات أو استخدمت

لإنشاء شركات تعود إلى عائلة نواز شريف . وطال التحقيق مجموعة "اتفاق " التي تضم شركات يمتلكها رئيس الوزراء وسجلت نموا كبيرا في الفترة الأولى من وجوده في الحكومة من العام ١٩٩٠-١٩٩٣ . والأكثر من ذلك أن المجموعة حصلت على مليارات من الروبيات بشكل قروض لم يتم تسديدها . في الوقت الذي تم فيه تحويل ٥٨ مليون دولار إلى الخارج منها ٥٠ مليونا وضعت في سويسرا .مثل تلك الاتهامات سيكون صداها مثل القنبلة في الشارع الباكستاني 'وستنعكس تأثيراتها على السلطة السياسية والقضائية والتشريعية ومن أهمها السلطة العسكرية التي لن تحتمل في تحييدها وعزلها عن اتخاذ قرار تاريخي حول سؤال جوهري إلى أين تمضي باكستان في خضم وتلاطم الأمواج الداخلية والخارجية ؟ من هنا كان من الضروري أن يعلن العسكر بقيادة الجنرال جهانجير كرامات احتجاجهم وقلقهم بما يدور في البلاد من تدهور سريع للغاية . وظلت الكرة النارية في باكستان تتدحرج بقوة من قمة الجبل كجلمود صخر حطه السيل من عل . كما يقول شاعرنا العظيم امرؤ القيس . فهل تنتهي في قاع الوادي دون أن تجرف معها ما تمر عليه في طريقها ؟ لحظتها بدا منطق العسكر في حالة دوران من وراء الكواليس وكأنها متاهة الجنرال غير إنها هذه المرة ليست عملا روائيا' ولكنها حقيقة سياسية انتقلت من تربة أميركا اللاتينية لتستقر في تربة باكستان .

السلطة العسكرية والسلطة المدنية .

ظلت المؤسسة العسكرية في باكستان من المؤسسات العتيدة والمتغلغلة في نسيج السياسة العليا الرسمية فقد حكمت لأكثر من ٣٥ سنة الدولة منذ نشوئها عبر سلسلة من الانقلابات . فقط في السنوات العشر الأخيرة وبالتحديد منذ ١٩٨٨ - لغاية ١٩٩٨ تسيّرها ظاهريا المؤسسة المدنية تحت مظلة دستور ظل تحت التعديل المستمر . بين

سلطتين تتنازعان الحكم وجدنا مؤخرا كيف حاول نواز شريف لجم ذلك الحصان الحرون في لحظات جموحه الأخيرة ' حين دفع بالجنرال جهانجير كرامات بتقديم استقالته تحت حجة ضغوط أبدى ظاهرها انه صرح أمام الإعلام بما لا يجوز حين قدم اقتراحا بتشكيل مجلس أمن قومي . ذلك الاقتراح بحد ذاته أثار الساحة السياسية الباكستانية باللغط واربك أجهزتها العليا' فهي بمثابة إنذار أخير موجه للحكومة ' وحول تدخل الجيش ورغبته في إحكام السيطرة من جديد على الأمور في باكستان . فإذا لم يجز للجنرال كرامات التصريح للملأ بطريقة تثير القلاقل وتشرخ المؤسسة العسكرية فلماذا تجرأ الجنرال القديم والقوي في الجيش بالخروج عن صمته' وربما تجاوزه لوائح الانضباط العسكري داخل مؤسسة ديمقراطية هشة ' يسعى نواز شريف لتثبيت أركانها' فهو يدرك أن قوته البرلمانية وصلاحياته الدستورية اكثر ضمانة وحماية من الجنرالات الذين باتوا ألان منقسمين إلى كتلتين مع الجنرال ومع رئيس الوزراء . ترى ما الذي دار يومذاك من حوار مغلق خلال اليومين من تصريح الجنرال ثم أعقبها باستقالته ؟ هل يريد الجنرال كرامات بتشكيل مجلس أمن قومي تذكير نواز شريف بالتجربة التركية وباستمرارية المؤسسة كقوة ضرورية للسيطرة على الفلتان والاستقطابات والصراعات التي تدور في الساحة الباكستانية بين القوى السياسية والطوائف الاجتماعية والدينية ؟ . هذا ما قاله الجنرال حين أعلن أن باكستان تتدهور على المستوى الاقتصادي والسياسي مما يقتضي وجود قوة فوق تلك الخلافات . وخصوصا أن باكستان تشهد حصارا دوليا تقوده الولايات المتحدة بعد إجراء باكستان تجربتها النووية وعنفا داخليا من سنوات ذهب ضحيته ما يقارب ٢٠٠٠ إنسان خلال فترة وجيزة . بل وأخفقت حكومة نواز بسياساتها الحالية من الوصول إلى توقيع اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية و بمجاراة الهند في تطورها الكمي والكيفي للأسلحة . وتعثر حكومة باكستان في تأمين دعم مالي غير مشروط لتجاربها النووية التي تشكل عبئا باهظا

من الناحية الاقتصادية .

كل ما نتخيله في الحوار المغلق لمدة يومين بين رئيس الوزراء والجنرال هو إصرار الأول على تأكيد قوته في الساحة السياسية ضد المؤسسات العسكرية بينما حاول الجنرال إملاء شروطه وتأكيد مشروعه بعد أن حاول تعليل الأسباب التي اقتضته ذلك الإفصاح . لابد أثناء الحوار دار الحديث حول ما هو موقفنا الواضح مع الولايات المتحدة بعد التفجيرات النووية . وهناك اختلافات عدة حيال هذا الموضوع وخيارنا السياسي والعسكري مع مشكلة كشمير . وما هو العمل مع ظاهرة الإرهاب والمخدرات والبوابة الباكستانية التي يعشش فيها أولئك الناس ؟ فإذا كان نواز الشريف يميل للإيجاب بضرورة مكافحة كل تلك الظواهر الخطيرة التي تسئ إلى سمعة باكستان فإن ذلك أول ما يقوده إلى سؤال كيف نتعامل مع حركة طالبان ؟ هل نضغط في اتجاه تسليم بن لادن للسعودية ؟ ذلك الحليف والصديق الدائم والثابت لباكستان . وقد تمظهر ذلك الموقف أولا برفض إسلام آباد تعيين ممثل طالبان المطرود من الرياض بعد قطع العلاقة معها . ثانيا أخذت تبرز صور بن لادن في الأماكن العامة كشخص مطلوب للانتربول لتأكيد باكستان للولايات المتحدة والسعودية بأننا نشارككم في مطاردته . هنا بدأت تدق الساعة في البحث عن اصطياد النمر السعودي الهارب في كهوف قندهار . وتتعمق الخلافات بين أصدقاء ألامس . كما أن السيناريو المحتمل أن الجنرال كرامات أثار مع رئيس الوزراء حالة الفساد المستشرية في البلاد . وما فتحه التقرير المنشور في الاوبزرفر من تساؤلات مست نواز الشريف وعائلته . وكان يومها مطروحا بجدية القضية القومية العليا والمصيرية . ماذا يكون موقف باكستان لو دارت الحرب بين إيران وطالبان ؟ كيف نمسك بالخيط الرفيع بين رغبتنا في الحفاظ على ورقة أفغانستان والضغط على ورقة طالبان والمساومة بها ؟ ماذا نعمل لو نشبت الحرب بين الطرفين ألن يكون وضع كشمير كحلقة ضعيفة فرصة للانقضاض الهندي هناك في ظروف إقليمية وداخلية

سيئة ؟ فالباكستان تمر بأسوأ فترة من علاقاتها مع الولايات المتحدة والرياض ومع جيرانها ومع المحافظات الأربع الصغيرة المتفجرة بالعنف والصدامات حيث لا يعرف العسكر ولا المدنيون إلى أين تنتهي الأمور ؟!

بدا يومها على السطح أن استقالة الجنرال كرامات انتصار للمؤسسة المدنية ولنواز شريف وعائلته وشقيقه في إقليم البنجاب' غير أن الاستقالة ورطة حقيقية ستكون لها مضاعفاتها الداخلية فالأحزاب المعارضة والجنرالات المتقاعدون أيدوا بكل وضوح مقترح كرامات وبالتأكيد هناك طابور من العسكر وراءه من كل مراتب الجيش . كما أن التصدع الداخلي عسكريا وسياسيا سيكون من صالح إيران والهند وكارثة لحركة طالبان بضعف المؤسسات التي تدعمها وخاصة في ظروفها الحالية' وهي تستعد لمواجهة ضغوطات دولية وربما حرب استنزاف مع المعارضة الأفغانية . وهناك قوى إقليمية كالسعودية ودولية كالولايات المتحدة تقف ضاغطة بقوة على الحكومة الباكستانية بصدد ضرورة إعلان باكستان عن موقفها بوضوح حول الإرهاب وبن لادن وحركة طالبان ومسألة التجارب النووية . وفي حينه طرح العالم سؤالا مهما متعلقا بدور المؤسسة العسكرية في باكستان واستقطاب الجنرالات بين مراكز عدة . هل تشهد باكستان حركة الدبابات في الشوارع الباكستانية وتجمد مؤقتا المؤسسات الدستورية حتى إشعار آخر بحجة الحفاظ على الأمن القومي ؟ أم يقتنع العسكر انهم معنيون بالتماسك من اجل الأمن القومي في الحفاظ على حدود البلاد والتصدي بيقظة لمشكلة كشمير ؟ . وترك القضايا الأخرى كلها للمدنيين لمعالجتها . لا تبشر حجم الأعمال المتزايدة بين الهند وباكستان مؤخرا بحالة الاستقرار ' ولا تبشر أيضا سحب عدد كبير من الدبلوماسيين الإيرانيين من باكستان بوجود علاقة ودية مع دول الجوار . ولا يبشر حجم العنف الداخلي والشرخ الواسع بين الحكومة الحالية وأحزاب المعارضة بالإضافة إليهم -ألان -العسكر بأن باكستان ستكون مستقرة . وتتحرك وتتعقد أوضاعها الاقتصادية

والسياسية بحجم موقفها من طالبان والتفجيرات النووية . وشكلت ضربة للحكومة تأجيل زيارة كلينتون إليهم في جولته إلى آسيا في العام الماضي . وإذا ما استمرت الولايات المتحدة في ضرب أفغانستان كضربات تأديبية من اجل تسليم بن لادن فإن الوضع سيكون أسوأ على باكستان نفسها الواقفة بين السكين وحدها . لقد صرح المسؤولون الحمائم في حكومة باكستان في الشهور الماضية عن أن نشوب حرب بين إيران وأفغانستان ستكون بمثابة كارثة . وتعني دون شك إنها كارثة بكل المستويات على اقتصاد بلد يعاني تراجعا كبيرا في تنميته فكيف سيستطيع استقبال آلاف اللاجئين في حالة اندلاع الحرب ؟! .

إن استقالة أو إقالة رئيس أركان الجيش الباكستاني في الشهور الماضية لم تكن نهاية المطاف وإنما أول معركة ننتظر صعود أبطالها بجلاء فوق خشبة المسرح الباكستاني' فليس من السهل أن يخلع الجنرالات بزاتهم . إن لعبة إحالة كبار الضباط إلى التقاعد لعبة قديمة لا تنفع لامتصاص النقمة الشعبية داخل العسكر ولا خارجها . نحن بانتظار البركان الباكستاني مع الانقلاب الجديد بقيادة رئيس الأركان الجنرال برويز مشرف . فمن المتوقع أن يحدث فراغا دستوريا وخرقا قانونيا للعديد من المؤسسات المدنية . فإذا ما كان هناك تأييد شعبي محدود للانقلاب فذلك ليس بالضرورة موافقة على نهج العسكر في مواصلة قبضتها على الحياة السياسية ' بقدر ما هو رغبة في تغيير القمة السياسية في حكومة نواز شريف . ويعتري المراقبون في الداخل والخارج قلق أن تعود باكستان لدورة الانقلابات المستمرة بعد أن تخلصت منها لما يقارب من عقد كامل تم فيه تحييد تلك المؤسسة من التدخل في شؤون الحياة السياسية الداخلية . بل ويقود لأكثر من ذلك 'حيث الفلتان الأمني والعسكري في دولة نووية ومتخلفة وتموج بالعنف والفوضى 'لكفيل بأن تحدث كارثة نووية لا يحمد عقباها . وإذا ما كان الطرف الهندي يراقب المشهد الباكستاني وهو لتوه خارج من انتخابات ناجحة للاتجاه القومي الهندوسي' فإن الفراغ السياسي المؤقت في باكستان

لربما يشجع الطرف المقابل - الهندي باستثماره عسكريا على الحدود وقرض أجزاء صغيرة غير إنها في الحسابات العسكرية الاستراتيجية ثمار جديرة بالقطف لحظة السبات . تبقى قضية مهمة في الحياة السياسية الباكستانية أن العالم اليوم بات يرفض كل أشكال الانقلابات ويؤسس لأشكال ووسائل تحد منها من أبرزها الحصار والمقاطعة والضغط بكل أشكاله . إنها مرحلة عولمة العالم ديمقراطيا واحترام الشرعية التي مهما فسدت فإنها في نهاية المطاف جاءت إلى السلطة عبر صناديق الاقتراع' ولا يجوز أن تزال إلا بها ، وعلى دبابات العسكر أن تقف بعيدا عن تلك النزاعات والخلافات السياسية بين جميع الأطراف دون تمييز . ولا يغيب عن تصورنا أن الأحداث القادمة في باكستان قد تقدم لوحات تراجيدية من أهمها استشراء العنف وتصاعد الحرب الأهلية وسقوط شخصيات في القمة عن طريق الاغتيالات . فقد كانت باكستان دائما البلد الذي تفرخ فيه جماعات الفساد والجريمة والعنف والتصفيات تحت مسميات عديدة .

إلى أين يمضي الجنرال ؟

لقد كان عنصر الوقت يتحرك ببطء وتوتر فبين المسافة الزمنية لزيارة نواز شريف للإمارات وزيارة مشرف لسريلانكا لم تكن إلا فترة قصيرة ' حيث كان المطبخ العسكري في باكستان يدير كل شيء بتكتم شديد في ساعاته الأخير ة . وكان إي خطأ بين الطرفين ستؤدي لخسارة طرف آخر في نهاية المطاف . ولو تأخر قليلا الجنرال لربما كان مصيره مجهولا ' بين حالة الإقصاء والتنحي إلى أقصى درجة من النهايات السيئة كالموت . كان العالم عشية الانقلاب والباكستانيون أنفسهم نيام بأحلام باهتة لمجتمع مصاب بحالة من الإحباط السياسي والاجتماعي نتيجة الأزمات المستفحلة وعلى كافة بناه الفوقية والتحتية . وبما أن لجنة التحقيق لم تنته من تهمة خطة اغتيال الجنرال ' فإن السرية التامة للتحقيق مع نواز شريف ستكشف في الأيام القليلة القادمة ما هو مثير ' وقد تعقد صفقة بين الطرفين في حالة (احتمال) تورط نواز شريف في مشروع اغتيال الجنرال وليس فقط تنحيته من منصبه العسكري كسلسلة لتقليص نفوذ المناهضين لنواز في مؤسسة الجيش . ومن المهم أن يأتي تنازل شريف عن الشرعية برغبته واستقالته دون ضغوط

ظاهرة للعيان مقابل إغلاق ملف تهمة القتل ' غير أن التحقيق في الفساد يبقى عنصرا مهما لرجل الشارع لكسب الانقلابيين مصداقيتهم " الوطنية" وبأنهم حقا جاءوا لتنظيف " إسطبلات اوجياس " من الفساد وهذا ما لا يستطيع الجنرال ولجنة التحقيق تجاوزه مع خصمه ' فباكستان لا تستطيع الخروج من مشاكلها فقط بتنحية أفراد واحلال آخرين محلهم يشبهونهم في الشكل والمضمون ' وإنما بتنظيف مصادر الفساد السياسي والاقتصادي من أجهزة الدولة . لقد أكد الانقلاب حقيقة واحدة أن عنصر الزمن كان حاسما في نجاحه ' وكما يقول المثل " بدلا من أن يتعشى به تغدى به " غير أن لباكستان ولائم كثيرة تطبخ على الدوام ' وهاهي الكواليس السياسية الباكستانية تتحرك في كل الاتجاهات من اجل تحديد معالم باكستان القادمة .

مفاتيح ذهبية للأبواب المغلقة

في ١٢ أكتوبر ٩٩ كان يبث التليفزيون وباللون الأسود خبر الانقلاب مع موسيقى مارشال عسكري كعادة كل الانقلابات ' وإذا بالجمهور الباكستاني يواجه رجلا ببزة عسكرية يعلن في خطابه "' انه عمل ذلك من اجل خير بلاده " فكانت رسالة واضحة للداخل والخارج . في هذه اللحظة الحرجة كان السفير الأمريكي في واشنطن يقدم تقاريره وتصوراته عن الوضع في باكستان ' وربما كان هناك سيناريو أو معلومات أولية أو عميقة عن الانقلاب ' وفي كل الحالات سواء كانت هناك تصورات قائمة ومعلومات بتفاصيل أو حتى شحيحة عن احتمال الانقلاب ' ومن ثم فإن الإدارة الأمريكية وسفيرها تعاملا مع الخبر بحذر عشية الانقلاب' فلم تتخذ موقفا حاسما مع أي طرف إلا بعد أن ترسخ لديها شعورا بنجاح الانقلاب بشكل نهائي' فقرأنا تصريحا واضحا مفاده إن " واشنطن تقرر التعامل مع الحكومة العسكرية وتطالب بجدول زمني محدد لاستعادة الديمقراطية " . المهم في الأمر كله هو تزويد

الإدارة الأمريكية في واشنطن السفير ويليام ميلام الذي قطع زيارته فورا وعاد إلى إسلام آباد ' بتصورات وخطة كاملة للتعامل مع الجنرال الجديد ومع القوى السياسية الأخرى والقضايا ذات الأولوية في المرحلة الانتقالية . لذا كان الاجتماع بين الجنرال برويز والسفير الأمريكي مطولا ' وطبعا مفردة مطولا تثير تساؤل كل باحث ومحلل سياسي .

ترى ما الذي دار من حديث في هذا الاجتماع المطول والهام بين الدولة العظمى والدولة الصديقة 'التي تراجع مستوى العلاقة ما بينهما في السنوات الأخيرة ؟ ولماذا طارت بنازير بوتو من مقرها في لندن إلى واشنطن ومنحتها محطة السي ان ان لقاء أتاح لها بإرسال رسالة إلى الجنرال ؟! ما تناقلته الوكالات من الحديث المطول والمعلن عنه تمحور حسب الأهمية . أولا : أن تبتعد باكستان عن الدخول في مغامرة حربية مع الهند بسبب كشمير' وخصوصا أن خطورة الحرب مرتهنة بالأسلحة النووية ' وعلى الجنرال أن يغير من نظرة الهند في قراءتها لشخصيته المتهمة بمغامرة كارجيل التي كان يقف وراءها ' فوجدنا أن الجنرال يسحب جيشه من منطقة التوتر كرسالة للهند . ثانيا : استمرار الضغط الأمريكي حيال المؤسسة العسكرية واحترام حقوق الإنسان في باكستان إلى جانب تفهم الفترة الانتقالية المؤقتة ' وخصوصا أن الرياح العالمية لن تسمح للجيش بالدخول في لعبة الانقلابات طالما هناك توجها نحو دمقرطة المجتمعات في العالم الثالث ' وباكستان الألفية الجديدة ليست كما هي في العقود المنصرمة منذ زمن الانقلابات والصراعات العنيفة على السلطة ' من هنا ندرك لماذا فضل السفير " جدولا زمنيا محددا لعودة الديمقراطية " بينما رفض الجنرال تحديد الجدول والالتزام به لصعوبة الواقع السياسي في باكستان ' والذي لايمكن جدولته كما تجدول دفع الديون أو انسحاب القوات العسكرية من الميدان فأصيب السفير بخيبة أمل !! ' وهذه نقطة خلاف قد تتسع أو تضيق بين الطرفين ' فربما عودة الديمقراطية بحاجة إلى ثلاثة أو ستة شهور وهناك رأي يفضل بقاء النظام في قبضة العسكر لمدة عامين ؟

فكيف سيتم تسيير شؤون البلاد الإدارية والسياسية من قبل مجموعة من العسكر ؟ . ثالثا : جرى الحديث عن طالبان وموضوع الصراع في أفغانستان وضرورة تسليم بن لادن ' غير أن ذلك لم يترشح عنه إي معلومات دقيقة باعتبارها مرتهنة بالإجراءات الأمنية إلا إننا نميل إلى أن باكستان ستتعاون مع الولايات المتحدة بهذا الشأن ' وهذه مسألة لا يختلف عليها رئيس الوزراء السابق نواز شريف ولا الجنرال مشرف 'فإنها مسألة من حيث المبدأ متطابقة لكليهما ، ويدركان أن مفتاح تطور العلاقة والدعم الاقتصادي للولايات المتحدة والغرب واليابان مرتبط بمسألة محاربة الإرهاب ' وباكستان وحدها هي البوابة الذهبية لأفغانستان وحركة طالبان وترك هذه البوابة مفتوحة يسبب إشكالية وإحراجا للنظام الجديد في باكستان .

رابعا تطرق الاجتماع لقضايا داخلية عدة كالعنف الطائفي ' تجارة الأسلحة والمخدرات والفساد وضرورة تنظيف الأجهزة والمؤسسات منها وهي من الأولويات الداخلية للاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للحكومة الجديدة . فإذا كان الحديث المعلن في هذه المحاور تركز في تلك الأساسيات الأربع ' فإن ما لم يعلن عنه في الاجتماع للوكالات هو طلب باكستان من الولايات المتحدة ضمانة حدودها من التدخل الهندي للتفرغ للشأن الداخلي بشكل تام . وهذا ما تستطيع الولايات المتحدة القيام به بين الهند وباكستان ' وهذا السيناريو الأكثر أهمية واحتمالا لنظام جديد يرغب في إرساء الاستقرار الداخلي ومعالجة قضايا مستفحلة . هذا النجاح بحاجة لضمانة بواباته الخارجية ' بينما في حالات عكسية يهرب النظام من أزماته الداخلية بمغامرة عسكرية مع دول الجوار لاخفاء فشله في الداخل واشغال الرأي العام بالنزعات القومية المتطرفة والشعارات الغوغائية تحت حجة وشعار " الوطن في خطر " . إن ضمانة الجبهة الداخلية في باكستان وتنظيف البيت الباكستاني من الداخل مرهون بحلقة هامة أولا وأخيرا ، ألا وهو إغلاق ملف كشمير ومعالجته سياسيا ، وعن طريق الحوار

الطويل الأمد ، وخصوصا أن استمرارية الصراع بين الهند وباكستان ما عاد محتملا لسببين ، الأول خطورة الحرب في ظل تملك الطرفين الأسلحة النووية وخطورة وأثار هذه الحرب -فيما لو نشبت - على مجمل المنطقة ، والثاني حالة النزيف الاقتصادي لنظام يمر بأزمة اقتصادية وديون هائلة .

من هنا نفهم لماذا يلتفت الجنرال برويز هذه المرة للداخل بدلا من المغامرة نحو الحدود ، عندما اجتاز في السابق السقف المسموح له في لعبة الحرب ؟ . هذه المرة المسؤولية تختلف فهو ليس جنرالا متحمسا للقضية الكشميرية وحسب ' يأمر بالتقدم أو الانسحاب ' يغضبه الأمر العسكري بالانسحاب أو لا تعجبه الأوامر ، ويتصرف كما يحلو له وتجرفه نزوة البزة العسكرية وطموحها ' وإنما هذه المرة يجب أن يفكر بعقلية السياسي الذي يرتدي البزة العسكرية ' كما أن مسئوليته هذه المرة تختلف عن سابقيه من قادة الانقلابات المنصرمة ' فإذا كان الظرف سابقا أتاح لهواة الانقلاب راحة النوم فإن الجنرال اليوم ليس بإمكانه إغماض عينه ولا للحظة واحدة ففي يده ألان مفتاح الحقيبة النووية .
أخيراً مسألة واحدة دون شك عرضها السفير الأمريكي على الجنرال مشرف ، وكانت على أجندة الاجتماع المطول وهو أن لا يتعرض نواز شريف للأذى كالتعذيب والتصفية ' وأنما يعامل وفق القوانين القضائية' ويمنح حق الدفاع عن نفسه في محاكمة عادلة باعتبار أن باكستان في مرحلة الجنرال مشرف " الوطني " و " الليبرالي " و " المثقف والطيب " ينبغي أن تكون دولة احترام القانون و احترام الشرعية الدستورية ' فالسياسة الأمريكية اليوم معنية بأن تقدم صورة مختلفة عن زمن بينوشيت و سلفادور الليندي ' وصورة مختلفة عن بشاعة ضياء الحق مع ذو الفقار علي بوتو ' فزعيمة العالم اليوم ترغب في التخلص من عقدة الماضي . ابتداء من عقدة فيتنام وانتهاء بالانقلابات العسكرية التي خطط لها البنتاغون والسي أي إيه في حقبة الحرب الباردة .

الفصل الثالث
ايران

خاتمي يبدأ معركته الحقيقية من اجل التنمية

اتجهت الأنظار العالمية مشدودة بعمق ميكروسكوبي حول مراسم تنصيب محمد خاتمي وقد قام خامنئي مرشد الجمهورية الإسلامية الإيرانيـة والرجل الأول في النظام الإيراني بتسليم خاتمي المنتخب من الشعب الإيراني بنتائج كاسحة مرسوم تفويضه لولاية رئاسية مدتها أربعة أعوام .هذا الاهتمام الشديد بإيران نتيجة لموقعها الجيوبولتيكي وحجمها الإقليمي ودورها المنتظر وتوجهات القيادة الجديدة 'التي لم تمتحن لا داخليا ولا على الصعيد السياسة الخارجية فكل شيء حتى الآن مجرد خطب وتلميحات وتصريحات لبرنامج سياسي تحت التجربة .

لقد وقف علي المنصة أثناء التنصيب الترويكا الإيرانية ، خامنني وخاتمي ورافسنجاني وكأنهم معا يعلنون التآلف المتنافر في لحظة تاريخية شكلية واحتفالية ' فبين الجميع هناك نقاط تماس واختلافات كامنة وحقيقية أهمها تمركز حول نصيحة مرشد الثورة للرئيس الجديد بضرورة " القضاء على الفقر والظلم في البلاد " مثل تلك العبارة ليست ردا على برنامج التنمية لخاتمي و الذي يطمح إلى تحقيقه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا في التربة الإيرانية ' وإنما محاولة جادة لمعالجة مثل تلك

النصيحة التي جاءت بعد عقدين لثورة طرحت منذ بداية انطلاقتها فلسفة المستضعفين في الأرض غير أن العدالة المثلى لم تر النور .

الاعتراف واضح لدى الجميع بأن الهوة الاجتماعية تعمقت بالرغم من حدوث تطور في مجالات تنموية عديدة ' ولكنها تبدو ضئيلة إذا ما طرحت نفسها إيران كقوة إقليمية قادمة قوية ومتطورة على طريقة النمور الآسيوية . فالمنجز قياسا بالإمكانيات لا يبعث على الراحة وخصوصا أن القطط السمان في الجمهورية الإسلامية انتفخ حجمها بكل جلاء وإلا فلما ينصح مرشد الجمهورية الرئيس الجديد بضرورة "القضاء على الفقر والظلم في البلاد" وكأن التهمة موجهة إلى قطاعات مختفية تمارس لعبة الفساد والتلاعب ومراكمة الثروة .

ففي خطبة صلاة الجمعة بتاريخ ٩٧/٧/٢٥ بجامعة طهران شدد احمد جنتي بمحاكمات سريعة لأصحاب الثروات المفاجئة بل وسميت بثروات " أسطورية" مؤكدا على اتهام أشخاص -دون ذكر أسمائهم - بأنهم " يهدفون إلى أيجاد طبقة جديدة مميزة في جمهورية إيران الإسلامية" !! وذهب إلى اكثر من ذلك فناشد بمحاكمات سريعة ودون رحمة وشفقة . مثل تلك المواقف المتشددة لا تنبع إلا من واقع حقيقي متناقض ومتفجر يتحرك تحت قشرة البنية المجتمعية الإيرانية التي تتوهم إنها توقف عجلة التاريخ في الصراع بين أولئك الذين يثرون بسرعة وأولئك الذين يعانون الفقر والفاقة بشكل أوسع .

تلك الوقائع هي وحدها الحقيقة الداخلية التي تقلق خاتمي وهي برميل للانفجار وهي مركز مشاغله وأولوياته ' ولكي يخرج منها في برنامجه التنموي لابد من إعداد إيران لمرحلة مستقبلية قادمة يكون فيها التكنوقراط وتيارات وشخصيات جديدة سواء من قلب النظام السابق أو خارجه أن تلعب دورا فعليا في التنمية .

ولكي يتم ذلك يتطلب تحجيم أدوار قوي تقليدية تعيق عجلات التنمية والحريات والإبداع والمشاركة دون خوف من صراحة النساء

وصوت الشباب ' الذين يحلمون بإيران اقل تشددا واكثر انفتاحا حتى وإن حافظت على أسسها الإسلامية كمسائل جوهرية لهوية النظام . التحديث وتحديات المستقبل هو الأفق التنموي الذي يتطلع إليه خاتمي .

هذا على المستوى الداخلي ولكن إيران لا تستطيع أن تغلق بوابتها دون الالتفات للسياسة الخارجية والتي تتمحور إقليميا في ثلاث نقاط مفصلية ١- التنسيق الإيراني -الباكستاني بشأن القضية الأفغانية وهذا ما تم في منتصف يوليو من زيارات في مزار الشريف وإسلام آباد تجسدت في لقاءات بروجردي ونواز شريف ٢- تدشين مشروع محور أيراني -سوري -مصري -سعودي في مواجهة مشروع الشرق أوسطي والتحالف التركي الإسرائيلي وسيتم مناقشته بتفصيل في مؤتمر القمة الإسلامي في نهاية السنة الجارية في طهران . ٣- مشكلة الجزر الثلاث التابعة لدولة الإمارات وهي قضية مهمة فعلا لتحسين العلاقات مع بلدان الخليج كبلدان للجوار وإزالة بؤرة من بؤر التوتر الخطيرة لذا ترددت مؤخرا تصريحات من إيران عن " احتمالات براقة للتعاون بينها وبين دول الخليج".

وتأتي عملية إصدار صحيفة " الوفاق" الجديدة والرسمية والناطقة باللغة العربية بداية توجهات صداقة مع الدول العربية . ودلالية عنوان الجريدة يعكس توجهاتها وتوقيتها ينسجم مع التطلعات القادمة للمنطقة وللدور الإيراني في تطويق وإفشال المشاريع الكبرى للهيمنة . أما على المستوى العالمي فإن إيران أبلغت الولايات المتحدة عبر رسائل منقولة بأن "مفتاح الأزمة في واشنطن" إذا رغبت الولايات المتحدة إنهاء القطيعة ' والتعامل مع الجمهورية الإسلامية على أساس الاحترام المتبادل دون التدخل في الشؤون الداخلية .

أما الاتحاد الأوربي فهو يعاني من تناقضات في الموقف بما فيها رفض ألمانيا الرضوخ للمقاطعة التي يفرضها قانون أمريكي(قانون داماتو) على إيران . وفي الوقت ذاته تواصل إيران مشاريعها في تنمية

علاقاتها واستثماراتها مع بلدان جنوب شرق آسيا' فقد جاءت أول ثمار عودة هونج كونغ للسيادة الصينية ، إذ توصلت حكومة هونج كونغ إلى تسوية خارج المحكمة مع شركة سبق وان أغلقتها بعد ما اتهمتها بمساعدة إيران على إنتاج أسلحة الدمار الشامل . كما تعتزم إيران استثمار ٤ مليارات دولار في جزيرة ميندناو الفلبينية وهي مشاريع تعود بفائدتها على المستثمرين الإيرانيين .

وبين تنمية استثمار الإيرانيين في الخارج وتقليص نمو الطبقة الجديدة المثرية بطرق ملتوية حسب رأي احمد جنتي وغيره من الاتجاهات السياسية ' فإن ذلك يجعل العربة تتحرك في اتجاهين متناقضين تتطلب قائدا مرنا ومتوازنا مع كل رموز مراكز القوى خارج السلطة أو داخلها ، خارج التيارات التقليدية أو معها ، خارج حيتان البازار أو حركة المد الشعبي والمسحوقين الذين جاءوا يتطلعون لحياة اكثر حرية وانفتاحا على متغيرات العصر ، يشكل الشباب والنساء القوة الجديدة الصاعدة والغاضبة دائما ' والتي ستدخل معارك المستقبل إلى جانب رئيسها الذي انتخبته .

فهل يحقق أحلامها حسبما يتردد في خطبه الجميلة ؟ أم يتعثر في منتصف الطريق كما تعثرت الثورة خلال عقدين لتخبرنا عن الفقر والظلم في البلاد ' وهي التي انبثقت من اجل الفقراء والمستضعفين ؟! ومع كل الاحتمالات والمخزون الكامن في بنية مجتمع متناقض ويواجه تحديات كبيرة خارجية وداخلية فإن لإيران في النهاية قيمة دولية يجب أن تصاغ وتؤخذ بالاعتبار في الموازين العالمية وصراعاتها فمنها دائما تولد المفاجآت .

انتخابات الرئاسة الإيرانية والتشخيص «الطبي» الخاطئ.

كنت ضمن الملايين الذين تابعوا الحملة الانتخابية الرئاسية في إيران . وحاولت استجلاء ما يمكن المسك به غير أنني لم استطع ، فالذين كانوا يكتبون يمثلون نماذج مختلفة من المحللين السياسيين والمختصين بما فيهم أصحاب الخبرة السياسية الناقصة في تحليل بنية مجتمعية من منظور منهجي . بين تلك الركامات العديدة من الورق المكتوب جلست حائرا لتكهنات " سياسية " أو تشخيصات "طبية خاطئة" تقود للهاوية أحيانا . وأنا استعير هنا مصطلح طبي لعلم السياسة . والأكثر من ذلك كانت القراءات السياسية للانتخابات ' بعضها "جازمة" ويقينية تسقط في فخ المعلومات الخاطئة و التنظيرات العاجلة ورؤية السطح الظاهر للظاهرة السوسيو- سياسية لمجتمع تتحول فيه العملية السياسية للتعبئة الجماهيرية نوعا من العمل السري يتجسد في مظلات و أشكال للعمل اليومي الصغير في الأحياء الشعبية والضواحي والأرياف والمعامل الصغيرة والمصانع الكبيرة . كل تلك البلبلة الإعلامية والسياسية المكتوبة كانت تتطلب المراقبة لمكيانيزم انتخابي معقد في بنية مجتمعية اقلها أن شعبها يعاني من كبت سياسي في مناحي عديدة ' فالخاصية البوليسية جزء من تركيبة الجمهورية الإسلامية' لذا تقتضي

استلهام ليس العمل السري وحسب ، بل وتوظيف التراث الشيعي في تحويل الباطنية أو التقية إلى فن لخداع الآخر' فما يظهر على السطح يختلف في الخفاء . إنها إيران التي تبدو مثل امرأة تلبس الشادور في الشارع وتخلعه في البيت فنشاهد تحت تلك الملابس السوداء آخر صيحات الموضة القادمة من الغرب . وسنحدث عنه لاحقا كجزء من تناقضات مجتمعية عكست نفسها في التعبير السياسي أيام الانتخابات' فالذين ذهبوا لصناديق الاقتراع كانوا يعبرون عن رغبة مكبوتة تم الإعداد لها مدة طويلة اكثر من فترة الحملة الانتخابية القصيرة ' فالتراكم الذي خرج في الانتخابات هو غاز مضغوط وبرميل من التوتر الاجتماعي كان كامنا في بنية المجتمع المتأزم خرج كنوع من الاستفتاء السياسي . و أنا أتابع الحملة تذكرت بعض السياسيين الإيرانيين الذين حضروا إلى قبرص في مؤتمر . كان ذلك في نوفمبر ١٩٩٦م فانخرطنا في حديث تفصيلي عن التجمعات ونسبة القوى والمناطق وأسلوب عمل الأحزاب حاليا في ظل القمع . ما هي التقديرات القادمة ؟ وأين تندفع عجلة النظام وهل هناك إمكانية قيام تحالف يساري واسع بين الأحزاب ؟ أسئلة اعتدنا عليها وهي تمس جزئيات العمل السياسي والنظام وصراعاته وغيرها من قراءات يومية لا يعرفها المراقب البعيد الذي لا يمكنه جس نبض الأحياء الشعبية والضواحي في المدن التي يعشش فيها ظلام الكبت . مدن صناعية ونصف صناعية وقرى نائية وفلاحين وطبقة وسطى وتكنوقراطيون وتجار صغار وسماسرة السوق وتجار يملكون السوق (ألبازار) و " انتهازيون" يرتدون عباءة النظام غير انهم مع " الاقتصاد الحر" . وقوى اجتماعية مهمشة وقوى صاعدة لم تحسب لها حسابات رياضية وليس حساب مركب بسيط كما يقول بعض الساسة . كل هؤلاء كانوا ينضوون تحت المظلة الإسلامية الكبيرة في إيران ' لكنهم كانوا يفتشون عن إيران أخري جديدة لم تستطع الجمهورية الإيرانية أن تحل أسئلتها الكبرى منذ ثورة الخميني' فموضوعة " المستضعفين" والعدالة الاجتماعية والحريات ' عوامل جميعها ظلت

تغلي وتتفاعل طوال سبعة عشر عاما دون حلول جذرية . إنها تراكمات هرمية مست القمة والوسط والقاعدة . وبين قراءات ساسة مختصين توقفت عند أهمها في هذه الفترة وقد حملت بعضها مجرد تساؤلات بعد أن قدمت أحيانا مجرد " بطاقة سيرة ذاتية" للشخصيات المتنافسة وهي كانت لدى الجميع متشابهة في صور!! ومختلفة في صور أخرى!! . فالعلة ليس في التشخيص وان كان أحيانا متباينا بين كاتب وآخر' غير أن " أطباء السياسة" لم يقدموا للقارئ العلاجات والاستنتاجات الممكنة والتي تقود بالضرورة للنتائج المرجوة . فكاتب ومحلل كبير مثل اريك رولو في مقالته المنشورة في ٢٢مايو١٩٩٧ في جريدة الخليج لم يقم طوال العرض إلا بتقديم المقارنة بين الاثنين سياسيا مقدما البرنامج والخلفيات وفي نهاية المقالة – ولم اعرف كيف استند على الاستنتاج – طالما هو ينتظر نتائج الانتخابات لميلاد الجمهورية الثانية بتساؤل هل تولد الجمهورية الثانية ؟ في داخل مثل هذا المنطق نقيضه فليس هناك اسهل من استخدام مفردات كلاسيكية بصيغة سؤال هل الجمهورية الإسلامية الإيرانية تقف عند عتبة تحول سياسي كبير ؟ وبالإمكان أن نقول نعم ولا فطرح الأسئلة اسهل بكثير من البحث عن إجابات قاطعة ودقيقة . بل ويستخدم رولو أحاديث إبراهيم يزدي بقوله " نحن في مرحلة تحولات قد تقود إلى تغيرات تاريخية " . ومع كل ذلك الباب المفتوح بنتائج الانتخابات لولادة الجمهورية الثانية فالقضية اكبر من مفاهيم كبرى معقدة تتجاوز مساحة انتصار انتخابي لخاتمي كمفردات "تحول سياسي كبير " أو "تحولات تقود إلى تغيرات تاريخية " . ومن منطق الصيرورة والتطور هناك دائما تحولات تاريخية في قلب أي مجتمع يبدو لنا "ساكنا" . كما أن حراكية وفاعلية هذا المجتمع ووتائر سرعته مرتبطة بمجموعة عوامل عديدة متشابكة تمس بنيته الفوقية وتخترق عموديا إلى تحت دون توقف . ولكن السؤال إلى أي مدى تتجه تلك التحولات التاريخية العميقة ؟ في صراع مرشحه الانتخابي بدون حزب سياسي عريق وقوي ؟ وهذا موضوعنا الذي سنعرج عليه لاحقا أيضا .

أما الموضوع الذي أثار استغرابي اكثر بالرغم من قيمته السياسية تلك القراءة المتضادة في بنيتها الداخلية كموضوع استقرائي مقالة الدكتور حسن العلكيم ، المنشورة في جريدة الاتحاد بتاريخ١٩ مايو ٩٧ ثم لحقها بقراءة سياسية افضل في المقالة الثانية والمنشورة في نفس الجريدة بتاريخ ٢ يونيو ٩٧ فقد اتضحت له الصورة " الضبابية " عن موزاييك المشهد السياسي المعقد لإيران الباطنية والمكبوتة سياسيا واجتماعيا .
وما سنقف عنده هو القراءة السياسية الأولى فعلى الرغم من كل البيانات المذكورة فأنا لن أناقشها فبعضها خلفيات ومدخل للموضوع يتكئ عليه الدكتور العلكيم ولكنه يتخلى عن المعطيات والبيانات عندما يلج للتحليل السياسي الدقيق والذي يتطلب فعلا "قراءة سياسية دقيقة" لإيران التي مشهدها السياسي اليومي موزاييك يجهله حتى محلل من نوع اريك رولو ذاته ' فالتصويب بالبندقية من بعيد لا يقتل الطريدة وإنما يجرحها كما يقولون وأحيانا يتخطاها كثيرا . والعودة للمقالة المذكورة سنكتشف أولا الأرقام الإحصائية الخاطئة التي منحها للمرشحين لأنه سقط ضحية تقديرات خاطئة ومقصودة بعضها ، فاستطلاعات الرأي يعتمد على الجهة التي تقوم به والتي أحيانا تخفي المعلومات لأهداف سياسية .ثانيا تأكيده على نجاح ناطق نوري بقوله "فإننا نرى إنها ستحسم في الجولة الثانية لصالح على اكبر ناطق نوري الخ " من تقديرات غير انه يعود ليضع خط رجعة " وهي مقولات تعميمية تستخدم كاحتمالات عامة بقوله " ما لم يحدث تحول دراماتيكي أو حدث هام يغلب موازين القوى لصالح حجة الإسلام محمد خاتمي . .
الأمر الثالث الذي لا نعرف من أين استقى الدكتور العلكيم معلوماته حول عدم " وجود معارضة سياسية منظمة بعد نجاح الحكومة في القضاء على الأحزاب السياسية المعارضة كحزب توده الشيوعي ومنظمة فدائي خلق . وان المعارضة السياسية الوحيدة !! على الساحة هي حركة مجاهدي خلق التي تتخذ من العراق مقرا لها " ولا اعرف لماذا ربط موضوعة مجاهدين بقضية استلام السلطة . كيف قرأ حالة سياسية

في مجتمع يعتمد جزء كبير من التعاطي السياسي فيه على عمل يومي بطئ وسري بين قطاعات واسعة من الجماهير وفن من فنون العمل الجماهيري .لماذا لم يراجع الدكتور حالة سياسية بشكل أدق عبر قنوات عديدة وإلا سيسقط تحت رحمة معلومات ناقصة لا تقوده إلى نتائج دقيقة وسليمة . وكما يقولون العبرة بالنتائج . ما وفق فيه كثيرا الدكتور العلكيم هو حالة التشخيص الموضوعي لتآكل في الأساس الأيديولوجي للنظام " وهذا كان من المفترض أن يكون مفتاحه للدخول إلى مناقشة القوى الفاعلة والكامنة والإرادية التي ستقود حملة الانتخابات للنتائج المذكورة والتي كانت للجميع " مفاجئة" ولكن هل كانت مفاجئة للشارع الإيراني وقواه السياسية المعلنة والسرية ؟ نميل للعكس فقد كانت القوى تتحرك بطاقة سياسية وجماهيرية منظمة أثناء الحملة الانتخابية ' وعرفت كيف تمسك بأهم المفاتيح المفصلية فكانت الشبيبة والنساء والكومبيوتر الأدوات الفعلية في ترجيح كفة الميزان وبشكل ساحق ' والذي لم يقرأه أي محلل سياسي رقميا بينما استطلاعات الرأي الإيرانية مسكت بالموضوع من زاويته الحساسة ومن الضروري أن نعرج عليه وملامسته كحقائق ضرورية .

الشبيبة والنساء والكومبيوتر يهزمون نوري .

في رواية تورغنيف "الإباء والأبناء" لم يكن الصراع بين الجيلين عائليا وحسب بل وامتد إلى خارجها . فالمجتمع الروسي كان يوم ذاك يغلي من اجل التغيير نحو الليبرالية والقيم الأوروبية . فالتحولات وصلت إلى نقطة انعطاف تاريخي كان لابد وان يدخل فكر الجيل الشاب من الأبناء في صراع مع الجيل المحافظ من الأباء في لحظة جادة وفاصلة من الصدام التاريخي . تلك الروح والعقلية والسلوك السياسي للرواية الروسية دلاليا في عمقها " التورغينيفي " أصبحت ليست فلسفة الحياة والتغيير لدى ماركوز المعاصر في كتابه " البعد الواحد" وإنما تفكير

ونهج أغلبية الرؤساء الذين دخلوا صراعا مع فكر محافظ -باعتباره فكر جامد ودوغماني- باستخدام مفردة ساحرة هي التغيير . هكذا استخدم كلينتون هذه المفردة الجذابة وتبعه توني بلير فمضمون الكلمة تحمل دلالة عميقة قادرة على استقطاب كل الأجيال والفئات فهي تحمل من الأبعاد المتعددة المعاني . ودلالية التغيير لابد وان تأتي كشعار انتخابي وورقة دعائية في مرحلة يمر المجتمع فيها بحالة من الإشكالية أو الأزمة لتصبح " التغيير" المفتاح السحري للمحبطين والباحثين عن الخلاص الجديد . لذا التقط خاتمي مع طاقمه الاستشاري أولا في كيفية صياغة البرنامج الانتخابي وثانيا كيف تتم عملية الحملة الانتخابية ذاتها وثالثا في أي الأوساط والشرائح والقوى المجتمعية التي ينبغي أن تكثف وتركز الحملة الانتخابية . وبالرغم من أن النساء والشبيبة قوى اجتماعية غير متجانسة وتنتمي لطبقات متعددة فإن الجامع الأساسي بينها تمحور حول - هذا إذا ما عرفنا أن جزء كبير من النساء كن أيضا شابات -نقاط مشتركة اجتذبها ليس مغناطيس المرشح خاتمي وزير الثقافة السابق بخطابه السياسي الجذاب وحسب ' وإنما تركيزه حول أهداف برنامجية مفصلية تهم الناخب المأزوم من نظام سياسي تجمد عند نقطة محددة خلال سبعة عشر عاما ' وغرق فيها وغيبها تماما . فقد استخدم خاتمي حرية التعبير كخطاب سياسي انتخابي مناقض ومخالف للخطاب الرسمي والديني . البحث عن حقوق الإنسان والتي تتماس مع الحريات العامة المغيبة بما فيها الحريات الشخصية . التركيز على دولة القانون والدستور . هذه النقاط المحورية تعني الشيء الكثير من الأمر داخليا ابتداء من الشادور وأفلام الفيديو والحريات الصغيرة المقموعة الممنوعة وانتهاء بأمور كبرى كحق المرأة في الترشيح للرئاسة وتغيير الأسس الجوهرية في بنية المؤسسة الدينية إلى حد المطالبة بفصلها عن الدولة . أما شعار" العدالة الاجتماعية " والذي رفعه كل المرشحين فقد اصبح شعار كلاسيكي مستهلك إعلامي يستخدمه الجميع وعملة ذات وجهين ، فالممارسة السياسية برهنت أن ذلك الشعار كان وليدا وملاصقا للثورة

منذ زمن الخميني . لقد كانت فائزة هاشمي ابنة الرئيس السابق رافسنجاني تعبيرا حيا عن قطاع محدد من النساء ينتمون للطبقة الوسطى والتجار وجزء من النساء المتعلمات والأكثر اقترابا للموظفات والتكنوقراطيات ' بينما كانت عظام طالقاني ابنة آية الله طالقاني ومنافس الخميني تعبيرا عن شرائح من النساء والفتيات الأكثر اقترابا لأبناء الطبقات المسحوقة والأقرب لتيار اليسار ـومن الملاحظ حدث تشوش في المفاهيم في غالبية المقالات حول مصطلح الإسلام الماركسي واليسار الإسلامي وغيرها من الكليشهات . هذا التلاقح داخل القوة النسائية تماس أيضا مع الشبيبة وحلمها في التغيير فهي تعاني من حرمانها ابسط الحقوق التي تنتمي للعصر . والتي وصفها عالم النفس الإيراني شهريار روحاني بقوله :" الشبيبة في إيران مستعدة للانفجار وينبغي على الرئيس أن يقودهم للاتجاه الجديد " . وكان الخطأ الفادح من خطاب نوري الانتخابي انه لم يناور بقدر ما استمر في مواقفه المتشددة منهم ' حين قال " علينا أن نحمي شبابنا ومجتمعنا وثقافتنا من أي تلوث ثقافي " فلم يكن خطاب الرد من الشبيبة عليه إلا بالزحف تظاهرا من الضواحي والأحياء المحيطة في جنوب طهران وهي المناطق الأكثر فقرا ' ومنها انطلقت الاحتجاجات والتأييد أثناء ثورة الخميني والتي وصفها المراقبون آنذاك بمدن الصفيح الطينية SHANTY TOWN وهي نفسها التي خرجت عام ٧٩ سنراها تخرج عام ٩٧ – والمفارقة غريبة حتى في جناس الأرقام ، غير أن للتاريخ دائما مفارقته ، فتلك القوى الشابة نفسها خرجت تهتف في الشارع متجهة نحو المدينة /طهران " خاتمي . . خاتمي أنت الأمل " بين خطابين الأول لمرشح يتوعد خائفا على الهوية الثقافية كتعبير عن المحافظة ومرشح خطابه ينطلق من ضرورة تاريخية للتغيير بقوله " بضرورة التوقف عن تأليه أو كراهية الغرب كما جرت عليه العادة لنستطيع أن نقيم بموضوعية نمط التنمية مع جدارته المتعددة وثغراته وطوابعه السلبية ". وبذلك تضمن خطابه العقلانية والمرونة والاتساع في حركية الطرح

والشعارات والمواقف . أما العنصر الثالث الذي اعتمد عليه خاتمي فهم الإيرانيون الخبراء و القادمين من الولايات المتحدة وهم مفتاح حملته الانتخابية ومركزه الانتخابي ليجعلنا ذلك المركز الانتخابي وأجهزة الانترنيت نؤمن بعلم جديد سوف اعرج إليه بشكل اكثر تفصيلا . فالرئيس يلتسن كان في حملته الانتخابية الأخيرة يعتمد على خبراء من وراء الكواليس ذكرتهم وسائل الإعلام وكانوا سبب نجاحه وقد حضروا من الولايات المتحدة أيضا . وطبعا هذا لا يعني إننا نشكك في الهوية الوطنية لخبراء خاتمي من الكادر الإيراني ولكن لنشير إلى مسألة القراءة العلمية لاستطلاعات الرأي وتجميع البيانات الدقيقة للسكان وتركيبتهم العمرية ومعرفة اتجاهات الرأي العام ومزاجه وغيرها من مسارات وسلوكيات . وهو -المركز الانتخابي - الذي دفع الشرطة بقرار من المجلس الدستوري بإغلاقه قبل أسبوع من الحملة الانتخابية . وهذا التعسف " الديمقراطي" رفع من حجم التعاطف مع خاتمي ووضح اكثر للرأي العام مدى تدخل مؤسستين ما عادتا محبوبتين ومحترمتين من غالبية الشعب الإيراني ' وهم الحرس الثوري وجهاز الأمن والذي مركز النقد من قبل خاتمي سواء بلغة مباشرة أو إيحائية . وتلك الممارسات التعسفية أحيانا ترفع من نسبة الأصوات نتيجة تحول في المزاج العام لدى الناخبين المترددين بين المرشحين المتنافسين ، غير أن السلوك السياسي ذا الأداء السيئ يتحول في يد المرشح الآخر إلى ورقة مهمة للمناورة والتحريض والتعبئة لبرنامجه . وإذا ما عرفنا أن الشبيبة كانوا هم دائما وقود وضحايا الحرب العراقية -الإيرانية سواء بموتهم في أتونها أو تحولهم إلى أطفال أيتام فإنهم بذلك يحملون في داخلهم حكاية الثورة ومسيرتها المتعرجة بين الحلم والخيبة .

الاستطلاعات كعلم في مجتمع مكبوت

لقد تميزت الانتخابات الإيرانية بدرجة عالية بمناخ حر في التعبير

والحركة أثناء الحملة الانتخابية وان كان حضور " القفازات الناعمة السوداء " متواجدا كجزء من مؤسسة متجذرة لها مصالحها الحيوية غير أن المتاح من حريات عامة منح المرشحين أداء انتخابيا واسعا من حيث هامش حركتهم . والجديد في الانتخابات الإيرانية هو لعبة استطلاعات الرأي والتي كان ضحاياها هم البعيدين عن مسرح الإحداث والمشهد اليومي لتفاصيل العمل الانتخابي ومزاج الجمهور المتأرجح بين البرامج والخطابات السياسية . وقد اتضح أن كلا المرشحين كان لديه استطلاعات الرأي غير أن مركز خاتمي الانتخابي كان اكثر دقة وعلمية ورصدا للبيانات وتجميعها وتحليلها بينما الطرف المضاد كان يستدعي منه أن يخفي الحقائق التي ليست في صالحه من اجل بلبلة الرأي العام وأحيانا نتيجة نقص في استخدام الاستطلاع الذي تصبح بياناته غير دقيقة في مجتمع يتسم بالشك وغياب الثقة . فواحد من استطلاعات الرأي منح ناطق نوري ٤٠,٨٪ بينما حصل خاتمي ٣٣,٨٪ ومرشح ثالث هو محمدي ريشهري نسبة ٨,٢٪ وهو مع نوري يشكلان التيار المحافظ – حسب ما ذكره المعلقون المهتمون بشؤون إيران وعلى ضوء قراءة استطلاع من هذا النوع تصبح النتيجة أن مرشحا اليمين " المحافظ" سيمنح أحدهما الآخر نسبته في الجولة الثانية . وبذلك تصور البعض أن نوري سوف يحصل على نسبة ٥٠٪ وهي حاصل جمع النسبتين من الأصوات الانتخابية . ولكن النتيجة جاءت مختلفة ومفاجئة جدا إلى حد الدهشة فالانتخابات منحت ناطق نوري ٢٥٪ بينما حصل خاتمي على٦٩٪ . مثل هذه النتيجة تجعلنا نقف متسائلين أين ذهبت النسبة الناقصة والتي بلغت مائة في المائة من حجم الاستطلاع ونتيجته . أين ذهبت ٢٥٪ الباقية من حصة نوري إن لم تصب في خانة أو صندوق خاتمي . وبجمع الحاصل والذي جاء من سلة المرشحين وانتقل إلى خاتمي والذي حصل على ٣٣,٨٪ –حسب الاستطلاع المذكور والخاطئ (حصة خاتمي) زائدا ٢٥,٢٪ (حصة المرشحان ريشهري ونوري) = وبذلك تكون النتيجة ٥٩٪ بينما خاتمي حصل على ٦٩٪

وبفارق ١٠٪ عن الاستطلاعين وهو الرقم الذي جاء من طائفة السنة والاثنيات والأعراق والديانات الأخرى وتتراوح جميعها ما بين ١٠-١٢٪ وبذلك ندرك من أين جاءت الأصوات لخاتمي . وبما أن هناك اكثر من جهة قامت باستطلاع رأي وهي استطلاعات مضادة بين الخصوم الانتخابية فإننا من الضروري أن نتوقف عند استطلاع نظمه أنصار تيار الوسط وكبار رجال الدولة الذي يساند خاتمي . وبما إننا ذكرنا عن تشييد المركز الانتخابي والذي أغاظ الشرطة والمجلس الدستوري فأغلقه قبل أسبوع من توقيته مصحوبا بتهم وذرائع مثل " استخدام الأموال والممتلكات العامة خلال الحملة الانتخابية" . مثل هذا السلوك ليس إلا تعبيرا عن غيظ التيار المحافظ والذي لن يتوقف عن لجم حركة خاتمي لاحقا . وقد أشار استطلاع الرأي الآخر إلى حصول خاتمي على ٥٩٪ وناطق نوري على ٢٠٪ والمرشحين الآخرين ١١٪ وظلت نسبة ١٠٪ خارج التصويت إما امتناع أو حياد الخ . وإذا ما رجعنا إلى سؤال جوهري مفاده أيهما كان اقرب للرقم الحقيقي ؟ يكون مركز خاتمي ومناصريه اكثر دقة فبين الرقم الذي حصل عليه خاتمي في الاستطلاع وهو ٥٩٪ والرقم الذي حصل عليه في الانتخاب وهو٦٩٪ فإننا نكون أمام فارق ١٠٪ بين النتيجتين قبل وعشية الانتخابات الكاسحة . والمأساة أن الفارق لن يكن صغيرا مما يعكس عدم قراءة دقيقة للانتخابات عبر أرقام وفهم لسوسيولوجيا الرأي العام ومزاجه . ويترك المحللون في علم الإحصائيات الانتخابية هامشا قدره ما بين ١-٥٪ ويضيق إلى ما بين ١-٣٪ بين المرشحين تأتي أو تتحرك من أصوات الناخبين الذين يغيرون رأيهم في الأسبوع الأخير من الانتخابات . لقد انتقل متوسط المرشحين ٥٪ لناطق نوري + ١١٪ للمرشحين الآخرين مما يعني = أو حاصل الجمع ١٦٪ وبما أن متوسط الاثنين ٨٪ وهو الذي انتقل إلى خاتمي ٥٩٪ +٨٪ = تكون النتيجة ٦٧ ٪ إما الفارق وهو ٢٪ الهامش الذي تحرك بين المتوسط فهو إما جاء من المرشحين أو من ١٠٪ الذين قرروا الامتناع عن التصويت ذهب نسبة منهم إلى

الاقتراع . وبذلك يتحول علم الإحصاء الانتخابي علم قائم بذاته . وفي الدول الديمقراطية العريقة أو ذات التجارب الناشئة كالهند وقبرص تمنحك فواصل صغيرة بين مرشح وآخر . وبما أن إيران مجتمع يتحكم فيه جانبان ، الجانب الأول كونه مجتمع باطني يعتمد " التقية " فهناك مراوغة من الناخب في تقديم وجهة نظره الحقيقية والسليمة لاستطلاعات الخصم أو غيره والجانب الثاني مناخ الكبت السياسي في دولة مازال فيها مثل تلك الأجهزة قابلة لمطاردتك كما فعلت مع مرشح الرئاسة المنتصر بمنعه من إكمال لقاءاته الجماهيرية الأخرى . ومع ذلك هناك وسائل وأساليب علمية في الإحصاء تستقرأ الاستبيانات وهي قادرة على تحليل المعلومات بعد جمعها بطرق عديدة . فهل برهن خاتمي على أن الكمبيوتر والانترنيت ليس هما الشيطان الأكبر وإنما كما أشار في أحاديثه بضرورة استيعاب التطور والمتغيرات وعدم "كراهية الغرب كما جرت العادة " . ولكن الانتصار الكاسح الذي عبر عن حالة قائمة تحت قشرة المجتمع المكبوت والذي مارس فن المقاومة بالحيلة كما يستخدمها جيمس سكوت لدى الشعوب والجماعات الواقعة تحت الكبت والاضطهاد فإلى أين ينتهي لرجل دون حزب سياسي قوي ؟ فمن السهولة أن ينقلك الناخب الحر إلى دفة السلطة غير انه لا يستطيع أن يدافع عنك أمام المؤسسات المنظمة والبيروقراطية في ميكانيزم الحياة اليومية فلكل نوع من الصراع أدوات ووسائل مختلفة .

خيارات صعبة ومنظور جديد .

حالما انتصر خاتمي في حملته الانتخابية ووصل إلى دفة الرئاسة أخذت تتفاعل الأحداث وتتحرك القوى المحافظة في الداخل للدفاع عن مواقعها . غير أن خاتمي يمتلك من الوعي ما يكفي لفهم المرحلة الثانية ' وهي مرحلة السلطة واستلامها وإدارتها . وبين المرحلتين هناك بون شاسع جدا . ولكن خاتمي كرجل سياسة عرف إلى أين يتجه عشية

انتصاره ، فالخطوة الأولى كانت زيارة قبر الخميني وهناك جلس وذرف الدموع . وبذلك الخطاب السياسي ذي الدلالات المعلنة وغير المعلنة أرسل خطابا صامتا عبر دموعه للجميع أولا للمحافظين ليذكرهم بأنني خمينيا اكثر منكم وثانيا لرجل الشارع العادي -ناخبه- لكي يفهم بأن الرئيس الجديد ليس معاديا لا للثورة ولا لرمزها . وبذلك يقطع الطريق على الهجوم المباغت والمنتظر من التيار المحافظ فهو يدرك كل الإدراك كم تمتلك المؤسسة المحافظة من قوة وتأثير ونفوذ في المجتمع الإيراني وخارجه ، فلها سطوة روحية ودستورية ومادية وصلاحيات تكاد تكون مطلقة . وبالفعل قال رجل الدين الإيراني آية الله احمد جنتي " إن على الرئيس الإيراني المنتخب محمد خاتمي أن يجعل الله على قمة أولوياته على أن يجيء بعد ذلك الزعيم الإيراني الأعلى آية الله خامنئي ثم الناخبون في المرتبة الثالثة " (ولاحظوا كيف وضع الشعب مراتبيا) . وإذا ما عرفنا أن جنتي هو عضو رفيع في مجلس الوصاية فإننا نقرأ بسهولة خطبة يوم الجمعة في ٩٧/٥/٣٠ والتي تبعث بشرارة حامية ولامعة تحاول الحفاظ على صلاحياتها العليا ولجم حركة الرئيس الذي صرح بعض أنصاره بمواقف مخيفة للمؤسسة الدينية والتي يقول بعضها بوجوب " فصل المسجد عن الدولة " وهو بمثابة خطاب الثورة الأوروبية ضد الإقطاع حينما فصلت البرجوازية الصاعدة الكنيسة عن الدولة . لمثل تلك التوجهات معارك قادمة دون شك داخل المؤسسة الدينية وخارجها ' وسيحاول فيها التيار المحافظ من البداية محاصرتها . كيف يواجه خاتمي مؤسسة دينية وأجهزة في الدولة متشعبة في الأمن والحرس والجيش والمجالس والبرلمان وفي صميم البنية البيروقراطية في أجهزة الدولة دون سلاح سياسي منظم يتم عبره تنفيذ برنامجه الذي وعد به ناخبيه ؟ يبدو ما نقوله معد قبل الحملة الانتخابية كمشروع متقدم لم يكشف النقاب عنه في خضم الحملة الانتخابية ' بينما كشفت توجهات محمد خاتمي رغبته لتشكيل حكومة ائتلافية والتفكير في تأسيس تنظيم سياسي وإرساء المجتمع المدني والذي يحترم حكم

القانون والدستور ومنح الآخرين حق التعددية الحزبية كمعارضة مشروعة . وهنا نؤكد على جملة المعارضة المشروعة والتي ليست بالضرورة دينية الطابع والملامح والتوجهات . تلك هي الديمقراطية الحقيقية وليس المنتقصة والمقيدة كما نراها أيضا في النظام الانتخابي الإيراني . وإذا لم يحتمي خاتمي بحزب سياسي فإن القوة الشبابية والنسائية لا تشكل إلا ورقة انتخابية تذروها الرياح متى ما تبعثرت دون تنظيم مسيس إلى جانب منح الأحزاب اليسارية وغيرها حق العمل العلني دون مطاردة . وبدون ذلك يكون صدر خاتمي مكشوفا للرصاص على المستوى السياسي والمعنوي فلدينا تجربتان خارج إيران كنموذج انتخابي تم فيه مصادرة شرعية انتخابية ودستورية . النموذج الأول في الإكوادور حيث ازيل عبد الله بوكرم المنتخب شعبيا بوسائل التحايل الدستوري وضغوط النخبة من العسكر والأجهزة البيروقراطية والطبقات التي كان لها مصلحة في إزاحته لعدم اتفاقهم مع برنامجه السياسي .والنموذج الثاني هو نيجيريا فقد أزاح العسكري ساني أباشي خصمه المنتخب مشهود ابيولا من خلال بزته العسكرية وسطوة الجيش التي يمتلكها كأداة ضاغطة ,والاثنان حتى ألان لم يستطع الشارع السياسي في بلديهما أن يعيدهما للسلطة على الرغم من وجود أحزاب سياسية فيها فما بالنا في الحالة الإيرانية التي لا يمتلك رئيسها الجديد والمنتخب حزبا سياسيا عميق الجذور ومتمترسا في الشعب ' بحيث يتسيج به كضمان من اجل الحفاظ على السلطة . والذاكرة الإيرانية مازالت تتذكر كيف خسر بني صدر مواقعه الانتخابية وهو الذي حصل على ١١ مليون صوت . والتاريخ يذكرنا بمحنة عبد الناصر والذي اكتشف أن وجود الحزب ضرورة بعد هزيمة حزيران فالشارع الملتهب أعاده لكي يتراجع عن استقالته من دفة الحكم ولكنه لم يستطع أن يحميه حتى لحظة وفاته غير انه بدأ يخطو في اتجاه الحزب ولكنها كانت خطوات بطيئة ومتأخرة . فهل يقرأ خاتمي أوراق مطوية ليس في التاريخ الإيراني منذ زمن الشاه حتى إسقاطه وحسب' بل

وفي التاريخ الإنساني برمته والذي يعلمنا الفرق الشاسع بين إسقاط السلطة واستلامها وبين الحفاظ عليها والاستمرار فيها ، فبين الاثنين مساحة واسعة من الصراع الذي لن يتوقف قبل السلطة وبعدها . وسواء اخفق نوري أو نجح خاتمي واستمر ، فإن المؤسسة الدينية والجمهورية الإسلامية ستبقى تجربة جديدة في النهج والشكل الديمقراطي القابل للتطور والنمو والإجهاض ومن داخله . فإما أن يتسع النهج الديمقراطي ويتجذر كتقاليد شرقية جديدة أو يتراجع ليؤكد للتاريخ مرة أخرى مقولة الاستبداد الشرقي للإنسان والنمط الآسيوي في التاريخ . وفي كلا الحالتين تصبح من حيث الراهن إيران الآسيوية يتنازعها طريقا الديمقراطية واللاديمقراطية في تربة وتقاليد محلية في زمن رياحه مع الطريق الأول حتى ولو كان بأعضاء مبتورة ومشوهة .

الحشود الإيرانية و«الفخ» الأفغاني .

تبدو الغيوم مغبرة وداكنة عند الحدود الإيرانية الأفغانية من كثافة الآليات الحربية مما جعل المراقبين الدوليين وخبراء المنطقة يفتحون ملفاتهم ويشرعون في التأويلات والتخرصات' والأكثر من ذلك استخدام الاحتمالات ' والتي تحركت ما بين خيوط عدة متشابكة تنتهي في نهاية التحليل بتساؤلين جوهريين إلا وهما هل تدخل إيران الحدود الأفغانية أم تكتفي عند نقطة الحدود لاعتبارات عدة ؟ وإذا ما دخلت إيران عمقا لما وراء الحدود بحيث تغوص في " المستنقع " الأفغاني هل بإمكانها الخروج منه بالسهولة الذي دخلته ؟ . لاشك أن المسألة اصعب بكثير من التنبؤ بسيناريوهات دقيقة في منطقة جغرافية حساسة وثرية بموارد طبيعية أهمها الغاز والنفط . وتتطلع الدول النفطية الكبرى إلى تقاسم آسيا الوسطى وما حولها ساعية كي تصبح منطقة مستقرة ' حيث مشاريع الغاز وأنابيبه والشركات النفطية العملاقة هذه المرة لن تصمت حتى ولا دولها لجرها إلى كارثة الحرب ' والتي تنتظر منذ تفكيك الاتحاد السوفيتي تحريك عملية التنمية في منطقة حادة ومعقدة بصراعاتها العرقية ، فالحشود اقرب هذه المرة إلى حدود دول مثل طاجيكستان و أوزبكستان وتركمانستان ولا يفصلها عن تركيا إلا بحر قزوين ' وهي بدورها تتوق إلى أن تلعب دورا سياسيا وثقافيا في تلك

المنطقة الجديدة ' لكونها الجسر الآسيوي الأوروبي والشرق أوسطي ' بل وهي المنافس الأكبر للهيمنة الروسية في المنطقة .

وتراهن دول الغرب والولايات المتحدة والصين واليابان على مكانتها ودورها في تعزيز أنظمة سياسية ليبرالية في آسيا الوسطى ' وكشعوب منفتحة ودول بهوية إسلامية . فالنموذج الإسلامي المطلوب في المنطقة من الوجهة الغربية والأمريكية هو النموذج التركي وليس الباكستاني أو الأفغاني أو الإيراني الذي لم يقدم كل منها سياسيا واجتماعيا إلا تشريعات ونهج متشدد في المواقف والتوجهات . ومع ذلك لن تتصادم مباشرة أو علانية دول الغرب مع تلك الأنظمة المتباينة تاركة للحركة الداخلية والضغوط المجتمعية وحدها الدفع في اتجاه التغيير شرط أن تقدم لها يد المساعدة والدعم بشكل مكشوف أو مستتر . ويتداخل اليوم في عملية التنمية عالميا الصراع والوحدة حول قضية حقوق الإنسان والتعددية والديمقراطية في البلدان الجديدة وهي مازالت في حالتها الهلامية .

حشود ضاغطة أم تكتيك عسكري ؟

تناقلت وكالات الأنباء أخبارا عن ضخامة الحشود الإيرانية التي دفعت بها حكومة خاتمي للحدود الشمالية الشرقية المتاخمة لأفغانستان ' بل وقدمت بعضها أرقاما تضاربت ما بين ٣٥ ألف إلى ٧٠ ألف جندي مدججين بأنواع مختلفة من الأسلحة البرية والجوية ' وهو اضخم حشد لإيران بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ' يتم دفعه برغبة الحرب أو التلويح بها . ولا نخال أن إيران تهوى لعبة استعراض القوة أو تتمنى أن تجرب صواريخها الخاصة الحديثة الصنع ومن ضمنها شهاب ٢ في حرب فعلية ' وليس تمارين عسكرية ' وإنما للحشود العسكرية دوافع عدة ' نوجزها في ثلاثة دوافع رئيسية . أولا يأتي الحشد العسكري الإيراني بدافع إحساس القيادة الإيرانية والشعب الإيراني بإهانته وإهانة

كرامته القومية .ثانيا تحاول إيران التأكيد على إنها قوة مدافعة في المنطقة والعالم عن الإسلام وعلى الخصوص الإسلام الشيعي وهو أحد المرتكزات الأيديولوجية التي تغذت منها الثورة ورجل الشارع الإيراني والحركات الإسلامية في جميع أنحاء العالم وعلى رأسها الحركات والمنظمات الدينية الشيعية . ثالثا تسعى إيران بهذا الحشد للتأكيد للعالم الإسلامي أولا والعالم ثانية بأنها قوة إقليمية لا يمكن التقليل من مكانتها وهيبتها . ويجب الأخذ بعين الاعتبار بقدراتها البشرية والعسكرية والاقتصادية . ولا يمكن رسم الصراع وتوازناته في المنطقة بدون هذه القوة الإقليمية . مثل تلك الدوافع الثلاثة مشتملة إذا ما تشابكت و تجمعت في بوتقة واحدة لابد وان تقود القيادة الإيرانية للتحرك نحو الحدود الأفغانية من اجل أن تبعث برسالتها لحركة طالبان ومن يدعمها بأن " كرة اللهب " المزعومة ستحرق الجميع . إذ الحرب هذه المرة ليست كما هو في مرحلة الحرب السوفيتية – الأفغانية عملية جهاد ضد الشيوعية وإنما ستكون كرة لهب إسلامية – إسلامية . وبذلك سينقسم العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي ودول عدم الانحياز وحركته وغيرها من دول كبرى إلى جانبين حيثما تتحرك رياح المصالح بينها ' سواء مصالح عرقية وطائفية وحدودية أو سياسية واقتصادية' فالوضع على شفير الهاوية ونحن ننتظر مهلة الأسبوع التي تنتظر نتائجها إيران من الوساطة السعودية والباكستانية للرد عليها بخصوص ١١ صحفي ودبلوماسي أيراني مجهول مصيرهم . مما يعني أن قرار الحرب مع حركة طالبان مؤجل حتى ورود الإجابة من الوسطاء ' وبعدها تتم المواجهة بالكيفية التي يقرر الإيرانيون فيها تكتيكهم العسكري وخطتهم المرسومة .

التفاوض السياسي والتكتيك العسكري .

بدأ الخبراء العسكريون تحليلاتهم من جهة والسياسيون من جهة

أخرى على أن إيران ليس بإمكانها الدخول بقواتها البرية وإنما ستستخدم قواتها الجوية لضرب مواقع حركة طالبان في الأماكن التي انتزعتها مؤخرا من المعارضة الأفغانية ' وخصوصا بعد دخولها مزار الشريف في ٨ أغسطس أي بعد يوم من ضرب السفارتين الأمريكيتين في كل من دار السلام ونيروبي ' بل وذهب بعض الخبراء العسكريين بأن القوات الإيرانية بدخولها الأراضي الأفغانية ليس بإمكانها حسم الحرب أو الصراع والانتصار في فترة وجيزة نتيجة تقارب القوتين . غير أن القرار التاريخي الخطير للحرب يظل متروكا لدى القيادة السياسية الإيرانية الحالية وهي حكومة خاتمي ' التي ستفكر بخبرة حروب الماضي وجراحاتها وبحكمة رجل مثل خاتمي يفكر بعقل اهدأ من مؤثرات الضغوطات الداخلية والاتجاهات المتشددة والسيناريوهات العالمية التي قد تكون هذه المرة حربا جديدة من طراز "ورطة" الحرب العراقية -الإيرانية ' حرب تستهدف إعادة رسم المنطقة بشكل جديد لتعقد حالتها بين التركيبة العرقية والقومية والثراء النفطي . أو كما سماها فيكن تشيتريان " بجدلية الصراعات العرقية ومشاريع النفط " في مثل تلك المنطقة الملتهبة .

ولا بد أن نعيد للذاكرة ما قالته مادلين اولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية في كلمتها أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي عن سياستها تجاه القوقاز حول نزاع كاراباخ قائلة " لدينا مصالح إنسانية وسياسية واقتصادية مهمة في هذه المنطقة ' ونحن مستعدون لأداء دور أكثر وضوحا ثم دعت الكونجرس إلى رفع القيود عن المساعدات غير العسكرية إلى أذربيجان ' مع المحافظة على دعم برنامج مساعدتنا السخي في أرمينيا " . مثل ذلك الوضوح من الكلام تجاه دولتين متنازعتين لابد وأننا سنراه في المستقبل القريب يتحرك بمرونة بين حركة طالبان وإيران في التوتر المتزايد مؤخرا والذي قد يفضي إلى نزاع مسلح وان كانت دول المنطقة والجوار جميعها متورطة بنسب متفاوتة في ذلك النزاع .

لو قلبنا أوراق الشهور الأخيرة من الاجتماعات الفاشلة بين حركة طالبان والمعارضة في إسلام آباد ' وتعثر المفاوضات ومن ثم الشروع في الاقتتال مرة أخرى على أساس أن حركة طالبان كانت مقتنعة اقتناعا تاما بأنها ستحسم الصراع والخلافات مع المعارضة عسكريا - حسب تصريحات طالبان يوم ذاك - مما يعني شعورها ومعرفتها بضعف مواقف المعارضة في التفاوض وتحجيم نصيبها من ورقة المساومة عسكريا . وقد أكدت الأيام قدرة حركة طالبان على تقدير قوتها وتعزيز انتصاراتها ومواقعها . ووجدت نفسها بعد شهور من الانسحاب من حوار إسلام آباد تدخل مزار الشريف ' أحد معاقل المعارضة بعد أن نكلت بخصومها فتكا وقتلا حسب تقارير منظمة العفو الدولية ' و صاحبها اختفاء الدبلوماسيين الإيرانيين ' واختلال التوازن العسكري بين الطرفين لصالح طالبان .

من هنا ندرك احتياجات المعارضة الأفغانية للدعم العسكري الإيراني في إعادة خلق توازن جديد بينها وبين حركة طالبان ' وهذا ما ستفعله القوات الإيرانية عن طريق القصف العسكري وسحب طالبان قواتها إلى الحدود مما يعني إضعافها في بعض المناطق . فالشريط الحدودي الطويل لإيران وأفغانستان يشكل ثغرة عسكرية قابلة للاختراق نحو كابل وما حولها . وبإمكان المعارضة أن تنفذ إليها لو تعززت بمساندة إيرانية . وفي حالة تشتت قوات طالبان عسكريا فإنها ستخسر رقعا جغرافية بما فيها مواقع في الشمال . وفي حالة تمركزها عسكريا فإنها سوف تسيطر على المواقع الهامة غير إنها لن تستطيع التمدد إلى الشمال . وما ترغب فيه المعارضة الأفغانية ألان هو إعادتها إلى مواقعها التي خسرتها وتقوية مكانها العسكري من اجل العودة للتفاوض السياسي في المستقبل بشكل افضل ' ويتيح لها نصيب افضل عند تقاسم المناطق في ظل حكومة ائتلافية وهو المشروع السابق ' والذي يلبي مطالب الأطراف المتنازعة وينسجم مع تركيبة أفغانستان الأثنية والطائفية .

السؤال الغامض ورد الفعل .

يبقى أمامنا خلال الأسبوع القادم أمرا محتملا وهو ماذا لو جاء الوسطاء إلى إيران بإجابة أن الديبلوماسيين تم قتلهم ؟ . كيف ستتصرف إيران في الحالتين ؟ في حالة إعادة الدبلوماسيين أحياء بعد إعطاء بعض التفسيرات و في حالة قتلهم . فإذا كانت هناك نية دعم المعارضة بعد خسارتها أمرا واردا فإن الضربات الإيرانية الجوية محتملة حتى بعد انتهاء أزمة " الديبلوماسيين . أما إذا أخبرت إيران بقتلهم فإن لديها بعد ذلك ورقة شرعية للتدخل العسكري وخصوصا أن الأمن القومي لإيران تعرض للإهانة والخرق مثلما رددت الولايات المتحدة تبرير ضربها لأفغانستان والسودان .ويصبح لدى إيران ورقة مشروعة في المجتمع الدولي ' في ظل غياب احترام المبادئ (علاقات حسن الجوار وعدم التدخل في الشؤون الداخلية !!)' الذي سيجد نفسه في أروقة الأمم المتحدة متورطا ومنقسما في الرأي . لقد سربت الأجهزة الإعلامية عن أن خطف الدبلوماسيين الإيرانيين عملا ارتكبه المتطرفون الإسلاميون الباكستانيون بعد دخولهم مزار الشريف . وتهدف هذه الأخبار إلى محاولة إيهام الأطراف الدولية وغيرها أبعاد المسؤولية القانونية عن حركة طالبان ' وتورطها في ذلك الحدث البشع بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق انخراط أشخاص معها من الخارج .

ويظل في نهاية المطاف مصير الديبلوماسيين الإيرانيين غامضا ليس من حيث طبيعته وحسب 'بل ومن حيث الدوافع الحقيقية لممارسته تجاه جماعة من المفترض أن لديها حصانة دولية !! . هذا إن لم يكن قتلهم – فيما لو حدث القتل– مقصودا بهدف جر إيران للفخ الأفغاني ' وإدخالها في حرب لانهاية لها . إذا كانت الحرب العراقية –الإيرانية ١٩٨٠–١٩٨٨ حربا دامية ومكلفة لم تخرج الدولتين من آثارها حتى ألان ' فإن الحرب الإيرانية – الأفغانية ١٩٩٨ ستكون وبالا على المنطقة برمتها ' ووبالا على كل مشاريع خاتمي في التنمية الداخلية وتعزيز

التعددية والحرية والديمقراطية في إيران ' التي يتوق جيلها الجديد لحياة هادئة ومزدهرة . فالشباب الذي صوت لخاتمي في انتخابات الرئاسة لم يكن ضد تيار التشدد في إيران وحسب ' بل وجيل يحاول التخلص من ذاكرة الحرب البشعة والمريرة . فهل سيجد شبيبة مرحلة خاتمي ' وقد اصبحوا أنفسهم وقودا جديدا لها ' وقودا من اجل الكرامة القومية ' من اجل إيران التي انتهكت هيبتها ؟! يمثل هذا الخطاب الانفعالي سيتحرك الشارع الإيراني هذه الأيام . لقد تحركت في التاريخ النزاعات من اجل المصالح والأنانية الضيقة ' وبسبب روح التفوق والشوفينية تم تورط دول وشعوب في كوارث الحرب فلم تكن ثمارها إلا الآلام . وكانت الحكمة والعقل والإنسانية آخر ما لجأ إليه من يتحكمون في القرارات التاريخية غير إنها كانت قرارات متأخرة ' أي بعد حريق روما وخراب البصرة .

الأوركسترا الأوروبية تعزف عند مضيق هرمز.

كلما انقاد الاتحاد الأوربي خلف العربة الأمريكية دون التمعن لمصالحه ودراستها من كل جانب ' بل ودراسة كل حالة على حدة فإنه سيجد العالم منقسما في محاور جديدة وتكتلات تتشكل ' ومع مرور الوقت يصبح فيها الاتحاد أكثر خسارة عربيا من معايير عدة أهمها المصالح الطويلة والعميقة الجذور . فإذا كان العالم وقف وقفة واحدة خلف الولايات المتحدة أثناء غزو الكويت واحتلالها كقضية عادلة . والتي أظهرت للعالم إنها تقوده في مرحلة الانهيار الكبير تحت شعارات عالمية براقة مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان 'فإنها في قضية محكمة ميكنوس غير قادرة على العزف بنفس الآلات ولا بنفس قائد الأوركسترا ولا العازفين أنفسهم . إذ يبدو في الأفق من جديد محور إيران الصين وروسيا الذي شهد مؤخرا اتفاقيات هامة وصفقات كبيرة على مستويات عدة ' وتمت لقاءات سياسية عديدة تضع لبنات أسس جديدة بين العدوين اللدودين بالرغم من الأساس الأيديولوجي والإرث القديم المشترك . فقد أكدت الصين وروسيا إنهما لا يقبلان بعالم يحكمه قطب واحد وإنما عالم متعدد الأقطاب . لذا يصبح هذا المحور

الجديد قادرا على أن يجر وراء عربته بلدان عدة من أبرزها الهند وسوريا ومصر وبلدان آسيا الوسطى . بل وقادر على جر دول كثيرة وتحييد غيرها بما فيها بلدان تنتمي للجامعة العربية والأفريقية والإسلامية ' مما يعني قابلية نمو تكتل متجانس ومتنافر في آن واحد توحده المصالح المشتركة تجاه الحيتان الاقتصادية الكبرى' والتي تسعى للتفرد بالأسواق العالمية . لذا يدخل الاتحاد الأوربي أول امتحان سياسي صعب في مواجهة دولة إقليمية مثل إيران لديها خيارات عدة وقدرات تفوق القدرات العراقية والليبية والكوبية مما يعني إنها لن تستسلم للحصارات المعدة ، بل وأنها قادرة على اختراق تلك الحصارات جغرافيا وسياسيا وماليا في عقر البيت الأوربي نتيجة تشابك المصالح والاستثمارات والتوظيفات المالية . هل تنجح معزوفة عزل إيران وضربها دون الدخول في حملة عسكرية تأديبية ساخنة وخاطفة ؟ حتى وإن شاهدنا استعراضات القوة مؤخرا والتي تراوحت في التقييم بين التقليل منها حسب تصريحات الخبراء العسكريين البريطانيين أو العكس ' فهناك نوع من التضخيم بخطورتها كما فعلت إسرائيل في هجومها وإعلامها . كل هؤلاء يلعبون بأوراق فوق طاولة المغامرة وإعداد فواتير ستكون المنطقة الدافع الأول والأخير لتكلفتها الباهظة ' فقد تحركت على الفور الولايات المتحدة أثناء وبعد صدور قرار المحكمة بإدانة إيران في تورطها بقضية مقهى ومطعم ميكونوس في مدينة برلين . وإن كانت الولايات المتحدة لا تنتظر نتائج المحكمة السياسية لإيران من قبل القضاء الألماني إذ واصل بعدها مبعوث أمريكي رفيع المستوى مساعيه في أربع دول أوروبية لإقناع الاتحاد الأوروبي بفرض عقوبات اقتصادية على إيران ' مستفيدة الولايات المتحدة من حالة التوتر بين الاتحاد الأوروبي وإيران أثناء استدعاء وسحب السفراء . وباتت في تلك اللحظة المفتعلة أن الأمور ربما تتصاعد إلى حد الأزمة وخصوصا أن الولايات المتحدة ذهبت بعيدا عن رغبتها بأن تعزل إيران من الساحة الدولية وربما يدفع ذلك الضغط إلى العودة من جديد من نوافذ مصممة

خلف الكواليس في السيطرة على النفط الإيراني والسوق الإيرانية المهمة بدلا من تركها للأوروبيين أو محاولة تقليص التأثيرات الإيرانية المتزايدة في أسواق المستقبل والواقعة في آسيا الوسطى ، غير أن التصعيد الدبلوماسي تجمد عند نقطة ما' فحتى البلد الذي أدانت محكمته إيران بالتورط لم يتحمس إلى التصعيد أكثر من سقف السياسة والإدانة السياسية تاركا الاقتصاد والأوراق المالية والمصالح الحيوية لرجال الأعمال الألمان تسبح في ملكوتها . وهذا ما يفهمه الإيرانيون جيدا وبأن الخطوات اللاحقة لن تكون أكثر من زوبعة سياسية وإعلامية يراد بها " تحجيم" إيران من دورها الإقليمي . وهذا ما جعل صوت الحكومة الإيرانية اكثر قوة ومرونة في ذات الوقت' حين صرح ولايتي دون تردد " سنرد بالمثل على أي إجراء أوروبي " والأكثر من ذلك كان الصوت الإيراني مرتفع النبرة بقوله " إن إيران لن ترضخ لسياسة " إملاء القرارات " منتقدا ولايتي الأوروبيين ومؤكدا لهم بأن الذهاب إلى أبعد من ذلك معناه انتحارا سياسيا ' وعليهم أن يفكروا مليا بجانب الشراكة مع إيران كقوة إقليمية تملك من المخزون والطاقة والقدرات السياسية والاقتصادية والجيوسياسية ' لذا لم يستمر العزف الأوروبي حسبما حاولت الولايات المتحدة وضع نوتته الموسيقية ' فقد جاء الشرخ من داخل البيت الأوروبي فلم تستجب اليونان أو إيطاليا للموقف الفرنسي والألماني . كما تلكأت دول أخرى من ضمنها تركيا اللحاق بذلك القرار أو تنفيذه . كما لا يمكن أن تتفق بريطانيا مع الحلفاء الأوروبيين وهي التي عانت لسنوات من القطيعة مع إيران بسبب الموقف من قضية سلمان رشدي ' وعملت جهدا كبيرا للعودة لأسواقها . وإذا ما نظرنا لكل الدول الأوروبية المتنافرة في داخلها حيال المصالح فإنها في قرارة نفسها بشكل منفرد لا ترغب في خسارة مصالحها الحيوية لمجرد قضية بالإمكان النظر فيها بشكل إجرائي مختلف . وهذا ما تم اتخاذه على الصعيد الأمني والدبلوماسي . بحيث تسعى دول الاتحاد إلى تقليم أظافر الإيرانيين في بلدان الاتحاد الأوروبي ' ومنعها مستقبلا من التورط في

قضايا دعم الإرهاب أو الحركات الأصولية .وإذا أرادت الولايات المتحدة أن تقود عزف الأوركسترا الأوروبية فإنها من الضروري أن تقنعها بأنها لا ترغب الانفراد والتفرد في النظام العالمي الجديد بالسوق الإيرانية ومحيطها العربي والإسلامي ' فتنافر المصالح بين القطبين جاثما أمام الأوروبيين بعد حرب الخليج الثانية فقد تمت الاقتسامات حسب نسبة القوى' فخرج الضعفاء من البوابة الخلفية بنصيب صغير من الكعكة . يبقى سؤال مهم نحاول استنطاقه من داخل بنيته اللغوية والسياسية . إذا كانت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في قرارة ذاتيهما لا يستطيعان الاستمرارية في عزل ومحاصرة إيران ولا ينويان توجيه ضربة عسكرية لها . فلماذا تم تنظيم حملة دبلوماسية وإعلامية ومنسقة حيال إيران بدأت من محكمة ميكونوس وتواصلت مع استدعاء السفراء واستمرت مع تحريك القطع العسكرية والمناورات ووضع السيناريوهات على طاولة الرئيس كلينتون ؟ هل المقصود تبليغ الإيرانيين رسالة مفادها بأن ظاهرة التسلح المستمرة وبناء ترساناتها العسكرية أمر غير مقبول ' كما أن المواقف المتشددة حيال اسرائيل ومن ثم عملية السلام ودعم الحركات الإسلامية في جنوب لبنان أو غيرها من أحزاب يستوجب الإيقاف بأي شكل من الأشكال وخصوصا إذا ما وجدت القوى الكبرى نفسها إنها لا تستطيع امتطاء الحصان الإيراني الحرون أو لجم سرعته ' فإنها ستحاول بكل قواها تقليص عضلاته عن الحركة المستمرة أو على الأقل ترويضها ' مثلما تم تقليص حركة الحصان العراقي دون قتله . وبذلك يتم في الأروقة العالمية تداول سيناريوهات عدة وأفكار متناثرة تتمحور جميعها حول سؤال مهم لم يجدوا حتى الآن إجابة نهائية له . كيف ينبغي التعامل مع النظام الإيراني وهو يقف على مقربة من أهم نقطة استراتيجية في العالم حيث تمر بواخر النفط من مضيقه الضيق ؟

منطقة الخليج
وقوس الوتر المشدود.

تشـهـد منطقـتنا حـركـة دؤوبه بين دمـشق والقـاهرة والإمـارات والقاهرة ، غير إنها تمتد أيضا ما بين طهران والقاهرة ، بحيث تشكل اليوم القاهرة مركز الثقل والاهتمام الإقليمي الحيوي والذي يقلق إسرائيل 'لأنها تدرك أهمية الدور المصري في احتواء مشاكل المنطقة وحصرها في الإطار المناسب بعد تقصيها بالعمق ' فالمنطقة تمر بمرحلة خطرة ودقيقة تذكرنا بما بعد اخطر مرحلتين هما ما بعد الثورة الإيرانية واشتعال الحرب بين إيران والعراق ومرحلة غزو الكويت وأزمة الخليج الثانية . جميع التحركات الدبلوماسية بين العواصم المذكورة تدلل على القطب الثلاثي ما بين دمشق والظهران والقاهرة . فالمسألة تدخل أوج توترها وان بدت الأعصاب الدبلوماسية مرتخية فالمناورات العسكرية على ضفاف الخليج تعبر عن حالة شد قائم في القوس وان كانت الأوتار مرتخية حتى الآن – ولعلها – تبقى إلى الأبد مرتخية . بحيث لاتصل النزاعات لدرجة لا تحمد عقباها لكل الأطراف . فالحوار السياسي هو الطريق الأفضل لحل النزاعات في المنطقة .

خيوط الأزمة بين الظل والعلانية.

لم تنفجر أزمة محاكمة ميكنوس من فراغ فالتوقيت كان مقصودا والآلة الإعلامية أعدت نفسها للحرب ضد إيران ' بحيث وقفت وراءها بون وواشنطن وتل أبيب . فقد حشدت الوكالات وحدها الأخبار المكثفة بعد تسريبها أثناء وبعد المحاكمة في الفترة التي يتم فيها أيضا التحقيق في قضية انفجار الخبر ، بل أصبحت الأنباء وتسريبها وتوقيتها ليس بريئا أو معدوما من حالة تناغم قائمة بين أطراف عدة دولية ' ففي تاريخ ٩٧/٤/١٧ نشرت الصحف خبر يقول بأن" إسرائيل تكشف عن اعتقال رجل أعمال تتهمه واشنطن ببيع أسلحة كيماوية لإيران " وفي نفس التاريخ نقلت الصحف عن واشنطن بوست خبرا يقول " بأن طهران تفاوض لشراء أنظمة صواريخ روسية " كما نقلت عن مصادر في بون خبرا آخر مفاده أن " شركات ألمانية زودت إيران سرا بمعدات متطورة لإنتاج الأسلحة . جاء ذلك مرافقا مع اكبر مناورة عسكرية إيرانية منذ ثورة ١٩٧٩ وعلى جبهتين حشدت فيهما إيران كل طاقاتها العسكرية .وبعد أربعة أيام تقريبا وبالتحديد في ٩٧/٤/٢١ صرح في واشنطن وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي "إن بلاده لا تملك أدلة كافية على اتهام إيران بالتورط في الهجوم على المجمع العسكري الأمريكي بمدينة الخبر" غير انه في مقابلة تليفزيونية أكد بأن في حالة التأكد من ذلك الحادث فإن لدى واشنطن "مجموعة من الخيارات والبدائل " وهي التي كما نعرف عنها لاحقا من خلال التقارير والسيناريوهات العسكرية لضرب إيران والتي تجاوز عددها العشرة ووقع اثنان منها على مكتب الرئيس كلينتون لاختيار أحدهما . هذا الحشد الإعلامي الموازي للتحركات العسكرية موجهة إلى إيران كقوة إقليمية جديدة باتت مصدرا من مصادر التوتر في المنطقة 'وهي مصدر من مصادر النزاعات الممكنة والكامنة طالما هناك توجها لبناء ترسانات عسكرية وتصدير للإرهاب وعرقلة لمسألة السلام في المنطقة . غير إننا

نسأل من الذي له مصلحة في توتير منطقة الخليج وتركها برميلا خامدا قابلا للانفجار في أية لحظة ؟ هل النزاعات في المنطقة تخدم أي طرف من الأطراف أم إنها تدمير للتنمية وإهدار للثروات وخصوصا أن المنطقة يجب أن تتعلم دروسا تاريخية من كارثتين الأولى كارثة الحرب العراقية الإيرانية والكارثة الثانية غزو الكويت , فالدروس لها معان عدة . وخصوصا إذا ما عرفنا حيوية وأهمية المنطقة للعالم ، والأكثر من ذلك إذا ما عرفنا أن الخاسر الأكبر هي المنطقة ' والتي سيكون نزيفها غاليا تدخلنا في حالة تخلف إلى النصف الأول من القرن القادم بسبب الإهدار . لذا تتطلب المسألة الحكمة السياسية بدلا من تضخيم الذات واستعراض القوة تحت حجج أن الجميع يتحدث عن حق الدفاع و التمترس في خندق التسلح النووي . وإذا كان من حق أي طرف القيام بمناورات تحفظ له حقه في الدفاع عن أراضيه فإننا أيضا نتمنى أن تكون حقا المناورات الإيرانية " تحمل رسالة سلام وصداقة إلى دول الخليج " حسبما جاء على لسان مرشد الثورة علي خامنئي .

اسرائيل الثعبان النووي المتوحد.

ليس دفاعا عن إيران ولا عن أية جهة تبحث عن غنيمة عاجلة ولكن من الضرورة العودة لغزو الكويت كدرس تاريخي خلق هلعا حقيقيا لدى إسرائيل من صواريخ سكود ووجود أسلحة جرثومية وكيماوية لدى العراق . ومن يتتبع الأخبار الصادرة من تل أبيب يدرك شعورها بالرعب المفتعل من اجل أن تبقى متفردة بالتفوق النووي فالإسرائيليون اكثر من غيرهم أعلنوا قلقهم من الصاروخ –ارض –ارض الإيراني والذي يبلغ مداه ١٥٠٠ كيلومتر وبمساعدة تقنيين روس . هذه التجارب العسكرية تمتد خيوط رعبها أيضا لكل المنطقة وبدرجات متفاوتة . وعلى ضوء المناورات الإيرانية الاستثنائية في التاريخ العسكري الإيراني لما بعد الثورة أعلن جنرال عسكري إسرائيلي هو متان فيلناني في صحيفة " معاريف " بقوله

" انه تهديد يتطور في الشرق ويتعين علينا الاستعداد لمواجهته " بل وستعمل إسرائيل على عرقلة المشاريع الإيرانية المعادية . بل وهدد بأن لدى إسرائيل الوسائل الرادعة فيما لو فكرت إيران شن عدوانا عليها . والأكثر من ذلك ذهب إلي تأكيد أن على إسرائيل أن تقوم بما يجعل إيران تفكر مرتين قبل أن تقوم بأي عمل ضدها . كل تلك المخاوف والتوترات لها شيء من المصداقية لو فعلا وافقت إسرائيل على القبول بالاقتراح المصري بإخلاء المنطقة من الأسلحة الفتاكة والجلوس على طاولة المفاوضات والتفكير بروح جادة حول عملية السلام المتعثرة . فإذا كان على إيران أن تفكر مرتين في حمى التسلح دون داع فإن على إسرائيل أن تفكر لمرات ثلاث في الأمر ذاته وتتخلص من سيكولوجية الخوف من الجيران والاختباء خلف استراتيجية التفوق العسكري وامتلاك الأسلحة النووية بحجة الدفاع . كل تلك الأوهام العسكرية تصبح منتفية متى ما قررت الإرادة السياسية إقليميا وعالميا إخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل وعقد اتفاقيات سلام أبدية . واحترام الاتفاقيات والعقود الدولية وحل الخلافات بالطرق السلمية . إن نزيف التسلح من اخطر العناصر التي تستهلك الثروة في اتجاهات خاسرة تدفع التنمية المستقبلية ثمنها الباهظ . والسباق المحموم ليس إلا خسارة جماعية لشعوب وأنظمة المنطقة .

دبلوماسية عربية من اجل احتواء التوتر.

شهدت القاهرة منذ أيام لقاءا كبيرا ومهما يكون فريدا في أهميته السياسية والتاريخية فبعد حالة من العلاقات الفاترة والمتوترة بين طهران والقاهرة استمرت ولأكثر من عقد ونصف . وقد قدمت مصر قائمة من المواضيع لولاياتي لتحسين العلاقات تأتي في أهميتها ومقدمتها ضرورة الاعتراف من قبل طهران بمطالب الإمارات لحل مشكلة الجزر الثلاث المحتلة' وإنهاء التدخل الإيراني في الشؤون الداخلية لمصر

وعدم مساعدة الجماعات الإرهابية في مصر أو خارجها ' وقضايا أخري تتعلق بالحملات الإعلامية والأمن . فهل تنجح مصر في احتواء قضايا كانت حتى وقت قريب ساخنة ومتوترة تكون فيها سوريا الوسيط الذي هيأ لمصر والعرب الأرضية الملائمة للتعاون المستقبلي في المنطقة مثلما تقوم مصر الآن بمحاولة ترتيب الوضع العراقي وخلق جبهة متماسكة من الداخل بهدف منع أية اختراقات تركية أو إيرانية وعودة العراق للصف العربي ' مما يقطع على إسرائيل تعنتها واستمرارها في عرقلة مسيرة السلام كلما وجدت الجبهة العربية مفككة وضعيفة . وإذا ما تداخلت الجبهة العربية والإسلامية في شكل اكثر انسجاما فإن " طريق القدس"- حسب اسم المناورة الإيرانية- يصبح اكثر قويا . وهذا ما يجب أن تفهمه طهران وهي تعد إلى المؤتمر الإسلامي القادم في عاصمتها ' فتماسك العرب والمسلمين في ورقة التفاوض حول عملية السلام والقدس تصبح في حينها قوية حتى دون الحاجة إلى التلويح بورقة الاستعراض العسكري . فالقوى الداخلة في لعبة شد الوتر الآن متعددة ' غير إنها ستكون غير قادرة على الاستمرار في لعبة نيرانها حارقة اكثر من مجرد وتر قوس مشدود لم يتم إطلاقه' فما بالنا إذا كانت نبال هذا العصر صواريخ نووية .

شجاعة كلينتون
وشجاعة خاتمي

من المعروف أن الشجاعة ليست مطلقة ' ولا عملا بطوليا مطلقا فدرجاته متفاوتة مكانا وزمانا ' فهو مثل درجات الخوف ' الذي يتميز بخاصية التعددية في ألوانه ودرجاته . ولا يوجد إنسان مهما كانت قامة شجاعته لا يخاف من حالة معينة في حياته . ويجرنا الحديث في هذه المقالة لرئيس الولايات المتحدة بيل كلينتون ورئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية محمد خاتمي . لقد كان من المفترض على الرئيس كلينتون أن يتنحى منذ البداية من مقعد الرئاسة مقابل أن يظل ملفه الشخصي " المباح" في الطرقات العالمية برمتها ' باكشاكها وحاسبوها الآلي مغلقا وسريا ' فلا يوجد مكان للناس من كوكبنا إلا وسمع عن الفضيحة الجنسية للرئيس ' ومع ذلك لم تكن لديه الشجاعة للتخلي عن مقعده ' فللسلطة وكرسيها نكهته الخاصة فهو رجل " عظيم " كونه يقود دولة عظيمة 'هكذا يختبأ الداخل من سيكولوجية الرئيس الذي سقط ضحية عصر الفضائيات والانترنيت والشفافية ' ويالها من شفافية !! . وبين شجاعة الاستقالة قبل فتح ملفها وشجاعة القبول بالخروج لطلب المغفرة أمام الرأي العام كحالة ونوع من الشجاعة " الأدبية " في " نقد

الذات " شجاعة اقل درجة أو ربما اكبر حسب زاوية الرؤية مثلما يفعل المذنب في مقصورة الاعتراف طلبا للمغفرة فهي شجاعة ضيقة النطاق ومغلقة . والاعتراف بالخطيئة في المقصورة بين القسيس والمذنب يظل مرهونا بين القسيس – الوسيط –والمذنب والخالق حسب القيم المسيحية ومن هنا تصبح الشجاعة تتاج لتأنيب الضمير والبحث عن المغفرة وليس للحفاظ على السلطة .

وبالرغم من إحساس الرئيس ومعرفته بأنه حتى لو استقال مقابل ترك ملفه الشخصي مقفلا فإنه لا يثق بتاتا بأن ذلك لن يحدث لاحقا في بلد يسمح بتدفق المعلومات وحرية نشرها . ويصبح موقعه اضعف وهو خارج السلطة مما هو عليه ألان ' ومع ذلك نشاهد كل يوم ورقة تخرج من تحت الوسائد القطنية وأدراج الأسرار . وبات على الرئيس بعد الاعتراف أن يستنجد بفضيلة الشجاعة مجددا ليقدم استقالته قبل الانتخابات القادمة ' فمواجهة الجمهور وأحجار الإعلام الجارحة يظل مؤلما –حتى وإن مارس الرئيس ضحكات خداع الذات – أو فاز في الانتخابات القادمة بعد الفضيحة فذلك لا يلغي الحقيقة المرة لسلوك رئيس دولة عظمى 'ردد طويلا أمام الشعب الأمريكي نصائح حول ضرورة الاهتمام بالعائلة وقدسيتها مع أن أعمدة قوته الانتخابية كان جزءا منها الشاذين جنسيا . لقد نسى الرئيس شجاعته في مقاومة إغراء اللذة الجهنمية والتي تقذف بصاحبها نحو الجحيم ' في بلد الفضيلة فيه هو فضيلة " حرب المصالح " . لقد وصف مكيافللي الرجل السياسي بقوله : : هو ذلك الرجل ' كثير الخداع عظيم الدهاء ' يظهر غير ما يبطن ' ويبطن غير ما يظهر ' شديد المعرفة بانتهاز الفرص ' يشارك العناية بحسن تصرفه ' ويغير الحظ بجرأته ' يتمسك بالحيلة ويجل القوة ' فطورا يشابه الليث وطورا يشابه الثعلب " .

هكذا ترك لنا التاريخ مواصفات الساسة في قمم السلطة يصفهم مكيافيللي قبل خمسة قرون غير أن الملامح العامة لم تفقد خاصيتها . ولا نعجب أن نجد في كتابه " الأمير " الذي صار مكان قدسية و إعجاب

لدى هتلر وموسوليني وديكارت وكثيرين غيرهم . إلا أن ما اعجب هتلر - وربما كلينتون - إقامة مصلحة سرية من الاختصاصيين في أمور الجاسوسية وهو يرى أن يستخدم لأغراضه السياسية كبريات النساء!" . ويبدو أن النساء هن من أوقعن الرئيس بدلا من أن يوظفهن لأغراضه السياسية . وفي كل الأحوال لابد وان نقر أن مواجهة كل هذا الخضم من " الشرشحة " والإهانات بحاجة إلى شجاعة خاصة تفوق القدرات الكلاسيكية للشجاعة في زمن ما عادت سيوف الفروسية تقرقع ' وما عادت شعارات شعر البطولة من مثل " لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى -حتى يراق على جوانبه الدم " تنفع فنحن في مواجهة الثورة المعلوماتية التي تتدفق بشكل عاصف يفوق " إعصار جورج " وفيضانات بنغلادش ' والتي من حيث جوانبها التراجيدية ليست مثل "الفيضانات الجنسية " في البيت الأبيض . كما لم يستطع منع وقوعها وفداحتها إعصار من نوع " إعصار مونيكا" الكاسح .

خاتمي ومزيد من الشجاعة

أما الشجاعة المميزة لرجل آخر وبقيم أخرى ' وينتمي لعالمنا الشرقي بقيمه فإنه الرئيس خاتمي الذي جاء في فترة حرجة ' فهو يصارع ركام من الموروث في داخل النظام يقارب العقدين ' إذ ليس بالسهولة تحويل إيران إلى نموذج دولة إسلامية عصرية تتخطى الأصولية والتشدد في فترة قصيرة ' وتوازن بمرونة بين الثوابت والأسس الإسلامية واحتياجات إيران للخروج من العزلة بتوجهات دولية جديدة وتقديم نموذج مختلف . أمام هذا المنظور الجديد لخاتمي وحكومته وتوجهاته فإنه لابد وان يتصارع ويخوض معركة ' مع الوضع الداخلي بكل تياراته المتصارعة ويكاشفها بشجاعة من اجل احترام الإنسان والعدالة والدستور والحريات . فإذا كانت تلك تبدو مفردات شكلية لدى بعض الساسة فإنها لدى خاتمي المثقف والمرهف مسألة مفصلية في سياسته ' إلا أن

تطبيقها بحاجة إلى اكثر من " شجاعات " مستمرة وليس شجاعة لمرة واحدة . فقد بدأ المسيرة بالدعوة إلى ضرورة زج المرأة وتوسيع دورها ومكانتها بدلا من سجنها داخل التابو كما ترددها الآراء السائدة لدى التيار المتشدد' الذي كان يلجم حركتها ويقننها ويطارد حقوقها مما سبب مثل تلك الإجراءات مصادمات مستمرة بين التيارات المتنازعة . وواصل خاتمي الهجوم على أجهزة الحرس الثوري والأمن وانتقد أساليب قمعها وردعها للحريات ' ومحاولتها تكميم الأفواه تحت ذرائع دينية متزمتة وذرائع سياسية تستظل بمظلة " مبادئ الثورة الإسلامية " ومرجعيتها منذ انطلاق الثورة في مرحلة الخميني . وقد تجلى ذلك بالهجوم على حريات التعبير والصحافة والتلفاز إلى درجة إنها طالت شخصيات هامة بالضرب والاعتداء . كما فتح خاتمي فضاء نافذة جديدة للنقد الحقيقي لمعالجة القضايا الداخلية والخارجية بشفافية اكبر في ظل مساحة دستورية تتعمق كل يوم' وتخلق أرضية وفضاء جديدين . وتقود خاتمي شجاعته للحديث عن ضرورة منح الحريات للاقليات الدينية غير الإسلامية واحترام حقوقها . غير أن الشجاعة الكبرى هو أن يفتح بوابة للحوار – منذ فترة الانتخابات ونجاحه– في إعادة النظر حول صلاحية " مجلس تشخيص مصلحة النظام " الذي يضع نفسه فوق الدولة ويعرقل من صلاحياتها الدستورية مما يخلق سلطات متعددة ومتنافرة ومراكز صراع تخل بالأداء التنفيذي والتشريعي لمؤسسات الدولة والمجتمع المدني .

وعلى صعيد الجبهة الدينية يتيح خاتمي لحرية الرأي أن تناقش دون خوف صلاحية وجدوى " ولاية الفقيه " ليس كسلطة دينية وإنما كسلطة مرجعية عليا لها الفصل والقرار النهائي في السياسات العليا للدولة . مثل ذلك النقد كان ولابد أن يقود في نهاية المطاف إلى شجاعة اكبر في تقليب أوراق الماضي بما فيها فتوى قتل الكاتب البريطاني سليمان رشدي ' معلنا خرازي بحضور وزير خارجية بريطانيا' أن الجمهورية الإسلامية ترفع يدها عن ملاحقة الكاتب أو تهديده أو

التحريض على قتله والتشجيع بملاحقته بما في ذلك المكافأة المخصصة لقتله . وبدبلوماسية ذكية تشل حكومة خاتمي " الفتوى " دون أن تلغيها احتراما للفتوى كنص ديني واحتراما لشخصية من شرعه وهو قائد الثورة الأمام الخميني . ويشكل هذا القرار سياسة قريبة من شعار ومقولة " يجمد حتى إشعار آخر " فتوازن الموقف بين حالتين ' حالة قطع الطريق على المتشددين في داخل إيران وخارجها في الهجوم على حكومة خاتمي بالتخلي عن خط الخميني والجمهورية الإسلامية ' والحالة الأخرى تتوافق مع تحركات حكومة خاتمي تجاه علاقاتها الدولية حيال الإرهاب والتشدد مع الأنظمة الأخرى . دون شك أن ذلك بقدر ما يستجيب للانفتاحات الداخلية ووجود مزاج سياسي واجتماعي جديد فيها ' فإنه في الوقت ذاته ' يظل موضوعا مرفوضا لقطاع واسع مازال مرتبطا بظلال الماضي ورومانسية الثورة الإسلامية ' غير أن الهام والمهم هو أن خامنئي لم يعلق على تلك الخطوة السياسية لحكومة خاتمي وكأنما هناك نوع من التوافق الصامت أو المنسق بين خاتمي وخامنئي على تلك الإجراءات .

أن هموم إيران الداخلية والإقليمية والدولية اليوم اكبر بكثير من هموم رواية سليمان رشدي ! وهي بحاجة للمجتمع الدولي في مرحلة حوار الحضارات الذي تبناه خاتمي من وراء الكواليس كمشروع لسياسته وقناعته قبل أن يصل إلى السلطة . وما زال يدفع به عبر مفاتيح سياسية وأكاديمية ورجال أعمال إيرانيون معنيون بخلق ذلك الجسر المقطوع بين إيران والغرب بما فيها العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية . لابد وان نشير أن الأسبوع الفائت شاهد العالم قراران تاريخيان مفاجآن نبع من بلدان منطقة الخليج ' ويعكسان في داخلهما توجهات جديدة متداخلة ومتشابكة أهمها مكافحة الإرهاب والدعوة لتحسين العلاقات بين دول مجلس التعاون وإيران وضرورة النظر بجدية في أمن المنطقة . القرار الأول كان قرار قطع السعودية علاقاتها مع حركة طالبان والثاني موضوع سلمان رشدي ' وتبريد الفتوى وتجميدها .

مثل تلك الشجاعة من قبل خاتمي رحب بها مثقفون وفنانون إيرانيون يعيشون في المنفى . ووصفت مبادرة الرئيس الإيراني بالمبادرة الشجاعة . هكذا صرح المعارض الإيراني فارساي مؤكدا أن تلك المبادرة تعني في مضمونها أن خاتمي " انتقل إلى الهجوم في موقف داخلي معقد " . وتلك الحقيقة - حقيقة المبادرة - ربما يتم تأجيلها بسبب الحساسية والظرف الإيراني الجديد حيال التوتر الحدودي والداخلي مع أفغانستان ' وستطل برأسها بعد الانتهاء من الأزمة . ولكي تكتمل شجاعة خاتمي وحلقاتها المستمرة فإنه بحاجة إلى الإسراع في الدعوة إلى اجتماع إقليمي بينه وبين دول الجوار العربي للخروج بصيغة تعاون وصداقة ' بحيث توضع اتفاقية أمن وسلام في المنطقة تكون في مقدمتها إعادة الجزر الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة ' فمثل تلك الشجاعة ' بعد خلق الاتفاقية وتثبيتها ستنفي حجج الخوف من تحول الجزر إلى قواعد أمامية لضرب الثورة الإسلامية ' بل وتسحب سلاح سيكولوجي وإعلامي لدى المستفيدين من بؤرة التوتر كسماسرة السلاح ومصانعه . وإذا ما عبر الطرفان عن بناء الثقة الحقيقي وتخفيف نزعة سباق التسلح ' فأن القوات الأجنبية لن تجد - بعدها - ما يبرر وجودها . فلا أحد يرغب أن يعيش تحت سياسة وهم الخوف والتخويف واحتمالات الحرب ولعبتها . ولن تنفع عبارات من مثل " حسن النوايا تجاه دول الجوار" والمتشحة بديباج الخطب الأنيقة والمؤثرة وإنما حسن النوايا والثقة المتبادلة يتم تطبيقها عمليا على ارض الواقع ' ولا يوجد واقع افضل من واقع اليابسة في الجزر الثلاث بعد أن تشهد مياه الخليج بحر أمن وسماء اكثر أمنا . لقد كانت الحروب للشعوب دوما بمثابة الكارثة على كل المستويات وحان الوقت للالتفات للتنمية القادمة في المنطقة . فهل تنتظر منطقتنا مفاجأة شجاعة من نوع مبادرة سلمان رشدي ؟

عميقا في الثقافة ..
بعيدا عن السياسة

كانت فكرة كتابة هذه المقالة تراودني منذ زمن بعيد فهي مرتبطة بفكرة الحساسية الثقافية المفرطة بين الشعوب المتجاورة إلى حد الإهمال والنسيان أو العداء أو المجافاة بحيث تتمزق العلاقات الإنسانية بين حد السكين وضربات السندان الموجعة . ولغرابة هذه الظاهرة الثقافية كان يقتضي التوقف عندها بعمق وتأملها ومناقشتها بهدوء ' ليس بهدف إزالة حواجز تاريخية وسياسية وحسب وإنما خلق وبناء جسور متينة مستقبلية ' بحيث تتجاور وتتعاون الثقافة مثلما تتجاور الجغرافيا ' والتي أحيانا برغم مسافتها القصيرة بين الدول تصبح في النزاعات التاريخية ' حجم مسافتها بعيدة بعد الأرض عن المريخ !! . لقد كنت دائم التفكير في منطقة الخليج العربي وبالذات دول مجلس التعاون والعراق إننا الأكثر قربا للثقافة الفارسية والأكثر هضما وفهما للغة الفارسية – من المفترض– مما يعني أن تتجاور ترجمات كثيفة ومتواصلة بين الثقافتين العربية والفارسية غير إنها كادت أن تكون نادرة في بعض الأوقات ' بل وشحيحة في كل الأوقات ' وتتحول إلى ندرة الندرة في اغلب البلدان الخليجية إلى حد العدم . والغريب أن مصر –الأبعد جغرافيا – منا عن

إيران نجد لديها اهتماما بثقافة تلك البلد انعكست في ترجمات امتدت منذ ثلاثينات قرننا الحالي ' كمقدمة الشاهنامة للدكتور عبد الوهاب عزام والصادرة عام ١٩٣٢م وتلتها ترجمات مع فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها مثل حافظ الشيرازي عام ١٩٤٤ ' حدائق السحر في دقائق الشعر في عام ١٩٤٥ وأغاني شيراز عام ١٩٤٧ وتاريخ الأدب في إيران عام ١٩٥٤ م ' وكلها ترجمات من عمل الدكتور إبراهيم أمين الشواربي . وهناك أسماء ونتاجات أخرى توالت بعده أو توازت مع مرحلته كالدكتور محمد موسى هنداوي في كتابه سعدي الشيرازي وأمين عبد المجيد بدوي في عمله القصة في الأدب الفارسي الصادرة عام ١٩٦٣ م . وهذا بالطبع لا يلغي النتاجات الشحيحة من الترجمات الفارسية في كل من سوريا والعراق في تلك الحقبة . غير أن الكارثة الكبرى امتدت لحالة العزلة الحقيقية منذ فترة الشاة ' وتقلصت إلى حد الموت في فترة الثورة الإسلامية . وإذا ما كانت الصدفة توقعنا على كتاب هنا وكتاب هناك من نتاجات إيران وثقافته الفارسية قام بها مترجم بائس أو متحمس ' مترجم يسعى باجتهاداته إلى توصيل ثقافة معاصرة ' فإن الترجمة المنهجية والمبرمجة من جهات معينة تصبح معدومة تماما بما فيه لدى أصحاب الثقافة أنفسهم ' أي إيران التي كان من المفترض أن تترجم إلى العربية نتاجاتها الحيوية والهامة خلال العقود الخمسة الأخيرة . في المحصلة النهائية تم طوال هذه الفترة خلق منطقة رمادية تعمقت هوتها بين الثقافة العربية والفارسية على وجه العموم ومع نتاجات الثقافة في منطقة الخليج بشكل خاص . فلماذا تلك القطيعة والجمود الثقافي ؟

الكارثة الأولى .

لقد أصبت بالدهشة حينما قررت العام الماضي في معرض الكتاب السنوي في أبو ظبي المرور على الجناح الإيراني لعلني أجد شعرا معاصرا

أو قصص وروايات أو أية نتاجات متنوعة مترجمة للعربية أو حتى لغات أخرى ' تغذي الفضول المعرفي ورغباته ' غير إنني لم أجد إلا جناحا شاحبا بظلاله لا يتوازى وحجم تلك البلد الغنية والكبيرة بثقافتها وتاريخها ' فقد غرقت المطبوعات والكتب بنمطيتها الأيديولوجية والدعائية والمغلقة ' مع النزر اليسير من كلاسيكيات الأدب الفارسي غير أن الكارثة أيضا إنها باللغة الفارسية . دفعني ذلك إلى التفكير مجددا بالهوة وضيق الأفق الثقافي ' حيث تسجن السياسة حيوية الثقافة بين جدرانها الأسمنتية وتحاول تطويعها . سألت أحدهم أليس لديكم نتاجات تستحق القراءة خلال العشرين سنة الأخيرة ؟ ' ويبدو انه فهم السؤال وحاول تجاوزه ' وكأنه يقول في داخله لا توجد هنا غير كتب الدعاية للثورة وتصدير أفكارها للعالم !! . لقد شعرت أن إيران أصبحت منتحرة ثقافيا من الداخل بعد أن هجرت عقولها الثقافية إلى الخارج ' ومن تبقى في الوطن ظلت أعماله المعاصرة شعرا ورواية وقصصا سجينة اللغة ألام أو محصورة بين لغات الشعوب الإيرانية .الكارثة في معرض الكتب لم تكن تلك الكآبة المعرفية بين شكل الكتب ومحدوديتها' بل والشروع في قناعة متكلسة في خنق ثقافة معاصرة يراها الموظف الرسمي في نظام ما إنها ثقافة معادية طالما إنها تتصادم مع فكر الثورة ولا توظف من اجلها . لقد دخلت الثورة الإسلامية نفس النفق الأيديولوجي الذي تدخله دول كثيرة في العالم الثالث بحيث لا تقبل إلا نمط واحد من الثقافة وتسور نفسها من الأعداء عن طريقين الأول عدم ترجمة الآخر إلى الداخل والثاني عدم ترجمة الداخل الثقافي للخارج طالما انه أدب لا يخدم ثورة " المستضعفين " ! انه الاختناق البطيء للأدب الإنساني في إيران دفعت ضريبته الحركة الثقافية الإيرانية –قبل أية جهة كانت – بتطويق ذاتها في عزلة ثقافية مع عزلتها السياسية ' بينما كان بإمكان الثقافة أن تقول الكثير حينما يفشل الساسة في توصيل عالمهم المتحجر . لقد كان الثمن باهظا على نتاجات جيل أيراني كامل لم يقرأ العرب أعماله ' بينما يتمتع الغرب بترجمات

مختلفة من خلال ملامسة متعة تلك النتاجات المعاصرة . لقد عرفنا طليعة الشعر الفارسي الكلاسيكي وملاحمه الكبرى ' عرفنا أسماء الشعر القصصي الرومنتيكي والتعليمي والملحمي ' سمعنا عن الفردوسي والنظامي والسعدي والعطار وفنون الرباعيات منذ مؤسسها أبو سعيد بن *أبي الخير* حتى *عملاقه الخيام* ' *وتمتعنا بصوفية جلال الدين الرومي* والحافظ الشيرازي والجامي والانوري ' والتي انعكست بعمق على مجمل ثقافة منطقة جغرافية شاسعة نحن جميعا تأثرنا –العرب – بها وأثرنا كثيرا عليها . فمن " المتتبع للحركة الصوفية في القرن الخامس الهجري يلحظ أن صوفية تلك الفترة اخذوا يستقرون في الخانقاهات التي بدأت في الانتشار في القرن الرابع' وزاد انتشارها في أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أرجاء العالم الإسلامي ' ووجد عدد كبير منها في خراسان والعراق وفارس ' ونواحي كثيرة من إيران ' ووضعوا نظاما معينا للحياة فيها . وكان من التقاليد المتبعة في هذه الخانقاهات إقامة حلقات السماع التي يردد فيها القوالون أشعارا في الغزل يفسرونها تفسيرا صوفيا فتسري النشوة في الدراويش وتتملكهم حال من الوجد ' ومن هنا بدأ دعاة الصوفية يتخذون من الغزل وسيلة لشحذ خواطر المستمعين ' واستجلاب حالات الوجد في مجالس السماع " . ومن يتأمل مفردة القوالون العربية الأصل وفن الكوالي في باكستان بلغة الاردو والمشتق من نفس المفردة العربية لعرف مدى تداخل الشعر والسياسة والصوفية في هذه المنطقة الممتدة من إيران مرورا بأفغانستان حتى بلدان آسيا الوسطى ، التي تتذوق بقوة الشعر وتتحمس لحفظه ويدخل في مجالات النقد والحكمة والرثاء والمدح . ولكن لم يسمع – للأسف الشديد– جيل عربي عريض عن كتاب وشعراء قاوموا بأدبهم في زمن الشاه واستمروا يقاومون في زمن الثورة دون كلل أو تعب ' أدباء من إيران كتبوا بالفارسية وبلغاتهم الام ' وعكسوا ذواتهم داخل الذات الإيرانية الكبرى كالشاعر نسيم فاكسار من المنطقة العربية /عربستان / خوزستان ' والأديب الروائي صادق جوبك والكردستاني معين

كرمنشاهي وعزت الله زنكنه وفيروز نابليوني وكاظم سادت اشكوري من قومية الكيلك الإيرانية . أما من أدباء الفرس المعاصرين فهناك الشاعر والأديب احمد شاملو وجلال آل احمد مع زوجته سيمين دانشور والمرحوم صادق هدايت ومحمد دولت ابادي ' والشاعر الشهيد خسرو كولي سورخي . صمد بهرنكي وشعراء مثل هادي خورسندي في رائعته سر الليل ' شاعر دخل السجون وواجه التعذيب والتشرد والغربة في زمن الشاه وحتى بعد قيام ثورة الشعوب الإيرانية (نوضح بان هناك اتجاهان سياسيان في إيران أحدهم يطلق على الثورة التي أطاحت بالشاه تسمية الثورة الإسلامية والثاني ثورة الشعوب الإيرانية ' وهي مسألة خلافية جوهرية عن انطلاقة الثورة ومساراتها وتحولاتها) . ولا يقل الشعراء مثل منوجهر آتاشي ' سهراب حسن اسدي عاطفة كوركين ' أمين رضائي ' جلال الدين ملكشاهي ' ايرج جنة عطائي ' كمال رجاء ' بيزن جلالي ' معين كرمنشاهي ' احمد الوند والكثير منهم عن زملائهم السابقين ' وهي قائمة طويلة تعكس جيل من الكتاب هو نتاج لموروث حضارة عميقة الجذور في الأدب العالمي والإنسانية . فإذا كنا نحن العرب من جانبنا - ومن جانبهم أيضا- أهملنا هذا الجانب الإنساني من الثقافة وعلاقاتها الإنسانية فإن من المخجل أن يكون الغرب البعيد هو الذي يحاول الدخول خفية من وراء بوابة الثقافة ' بينما نحن بلدان الجوار العربي نترك أهم جانب من جسور العلاقات الإنسانية إلا وهو الثقافة . وسنكمل في الحلقة القادمة الظروف والأسباب السياسية التي أعاقت تطور مثل تلك العلاقة الثقافية بين بلدان منطقة الخليج العربي ' والتي بحاجة إلى ضرورة إعادة النظر فيها مستقبلا فالسياسة والأنظمة من اكثر الأمور تعرجا وتراجعا وتقطعا بينما الثقافة دوما اكثر ديمومة واستمرارية وتجذرا في ذاكرة الشعوب وحضاراتها ' واكثر قابلية لبناء جسور الثقة بين البشر في الأزمنة المتوترة والنزاعات .

لقد ذكرنا في الحلقة الأولى بأننا سنتحدث في الحلقة التالية عن

الظروف والأسباب السياسية التي أعاقت تطور العلاقات الثقافية بين بلدان منطقة الخليج العربي مع الثقافة الفارسية ' والتي هي بأمس الحاجة إلى ضرورة إعادة النظر فيها مستقبلا بعد نفضها من أتربة العصبيات السياسية والنزعات التوسعية 'وحالة التوجس والقلق الدائم بين ضفتي الخليج وجيرانه ، بحيث لا تؤثر السياسة على شعوب المنطقة وانظمتها بشكل القطيعة على مناحي الحياة الأخرى بما فيها العلاقات الثقافية . لانريد التوقف طويلا عند التاريخ غير أننا ملزمون بعض الشيء بملامسته قليلا للدخول إلى العصر الحديث بشكل اكثر منهجية ' وخصوصا أنني سأتعرض إلى ثلاثة نماذج خليجية مرت علاقاتها بشيء من الخصوصية والحساسية السياسية من تاريخنا المعاصر ألا وهي العراق والبحرين والإمارات . لقد حملت حالة التجاور والصراع بين العراق وإيران ذاكرة ملينة بالشك والريبة جاءت مع مرحلة دخول مصطلح " الشعوبية " حيث ارتكز تفسير المصطلح على بعده القومي المعاصر انطلاقا من قراءة التاريخ من منظور ذلك المصطلح نفسه . وهو نتاج لفكر سياسي معاصر نما مع النهضة العربية القومية وعمل إسقاطا ته على الماضي وصيرورته التاريخية . أتاح مثل ذلك النهوض لانتعاش المنهج القومي في تفسيره المادي للتاريخ انطلاقا من أرضية فكرية بحتة للصراع العربي –العربي وللصراع العربي مع الشعوب الأخرى ومن ضمنها الحضارة الفارسية دون الغوص في التاريخ وحركته بشكل دقيق وموضوعي . بل وانطلق مصطلح " الشعوبية " من واقع عياني عربي في تفسير الطرف الآخر .

الذاكرة التاريخية /الحقيقة والكراهية.

ينطلق منظرو الفكر القومي في تعريفهم للشعوبية على أنها " تيار فكري وسياسي معاد للحضارة العربية ومحتقر لقيمها . مثلته في التاريخ القديم والحديث بعض الاقليات والشعوب التي تضررت من قيام

الدولة العربية وتألقها " ويفرد التفسير ثلاثة معاني لكلمة الشعب واشتقاقاتها من أهمها انه يطلق على غير العرب 'أي العجم ' مؤكدا مصطلح الشعوبية بأنه فكرة سياسية أدبية اتخذت الدين شعارا لها وتمخضت عن حركة بعضها فخلقت تيار أدبي والآخر تيار ديني والثالث تيار عملي ' مبعثها الصراع بين العناصر غير العربية التابعة للدولة العربية والذي كان العنصر الفارسي أكثرها تفوقا ' وقد أطلق أصحابها على أنفسهم اسم الشعوبية ' في حين أطلق معارضتهم عليهم اسم أهل التسوية" . ويتكئ مرجعية المصطلح ونشوئه وتفسيره وتطوره على مرحلة صدر الإسلام ونموه في العصر الأموي وتبلوره أيضا في العصر العباسي برغم أن المفارقة كانت صارخة مابين القيادة والبيعة ' والتي كانت لفرع هاشمي عربي ' أي العباسيين ' غير أن أبو مسلم الخرساني القائد العسكري للثورة العباسية كان فارسيا وكانت اللغة الفارسية هي السائدة في جيشه . وعلى المستوى الأدبي كان هناك صراع ومناظرات ومساجلات بين أدباء عرب واخرين فرس مثل بشار بن برد وأبى نواس وكتاب من حجم ابن المقفع وسعيد بن حمير . وقد تناولت مساجلاتهم موضوع المساواة والملك واللغة والإنسان والفكر والفلسفة ' هؤلاء اتهموا بالشعوبية نتيجة أصولهم الفارسية مثلما اتهموا البعض بالزندقة بترويجهم مذهب المانوية ' واستنكرت ثورات عدة كونها فارسية الينابيع كالثورة البابكية' ورميت بأوصاف تتشابه مع حركات تاريخية مختلفة ومتمردة ضد مراكز السلطة والفساد وتم التركيز على فلسفتها الفكرية لسهولة عزلها بتهمة الإلحاد وبهدف تجريد أبعادها الاجتماعية خشية اتساعها الجماهيري وخطورتها على السلطة في مراكزها البعيدة .

ويقدم لنا التاريخ العربي مشاهد عديدة من تراثه وصراعاته على السلطة وتفسير الصراعات في القمة في عهد الأمين والمأمون بارجاع جزء من الوقائع الى انتماء المأمون الى أمه الفارسية وموت أبا مسلم الخرساني على يد جعفر المنصور بعد تطاوله على الخليفة وإبادة الخليفة هارون الرشيد البرامكة ' والأسوأ ما في التاريخ أن الشعراء إما كانوا

دعاة سخط ضد السلطة أو أبواق لتأكيد استبداديتها وقمعها وجبروتها كما فعل عمر بن أبي ربيعه حين انشد " ليت هندا أن جزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد . وهكذا حالنا الأدب إلى التحريض على الاستبداد بكل دلالاته وأبعاده ' ويا ليت أن الاستبداد كان عاطفيا وشهوانيا من امرأة لشاعر النساء ' وإنما دعوة صارخة ضد الأعراق الأخرى 'غير العربية التي اقتربت من مواقع السلطة . مثل هذا التاريخ المعبأ بالكراهية والصراع استمر دون انقطاع حتى دعوة الإسلام باخوة البشر والتأليف بين قلوبهم . لقد انعكست تلك الدعوات المنادية ضد الشعوبية في بلد كالعراق والشام نتيجة تجاور كل واحدة منهما ضد إمبراطوريات كبرى كالفارسية والعثمانية حتى تحولت إلى " شوفينية عربية " فلدى كل بلد قضايا حدودية وأجزاء مقتطعة .فهل بإمكان المناهج المتوارثة في العراق إغفال الدروس التاريخية والجغرافيا عن قضية عر بستان أو المحمرة ' وكذلك فعلت الإمبراطورية الفارسية على مدى حقبة طويلة . ونتيجة لمثل ذلك الصراع المرتكز أولا على خلفية موروث تاريخي ' ثم استمر على أساس خلافات حدودية جغرافية على المياه واليابسة استثمرتها الإمبراطوريات الكولونيالية في المنطقة وهي تتقاسم وتتصارع أولا في القارة الأوروبية وثانيا في مناطق النفوذ فكنا نتحرك ما بين البرتغاليين والإنكليز والهولنديين والروس والفرنسيين انتهت في المطاف الأخير لغلبة الإنجليز في الحصول على امتيازات تجارية ونفطية في إيران والعراق' وساحل الخليج العربي . وتحت سيادة تلك الإمبراطورية سيتم تفجير الصراع وتأجيجه وإذكاء روح العداء العربي -الفارسي حتى مرحلة الاستقلال ' بالرغم مما تركته تلك التبعة الاستعمارية من ارتباكات وتقسيمات حدودية خطيرة وعداء ثقافي معاصر بين بلدان الجوار لم تحسن أقطاره الاستفادة منه .

تركة الشاه والثورة

لم تهدأ الصراعات بين العراق وإيران بعد الحرب العالمية الثانية ' وكلما جاء نظام انقلابي في العراق لا بد وان يطرح مسألة العلاقة بإيران والمطالب التاريخية . وقد ساهم في دعم الحركات المناهضة للشاه ولحركات قومية كحركات التحررالبلوشية وتنظيمات تدعو لعودة عربستان إلى حظيرة العراق ' انتهت بكارثة توقيع العراق في زمن الشاة على بعض الحقوق في شط العرب كانت لصالح إيران نتيجة للتفوق العسكري والسياسي لحكم الشاه . بينما ظلت قضايا حدودية وسيادية لدول الخليج العربي مدار تفاوض بين الدول العظمى حسمت بعض منها مع إعلان الاستقلال فيما بين ١٩٧٠-١٩٧١ وبالخصوص موضوع حديثنا البحرين والإمارات والتي عانت من الحساسية السياسية والتي تركت مسافة بينها وبين جارها الفارسي بانتمائه الإسلامي . وحينما ولد مشروع تصدير نموذج الثورة الإسلامية إلى دول الجوار انبعثت كل الحساسية التاريخية من جديد وكأنها اليوم قبل البارحة ' ففي الوقت الذي تحركت العلاقات طوال فترة حكم الشاه بين الشد والجذب مع حكومات الخليج ' نراها في زمن الثورة الإسلامية تغلق منافذها وأبوابها عن القادم الجديد برياح الثورة الإسلامية ' وكانت البوابة العراقية هي الفخ التاريخي الذي دفع ثمنه باهظا المحاور الثلاثة دون غيرهم ' إيران والعراق وبلدان مجلس التعاون وكانت الفاتورة كبيرة وطويلة الأمد .
كل تلك المتواليات من الصراع والتوتر لم تخلق جسورا متينة من العلاقات ولم تبن الثقة المتبادلة بين دول متجاورة ' فكانت الثقافة أول من تراجعت في أتون تلك المعركة الشرسة حول سيادة البلدان وهويتها وحالة الانتماء .وبالرغم من حركة الهجرة المتواصلة بين الضفتين ظلت مسائل عديدة مجمدة في طورها الجنيني ولم تخرج من جمودها التاريخي ولم تخلع معطف الحساسية القومية والتاريخية ' في الوقت الذي تدخل فيه بلدان مجلس التعاون طورا جديدا من التشكل وتتخلق دولها الصغيرة بكيانات محددة وواضحة بهويتها العربية والإسلامية ' وتقبلها

بتعدديات اثنيه داخلية وتجاورها مع ثقافة وعلاقات الجوار في الضفة الأخرى ' مما يعني بضرورة كسر الحواجز الثقافية في التعامل مع اللغة الفارسية والعربية على المستوى الثقافي والحياتي بشكل منهجي . محاولين في الحلقة القادمة تسليط الضوء على حالة البحرين والإمارات كنموذجين عربيين مرا بالحساسية الثقافية الفارسية -العربية نتيجة النزاعات السياسية والمطالب التوسعية الشاهنشاهية خلال العقود الأخيرة . فهل ننتظر عقودا أخرى من الشك والريبة والمخاوف بيننا وبين الجارة المسلمة إيران ؟ تاركين الأقدار والدول العظمى وإسرائيل تحرك سفن البغضاء لزمن الرياح العاصفة أم أن الوقت حان لبناء الجسور ، جسور الثقة فالفرصة التاريخية متاحة للجميع ' حيث تلعب الحكمة والمنافع المتبادلة دورها التصالحي في تدشين مظلة العلاقات الأخوية الحميمة . إذا كان في زمن السلم يخسر المرء مرة واحدة فإن في زمن الحرب يخسر الناس مرات ومرات ' حيث لا توجد ثروة في الكون أهم من حياة البشر . ولم يستطع أحد أن ينتصر إلى الأبد في طواحين الحرب المريرة . ولكي لا نذهب في التاريخ بعيدا فإن الحرب العراقية - الإيرانية خير دليل على كارثة لم يحصد منها الطرفان إلا الويلات والخسائر الفادحة ' فلا زال إيران والعراق مثخنين ومثقلين بمأساة تلك اللعنة الكبرى ' لعنة الحرب الباهظة .

شهدت بلدان منطقة الخليج العربي بشكل عام -و البحرين بشكل خاص موضوع حديثنا - في بداية القرن موجة هجرات متواصلة من إيران بعضها شرعية وبعضها لاشرعية ' حيث تسلل القادمون إليها خلسة ولم يحملوا في جيوبهم حتى ورقة صغيرة تشير إلى هويتهم الإنسانية ' أي بمعنى أن المتسلل يومها كان بإمكانه أن يعطي أية اسم يختاره أو قرية ينتمي إليها ' والأكثر من ذلك أن هذه المنطقة الخاضعة للاستعمار البريطاني كانت لتوها تؤسس بنيتها التحتية وأجهزتها ودوائرها الحكومية فكانت المرافئ -مرافئ السفن مفتوحة الأذرع لعالم البحارة القادمين من الضفة المجاورة لكونها قريبة ' لذا كانت تستهويهم

حالة البقاء علي اليابسة حالما يعثر البحارة على عمل مغر وثابت .وإذا ما عرفنا أن الأعداد القادمة في العقد الأول من هذا القرن لم تكن إلا قليلة للغاية بسبب أن المنطقة لم تكن توفر فرصا للعمل مغرية قياسا بنشاط موانئ ومدن إيران في تلك المرحلة . بدأ الرقم ينمو تدريجيا وحجم الهجرات تتسع مع العقد الثالث وخصوصا عندما تم اكتشاف النفط في البحرين عام ١٩٣٢م وبدأت تدب الحياة الاقتصادية بتدشين المنشآت النفطية ومرافقها . مثل تلك السوق الاقتصادية الجديدة جذبت الأيدي العاملة الماهرة والرخيصة من الضفة الأخرى من بر فارس . استمرت عملية التدفق بكثافة حتى الستينات ' غير إنها شهدت تراجعا في فترة ركود الحرب العالمية الثانية وانخفاض النشاط الاقتصادي . وقد كانت سواحل البحرين ليليا تشهد حالة المطاردات الرسمية من الشرطة والضعيفة حينذاك ' والملاحقات الشعبية للسكان بسبب نمو الظاهرة القومية وتنشيط الأحزاب القومية فكرة إذكاء النزعات القومية وتضخيمها من مخاوف سياسية كانت سائدة في الشارع البحريني ' بأن أولئك المتسللون وعمال البناء ليسوا إلا ضباطا وجنودا إيرانيين تسللوا من اجل استلام الجزيرة ! (مثلما شاعت في يوم ما أن الشركات الكورية ليست إلا قوات احتياط أمريكية في المنطقة من اجل التدخل السريع لمجرد إننا شهدنا سلوكا عماليا انضباطيا في معسكرات عملهم كشركات كورية 'حين حصلت الشركات الكورية الجنوبية على مقاولات أعمال الإنشاء في فترة الطفرة النفطية في منطقة الخليج !) . وقد لعبت بالتحديد حركة القوميين العرب دورا تحريضيا على مثل تلك النزعات ساهمت العناصر الفلسطينية في الكويت من خلال جريدة الطليعة الكويتية في الستينات على خلق نموذج الكاريكاتير لشخصية الإيراني المتسلل(وللتوضيح فقد كانت حلقات القوميين العرب السرية في الكويت مركبة من عناصر عربية متعددة غالبيتها من العناصر الفلسطينية ثم حدث لاحقا أن تمردت العناصر الكويتية في الحركة وطالبت بتشكيل حلقات منفصلة لهم) . وتحركت ظاهرة الهجرة غير

الشرعية بشكل طردي في البحرين ' فكلما نمت الأجهزة الأمنية تراجعت الظاهرة غير إنها ظلت موجودة في إطار ضيق ومحدود ثم انتهت تماما مع حصول البحرين على الاستقلال .

الدور الإنكليزي والهجرة

عبر تفحص الوثائق الإنكليزية في الفترة الكولونيالية ' هناك مراسلات بين رجال الشرطة والأمن والقناصل تشير إلى مناقشتهم حول عدم قدرة الأمن على ضبط حالة التسلل في الحدود ما بين إيران والبلدان المجاورة لها 'محاولين الاستفسار ماذا ينبغي أن نفعل حيالها ؟'فكانت الإجابات من الجهات السياسية البريطانية كما يلي : نحن بحاجة إلى عمالة رخيصة وماهرة في البلاد ' كما أن تلك الحالة لاتشكل خطورة مستعصية ' تستحق الذكر ' والأكثر من ذلك إنها مسألة لا تعنينا بهذا القدر أو ذاك . مثل تلك الخطابات ظلت متواصلة مع الانفجارات النفطية وسرعة النمو الاقتصادي ' غير أن البريطانيين ظلوا دائما يراقبون كل الجنسيات الراغبة الدخول لسوق العمل في منطقة الخليج النفطية كسوق جديدة . ولكون الخليج العربي منطقة نفوذ بريطانية فإن أبار النفط من كركوك حتى عبدان مرورا بالشريط المائي لبلدان الخليج خلقت على جوانبها حياة جديدة في تلك الحقبة حيث كانت تبحر السفن لشركات بريطانية واحدة ' وتتملك أهم المفاتيح الأساسية من اتصالات وبنوك ومحطات عسكرية ومدنية كالمطارات والموانئ . ولأبعاد سياسية لم يكن موضوع الهجرة يهم المستعمر ' مثلما يهمه هدر مصاريفه على حماية الحدود ' بقدر ما كان معنيا بمصالحه وحماية منابع النفط والثروات الأخرى والممرات وتدشين قواعد تربطه بمنظومة شبكة عالمية . والأكثر من ذلك' كان يتابع نشاط التيارات السياسية المؤثرة على مصالحه التي بدت واضحة في الممارسات الأمنية تجاه المد الناصري وثورة العراق في الخمسينات ومطاردة العناصر

الإيرانية اليسارية التي هربت إلى منطقتنا بعد فشل حركة مصدق إذ شكلت منطقة الخليج يوم ذاك مكانا آمنا وهادئا للهاربين من العسف الشديد في عهد الشاه .وتحكمت بريطانيا في القرار السياسي ' وهيمنت على الاقتصاد في تلك الحقبة البريطانية ' وأخضعت إرادة شعوبها وحكامها وفق توازناتها ومصالحها إلى أن نالت دول المنطقة استقلالها في بداية السبعينات . في مثل تلك الحقبة كانت بريطانيا تتفاوض مباشرة على قضية البحرين مع إيران ' بل ولم تكن تعترف إيران نفسها آنذاك بالوثائق الحكومية البحرينية عندما يزورها شخص من البحرين ' بل كانت تقول لهم في المطارات ' إننا لا نعترف بتلك الوثائق والبحرين جزء من إيران واعتبروا أنفسكم أنكم تتنقلون في بلادكم . وظلت البحرين مثار خلاف أيراني -بريطاني إلى أن سويت المسألة وفق المساومات مع الشاة . مثل تلك الحساسية السياسية والثقافية خلقت داخل البحرين اصطفافات عرقيه وعلاقات ريبيه تأخذ أحيانا شكل الصدامات بين العرب و"العجم" على المستوى الشعبي ' كما انعكس ذلك في طبيعة الانتماءات السياسية وتدشين الأندية ' فكان نادي التاج والفردوسي والاتفاق وشاهين ' نماذج لتكوينات ثقافية وسياسية إيرانية في المجتمع البحريني عكست نفسها في الأندية ' وفي التوجهات السياسية المتباينة ' فكان كل واحد منها يعبر عن كتلة سياسية واجتماعية معينة في الوسط الثقافي البحريني . وظلت الأجنحة والتيارات السياسية في إيران تعكس نفسها في البحرين مثلما عكست المدرسة والمأتم ذلك الاصطفاف والتمايز . هذه الحالة السياسية والثقافية خلقت أجواء من العزلة والحذر والريبة والنزاعات ' امتصتها نسبيا العلاقات الودية في الأحياء والاختلاط في التعليم (ماعدا أولئك الذين يدرسون في المدرسة الإيرانية ') بالإضافة إلى الأحزاب السياسية القومية والدينية واليسارية ففي كل واحد من تلك التنظيمات السياسية انخرط أبناء ذلك الجيل الذي تسلل من " ضفته إلى ضفتنا "(وللملاحظة - لست هنا بصدد دراسة عميقة عن تركيب البنية المجتمعية ووشائجها ولا

مناقشة مصطلح " الهولة "(الحولة) الوارد في أول كتيب يصدره المفكر البحريني الدكتور محمد الأنصاري ' والذي سعى بكل جهده التأكيد على عروبة الهولة باعتبار أن الدكتور كان عضوا نشطا وسابقا في حركة القوميين العرب . فمثل تلك الدراسات يومها كانت تعبيرا حيا عن حالة قائمة وتعكس حالة جيل عريض ونوع من المعاناة النفسية للهوية والانتماء في واقع سياسي مشحون بالتناقضات والإشكالية) دون ورقة عبور بحثا عن لقمة العيش أو جاء بوثيقة سفر لم تكن اكثر من تأكيد للهوية .

البحرين تختار انتماءها .

عندما طرحت إيران وبريطانيا عبر الأمم المتحدة فكرة الاستفتاء عام ١٩٧٠م لمعرفة قياس خيار الشعب ما بين الحصول على استقلاله أو أن تكون البحرين جزءا من إيران ' اختار شعب البحرين بكل قواه السياسية أن يصوت لصالح عروبة البحرين ' فطوت البحرين مسألة من أهم القضايا السياسية المستعصية ' بينما ظلت الهوة في العلاقات الثقافية ' سواء بين البحرين وإيران ' أو فيما بين البحرينيين الذين كان بإمكانهم تطوير ثقافة فارسية مهمة في المجتمع البحريني نتيجة أصولهم وتملكهم ناصية اللغة كجسر للتواصل الثقافي . وبسبب التفسيرات الخاطئة لمعنى الانتماء والولاء ظلت الحساسية وحالة انعدام الثقة ' فانعكست في كيفية التعامل مع اللغة ذاتها في الداخل والخارج ' ففي الخارج / الشارع والمناخ العام والحي عاشت اللغة خطاباتها الخاصة ' بينما احتفظت اللغة في الداخل /المنزل (العائلة والعشيرة والقرية) بثقافتها ألاثنيه المغلقة ' وهو العالم الذي تحرك بازدواجية وضياع وتمزق ' بين واقع جديد يتمدد ويتعمق في تشكله ' من الماضي إلى الحاضر في اتجاه المستقبل ' وبين جذور الأصول المتقطعة والمتلاشية بالتدريج ' بين الولاء الحقيقي للوطن والولاء الذي مازال تحت الفحص ' في واقع سياسي

واجتماعي ' لم تتضح ملامحه ويحسم خيارات كثيرة عالقة منذ فترة ما قبل الاستقلال الحديث لدول المنطقة ' وظلوا الأشخاص الذين ينتمون لأصول غير عربية ' بعد أن اصبحوا يمثلون الجيل الثالث والرابع ' يعاملون حتى الآن أشبه بحالة " برسونا نان كراتا " PERSONA NON GRATA

(شخص غير مرغوب فيه) وهي في اغلب الحالات لا تخلق إلا علاقة متنافرة ' وهوة ترسخ أكثر ما ترسخ ' بقاء المجتمعات المغلقة اثنيا ' والتي تهمس من الوراء بولاء كاذب ' بسبب التمييز وكأنها حالة " بيت وقف " . إذ تشكل غياب الإجابات الواضحة حول أسئلة ضرورية لتركيبتنا السكانية تمزقا اجتماعيا . لقد حان الوقت لوضع أسس لبنة جديدة تكون ثمارها المستقبلية ولادة مجتمع لا يخاف أفراده من تحديد ولاء تهم أو يخجلون من أصولهم البعيدة ولا يعاملهم الآخرون بدونية النقاوة العرقية ' فإن الاستيعاب والذوبان الثقافي والتعددية الاثنية والثقافية ظاهرة صحية في المجتمعات الحية ' ولا تنمو الظاهرة وتزدهر إلا في مجتمعات متسامحة وديمقراطية ودستورية تسعى إلى إذابة تلك الثلوج المتجمدة والخوف من علاقات ثقافية مع الجوار . لقد حسم الواقع والتاريخ طبيعة الثقافة ما بين الضفتين العربية والفارسية ' مثلما حسم التاريخ العلاقات الدينية ' غير أن الجغرافيا تذكرنا بأننا يجب أن لا نهمل جيراننا الذين نتعامل معهم كل ساعة بآلاف المعاملات في ميادين مختلفة . ولا نترك أنفسنا عرضة الخلط بين الأشياء فهي تصبح كالبوصلة المعطلة التي لا تسعفنا في معرفة الاتجاهات . وإذا ما اجتازت البحرين حالة الاعتراف بسيادتها في السبعينات ' وحالة عدم التدخل في شؤونها وتركها في حالها على المستوى السياسي في التسعينات ' فإن الإمارات تنتظر حسم قضية الجزر لكي يبحر الجميع نحو علاقات حسن الجوار وإذابة روح انعدام الثقة العميق في أغوارد التاريخية ' والذي انعكس سلبا على مجمل الاهتمامات الثقافية والإنسانية بدرجات متباعدة ومتفاوتة بين الضفتين وفي داخل الضفة الواحدة .

دولة الإمارات والتحرك بين الثالوث المتوتر .

تعكس الجولة المكوكية للأخضر الإبراهيمي مبعوث الأمم المتحدة لأفغانستان دلالاتها السياسية في اختياره زيارة دولة الإمارات العربية المتحدة أولا قبل التحليق إلى طهران ثم تبعها بزيارة إلى إسلام آباد حيث هناك سيلتقي بالضرورة ممثل حركة طالبان . وقد أكد أثناء لقائه بشخصيات سياسية رفيعة المستوى في دولة الإمارات أعربوا فيها عن استعداد الإمارات للمساهمة في الجهود الدولية المبذولة من اجل خلق الاستقرار في أفغانستان . ورحبوا بالجهود الحثيثة للأمم المتحدة الساعية إلى توطيد السلام في ربوع ذلك البلد الإسلامي المتعب بنزيف الدم والإرهاق منذ عقدين من الزمان . أما لماذا اختار الأخضر الإبراهيمي الإمارات أولا ؟ وماذا سيقول له الإيرانيون في طهران ؟ وماذا ستفعل الحكومة الباكستانية مع الأزمة ؟ وكيف سيتعامل الطالبان مع الإبراهيمي ؟ فذلك ما سنحاول أن نستشرفه من خلال التصريحات المتضاربة والمواقف السياسية المتباينة والمصالح الإقليمية لكل الأطراف .

لقد قررت الأمم المتحدة البدء بالإمارات ليس فقط لقرب النزاع بين إيران وأفغانستان لحدودها في حالة اشتعال الحرب وحسب بل

ولإمكانية أن تقبل الإمارات في المراحل القادمة من المفاوضات أن تكون وسيطا مقبولا للأطراف الثلاثة أفغانستان وباكستان وإيران لما تتمتع به الإمارات من احترام وعلاقات طيبة معهم جميعا ، وإن كانت الأخيرة لديها مشاكل سياسية مرتبطة بموضوع الجزر الثلاث كما إنها لا تستطيع أن تزيل من ذهنها اعتراف الإمارات بحركة طالبان .مثل ذلك الموقف ربما يقلل من احتمال الاقتناع من الطرف الإيراني بحيادية الإمارات في الوساطة الإقليمية ' غير أن في الوقت ذاته تدرك إيران أن مثل تلك الوساطة تشكل فرصة تاريخية جيدة بين الإمارات وإيران ' تحمل في مضمونها رسالة سلام جديدة تتسق مع مرحلة خاتمي الذي بعث بومضات الثقة وبناء جسور مع دول الجوار . فهناك أجواء إيجابية بين إيران ودول التعاون عكسها خطاب الرئيس خاتمي أمام الجمعية العامة مؤخرا ولها دلالات تبشر بالخير حول مناخ الاستقرار وإعادة الثقة بين بلدان الجوار . وإذا استطاعت إيران الخروج من عقدة المواقف السابقة لكل الأطراف ' والتعامل مع القضايا الحيوية دون حساسية ماضوية ' بوضع مصالح ومستقبل المنطقة تحت الفحص من جديد نتيجة المتغيرات السريعة في المنطقة ' وبميزان العقل والحكمة لإنقاذ المسلمين والمنطقة من حرب لا مستقبل لها .

وإذا ما جاء الإبراهيمي من اجل طرح تصورات معينة عن الأزمة فإن دول المنطقة وثالوث التوترالاقليمي سيكون لديهم تصورات محددة في بداية الجولة قبل الشروع في إعادة كل الأطراف لطاولة المفاوضات . ويبقى لدى الجميع قضية مشتركة وثابتة هو أولا وأخيرا تجنيب المنطقة حربا شرسة بين البلدين والبحث عن صيغة للحوار السياسي . فإذا ما اقتنع الجميع بمبدأ الحوار فإن نزع فتيل الحرب يصبح كخطوة أولي أمرا ممكنا . من هنا تتحرك الإمارات لإيمانها بأن حقن دماء المسلمين جميعا بات أمرا ضروريا وفتح جبهات من هذا النوع في هذه المرحلة لن يخدم إلا أعداء الإسلام والعرب وفي مقدمتهم إسرائيل ' والتي تفضل التمزق الإسلامي – الإسلامي مثلما تفضل موت التضامن العربي للابد .

وستعكس الإمارات صدق نواياها للثالوث الإسلامي والأصدقاء المتطلعين لسلام حقيقي للمنطقة .

مأزق طالبان .

وتدرك إيران أن حركة طالبان بعد القرار السعودي بسحب القائم بإعماله وقطع علاقتها الدبلوماسية معها بات ظهرها مكشوفا وقوائمها ضعيفة بين دول مجلس التعاون . وإذا ما كانت الدول الإسلامية تقف مع طالبان من منظور إسلامي ودعم قضية الشعب الداخلية فإن الأخطاء القاتلة لدى حركة طالبان سواء في تشريعاتها المتزمتة ومواقفها في انتهاك حقوق النساء والرجال والأطفال أو بتشبثها بالمماطلة في تسليم بن لادن أو في التسويف في قضية العرب الأفغان وإنكارها بأنها لا تدعم حركة الإرهاب العالمي ' بينما هي في الحقيقة باتت مركزا عالميا له وخندقا جغرافيا أخيرا لمقاومته ' في ظل ظروف دولية جماعية تدين مثل ذلك الإرهاب . فإذا كانت الدول الصديقة سابقا تدافع عن الحركة لأسباب إنسانية ودينية فإن المؤشرات السياسية والمواقف المتصلبة من الحركة ستدفع بالجميع ودون استثناء ، التخلي عن أناس لا ينظرون للمصلحة العليا لأفغانستان والتفكير جديا ببناء تلك الدولة الممزقة . ولن يكون ذلك الشخص الذي ستسمع حركة طالبان صوت نصيحته هذه المرة إلا دولة الإمارات التي ستحاول التقريب بين الأطراف جميعها بشكل وفاقي يرضي أفغانستان ودول الجوار كل حسب حقه وثقله وتواجده الفعلي في التركيبة الأفغانية .

إيران مطالبها محددة .

في المحطة الثانية بعد الإمارات وقف الإبراهيمي في طهران وقد صرح مسبقا لدى وصوله أن مهمته الحالية ليس تهيئة الأجواء

لاعتراف دولي بحركة طالبان ' وإنما حمله الأمين العام للأمم المتحدة العمل لوقف انتهاك الحقوق الإنسانية في أفغانستان وحمل تعازي وتضامن الأمم المتحدة لشعب وحكومة إيران واسر القتلى الإيرانيين في مزار الشريف . وأكد على ضرورة تعاون طالبان في الكشف عن ملابسات الحادث . مثل تلك التصريحات أزالت البلبلة من تخرصات الدبلوماسية الإيرانية ' التي كانت في البداية ترى في زيارة الإبراهيمي ليست إلا زيارة تمهد للاعتراف بطالبان على المستوى الدولي' وخصوصا أن لجنة الأمم المتحدة المسؤولة عن بحث طلبات الاعتراف والتمثيل الدبلوماسي لدى المنظمة الدولية تعقد اجتماعاتها في شهر أكتوبر . وهذا التمهيد لن يكون إلا لاحقا بشروط دولية تتنازل فيها طالبان عن مواقفها المتزمتة وتوجهاتها المنافية للأعراف الدولية واحتضانها للإرهاب وتحولها كمركز عالمي . لقد أثارت تصريحات الإبراهيمي ارتياحا في الوسط الإيراني أعرب عنها نائب وزير الخارجية الإيرانية محسن ايمن زادة معربا عن أمله أن تكون مهمة الإبراهيمي خطوة باتجاه وقف الحرب في أفغانستان ' وقال على الأمم المتحدة تلبية المطالب الإيرانية المشروعة . وهنا بيت القصيد فلكي تقنع الحكومة الإيرانية الشارع الإيراني بأن دماء الدبلوماسيين لم يذهب هدرا فإن على طالبان أن تذعن للمطالب الإيرانية المدعومة بشرعية دولية . وذلك ما سيضع حركة طالبان في مأزق صعب مثل مأزقها مع قضية بن لادن ' والذي دفع بالمملكة قطع علاقتها معها عندما رفضت الحركة تسليمه وتصر على تصنيفه باللاجئ السياسي!! .

والغريب أن زعيم طالبان الملا عمر ما زال يناشد الأمم المتحدة بالاعتراف بحكومته محاولا تبرير أن الذين تم " إعدامهم في مزار الشريف كانوا عسكريين وليسوا دبلوماسيين " غير انه نسى طبقا للمواثيق والأعراف الدولية انه لا يحق للدول إعدام الأسرى حتى ولو كانوا مرتزقة فما بالهم لو كانوا دبلوماسيين أو عسكريين . وبدا تناقض تصريحات الملا عمر صارخا فهو بذلك يعترف ضمنيا أن

الدبلوماسيين لم يسقطوا قتلى في معارك المواجهات وإنما اعدموا ! وتلك بذاتها قضية مثيرة للجدل داخل أروقة الأمم المتحدة بعد أن تستكمل بعثة التقصي تحقيقاتها والتي تحاول طالبان الكشف عن ملابساتها ' ويسعى الأخضر الإبراهيمي تجليها كما أشار في حديثه لوكالات الأنباء . وبذلك تتحرك طالبان في لحظتها التاريخية على المستوى السياسي والدبلوماسي في دائرة ضيقة من المسوغات والمحاجات مثل تحرك النمر في دائرة قفص ضيق ولا يمتلك إلا الزئير .

الحلقة الباكستانية الضعيفة .

وتمر الحلقة الباكستانية في حالة تقلص مستمر ينعكس في مواقفها تجاه طالبان والأصدقاء . فالأزمة انعكست على الجبهة الداخلية وبدأ الهجوم أولا على رفض التشريعات الإسلامية في البرلمان ' ثم تواصلت الحملة على اتهام حكومة نواز شريف بوقوعها في دائرة الفساد . كما أن الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها باكستان بعد التجارب النووية وتعليق المعونات الدولية والأمريكية إليها ومحاصرتها يجعلها تعيد النظر في مواقفها السياسية مع حركة طالبان' وخصوصا بعد القرار السعودي المفاجئ حيال طالبان مما يجعل من باكستان في حالة ارتباك سياسي جديد .والأكثر من ذلك لا يمكن أن تستمر باكستان في تفضيل علاقاتها مع طالبان على حساب توترها مع جارتها إيران المسلمة في ظل حساباتها وصراعاتها السياسية مع الهند ، ناهيك عن رغبتها بتحسين علاقتها ' بعد أن تم توتيرها مع العالم الغربي . وتدرك باكستان في ظل ظروفها الاقتصادية الصعبة إنها أول من ستتلقى اللاجئين الهاربين من حرب أفغانستان مما يعني أن أعباء اقتصادية عسيرة غير قادرة على تحمل تكلفتها الباهظة لوحدها .

فقد تلقت باكستان دعما دوليا للاجئين أثناء الغزو السوفيتي وبعده من دول إسلامية خليجية إلى جانب المنظمات الدولية . وقد

ساهمت الطفرة النفطية في أواخر السبعينات بمد باكستان وإعانتها بالشريان الحيوي من الدولارات النفطية ' غير أن الأوضاع اختلفت اليوم ' وقد سمعها نواز الشريف بوضوح أثناء جولته الأخيرة بعد التفجيرات النووية عندما طرح مسألة الدعم المالي . من هنا تصبح حسابات باكستان مختلفة للحرب مما يجعلها تناشد الطرفين بعدم التورط فيها . فإذا كنا إلى فترة قريبة جدا نسمع صوت باكستان ينادي العالم - كما هي تصريحات حسن سيد وزير الإعلام الباكستاني - بمنح مقعد أفغانستان في الأمم المتحدة لحركة طالبان ' وبأن بلاده مستعدة لعب دور " الوسيط النزيه بين إيران وطالبان ' فإن المصادر الدبلوماسية في إسلام آباد تؤكد أن الحكومة الباكستانية رفضت قبول مرشح حركة طالبان الأفغانية ليكون سفيرها لدى باكستان وهو المرشح نفسه الذي طلبت السعودية مغادرته الرياض . مثل تلك الانتكاسة تشكل كارثة جدية للحركة ، فإذا ما كانت باكستان تحاول من جهتها الميل والتضامن مع سياسة الأصدقاء التاريخيين كالسعودية والولايات المتحدة فإنها من جهة أخرى لابد وان تثير الحنق والغضب لدى حركة طالبان . وبهذا الرفض الباكستاني المفاجئ أيضا تدخل طالبان مأزقا جديدا ضمن مآزقها الأخرى في حركتها الحثيثة ألان بهدف الحصول على الاعتراف والشرعية الدولية .

الاعتراف بطالبان ممكن .. ولكن !!

في ٩٨/٨/١٦ صرح مصدر دبلوماسي فرنسي بأن بلاده لا تعترض من حيث المبدأ على الاعتراف بحكومة طالبان في أفغانستان . وربط الدبلوماسي -الذي طلب عدم ذكر اسمه- هذا الموقف بأن شركة " توتال " النفطية الفرنسية موجودة في المنطقة ' وتقوم حاليا بإعداد دراسة خاصة حول نقل الغاز من بحر قزوين عبر إيران . غير أن المصدر أكد أن بلاده ليست في عجلة من أمرها فيما يخص الاعتراف

بطالبان !! كسلطة وحيدة في أفغانستان . وكان هذا واضحا أن الفرنسيين - أثناء فترة التصريح -يراقبون تطورات الصراع العسكري في أفغانستان ومدى مضاعفاته ونتائجه . وفي ذات الوقت تساند الولايات المتحدة موقف طالبان بضغط من تأثير مصالح عدة يأتي على رأسها المصالح النفطية ' والتي تشكل عامل ضغط في دوائر صناعة القرار .

وارتبط للوجود صعود وبروز حركة طالبان السريع في عام ١٩٩٥ متزامنا مع قيام شركة النفط الأمريكية " اونوكال " والتي وقعت عقد مع جمهورية تركمانستان لإنشاء وصيانة خط للأنابيب من ابرز ملامحه نقل الغاز التركماني إلى باكستان عبر أراضي أفغانستان . وبهذا الصدد وقعت كلا من طالبان وتركمانستان وباكستان في ٢٧مايو ١٩٩٧م عقدا بقيمة اثني عشر مليار فرنك لإنشاء خطوط لنقل الغاز والنفط تتجه من تركمانستان إلى كل من باكستان والهند . من هنا نجد لهثان طالبان في عجالتها إنجاز موضوعين مهمين الأول الاعتراف بها كحكومة أفغانية والثاني البدء بتنفيذ العقود النفطية المتفق عليها والتي لعبت فيها باكستان دورا رئيسيا . فإذا ما تراجعت الدول المؤيدة سابقا للحركة و الباحثة عن مصالحها معها نتيجة سلوك الحركة السياسي والعسكري داخليا وخارجيا ' فإن المساومات والبراغماتية لم تنته بعد بشروط تفرضه الدول الإقليمية والدولية على الحركة وليس العكس . فمن صنع عسكريا وسياسيا الحركة هم أيضا من يقررون صنعها استثماريا ' وهم أيضا يحددون حجمها ومكانتها في المنطقة . وعلى طالبان أن تدرك انه لن يسمح لها بأن تتقوى لاحقا وتتحول إلى مكان ريادي للإرهاب العالمي ومكانا لتصدير المخدرات ' والتي تشكل مصدرا من مصادر المشاكل الكبرى للعالم .

وإذا كانت الدول تختلف حول النهج السياسي للحركة وتتباين في رؤيتها للتشريعات الدينية الصادرة من طالبان ' فإن الملا وكيل احمد صرح بأن الحركة على استعداد كامل للتفاوض مع جميع دول العالم بما

فيها روسيا والولايات المتحدة والهند دون قيد أو شرط . كما أكد الملا بأنه قد تم الانتهاء من الترتيبات الضرورية للسماح للمرأة بمزاولة العمل في قطاعي التعليم والصحة وان قرارا بذلك سيصدر قريبا نظرا للضرورة الملحة . ونفهم أن الضرورة الملحة ليست إلا رسالة للعالم بأننا سنمضي قدما بالتخفيف من تشددنا السابق والذي اغضب الحلفاء والأصدقاء والعالم اجمع . بل والأكثر من ذلك خروج طالبان من عزلتها الدولية بضرورة الحوار غير المعلن حول تسليم بن لادن ومن معه . ولابد أن وقوع محاولة انقلابية في كابول في شهر سبتمبر المنصرم اعتبرتها الحركة " مؤامرة لزعزعة الأمن !! " ونحن لسنا بحاجة أن نعلق على تعبير زعزعة الأمن فكل أفغانستان لم تعرف الأمن منذ اكثر من عقدين .السيناريوهات جاهزة ومشروع ٦+٢ سيكون أرضية للحوار والتفاوض لإرساء أسس مستقبلية للمنطقة وتقف دول عظمى والأمم المتحدة في سبيل تمرير السيناريوهات المحتملة غير أن أفغانستان لن تظل هادئة ومستقرة إلا بحكومة ائتلافية تراعى فيها داخليا مراعاة مصالح التكوين العرقي والديني الأفغاني وخارجيا ضمان وحماية دول الجوار ومنحها نصيب من استثمارات ومشاريع المنطقة والتي بدأت تتشابك بأخطبوط الاستثمارات والأنابيب النفطية . خارج ذلك النموذج فإن طالبان لن تتمكن لوحدها حسم انتصاراتها منفردة وعليها أن تقدم تنازلات مصيرية تبدأ بمنظورها الإسلامي حول التطبيقات الشرعية وتنتهي بخلاصها من الورطة التاريخية وثمار الشعابين التي فقست منذ الغزو السوفيتي . وإذا كان الله قد صنع الشيطان وطرده من جنته لرفضه أوامره فإن الولايات المتحدة اكتشفت أن شيطانها خرج من القمقم واصبح عدوها الأول ولا بد من تركيعه وإعادته للقمقم فالأمن القومي الأمريكي بات مهددا من كهوف قندهار . وسبحان مغير الأحوال .

مؤتمر طهران .. المشكلة الأفغانية
هل تتجه نحو البلقنة ؟

لاحظ المراقبون في الأسابيع القليلة الماضية جولة ولاياتي وزير الخارجية الإيراني المكوكية لبعض البلدان الصديقة والمجاورة للحدود الأفغانية ' للتحضير لمؤتمر إقليمي لمناقشة المشكلة الأفغانية . وبهذا التحرك والتنظيم تبعث إيران برسالتها لمن يهمهم الأمر بأنها قوة إقليمية لا يمكن تخطيها أو تجاوزها في الشؤون الإقليمية . ونلاحظ ببساطة دلالات عميقة من خلال أسماء الدول الحاضرة لمؤتمر طهران ماذا تعني تلك الدول وهي الهند والصين وروسيا وإيران والسعودية ' والجمهوريات الإسلامية لآسيا الوسطى . وقد تم استثناء باكستان من حضور المؤتمر كواحدة من الدول الإقليمية البارزة مما يعنى بشكل غير مباشر' أن إيران توجه التهمة إلى باكستان كطرف متورط في الحرب الدائرة وإبعادها من المشاركة شرط هام تقتضيها ضرورات المؤتمر . وقد برزت في الأيام الأخيرة تصريحات رشيد دستم الذي قال انه عثر على وثائق تدين تورط باكستان المباشر في دعم حركة الطالبان ضد حكومة أفغانستان السابقة . ومن قراءة أسماء الدول المشاركة بما فيها السعودية كممثل لمؤتمر القمة الإسلامي وبحضور دول إقليمية كبيرة كالهند والصين وروسيا فإن طبيعة النقاشات ستدور في اتجاهات محددة

أهمها إيقاف مد حركة الطالبان ونزع فتيل الأخطار القادمة من استلام حركة طالبان السلطة كقوة سياسية متزمتة تحاول اغتصاب السلطة من الحكومة الشرعية السابقة .وهذا ما يؤكد تراجع وصمت الولايات المتحدة عن دعمها لحركة الطالبان عندما رأت انتهاكاتها الصارخة لحقوق الإنسان وحقوق المرأة بالذات . وسيناقش مؤتمر طهران اليوم في ٢٩ أكتوبر من عام ٩٦ وعلى مدار يومين و بجلوس كل الأطراف للحوار السياسي والبحث عن حل للمشكلة الأفغانية والتي سيراعي فيها الأخذ بعين النظر إلى التعددية الاثنية واللغوية والقومية .والرفض لسياسة التعنت الديني التي تطرحها حركة طالبان مع تأكيد الأطراف للتقاليد الإسلامية وتنوعها المذهبي في أفغانستان وضرورة إبداء سياسة التسامح الديني . كما سيتطرق المؤتمر إلى عدم تدخل البلدان الأخرى في دعم الأطراف المتصارعة في حرب أهلية طويلة لا تخدم أي طرف ووضع اتفاقيات تحترم سلام أفغانستان ووحدتها وتمزقها إلى دويلات شمال وجنوب . عدم محاولة بلقنة أفغانستان وخلق بوسنة جديدة مقسمة تحدد سياستها الدول العظمى بينما بالإمكان حل القضية الأفغانية إقليميا دون الحاجة إلى توسيع حجم الأطراف المشاركة في الصراع الأفغاني . إعطاء دور فاعل للأمم المتحدة كقوات تشرف على عملية حفظ السلام والعمليات الإنسانية في مناطق الصراع . وسيحاول المؤتمر الخروج بصيغة تشكيل لجنة تتابع القضية مع إمكانية الاختلاف بين الأطراف المجتمعة على نقاط في البيان الختامي من ضمنها إدانة باكستان والولايات المتحدة بشكل سافر ومباشر . وسيتطرق المجتمعون إلى ضرورة دعم أفغانستان اقتصاديا غير أن هناك قضية مهمة ينبغي التطرق لها ' غير إنها -ربما تؤجل- وهي الشروع في الانتخابات السياسية في أفغانستان ، وفي حالة عدم قبول الأطراف المتنازعة على التشكيل النسبي لبنية الدولة القادمة 'وعلى أساس التركيبة السكانية والاثنية في أفغانستان . ورفض حركة طالبان قرارت المؤتمر قد يؤدي إلى خيارات عسكرية إقليمية ومساعدات سخية تحسم

تعنت الحركة المتمردة عبر مساندة الحكومة الشرعية . كل تلك التصورات والسيناريوهات التي نطرحها قائمة 'وحسم الصراع عسكريا ليس نزهة في جادة نيفسكي كما يقول المثل الروسي ' غير انه ليس أمرا مستحيلا وان كانت تجربة تدخل الاتحاد السوفيتي المريرة ماثلة للعيان ولا تبعث على التفاؤل . ما يقلق المراقبين والمهتمين بشأن أفغانستان هو إخفاق الأطراف إلى تسوية مرضية والاحتكام إلى منطق القوة والتعصب ' مما يعني دخول أفغانستان المتاهات السوداء لحرب أهلية قد تطول إذ يمتلك الأطراف جميعهم الأسلحة والدعم الخارجي ماليا وعسكريا 'بل وصرح وزير داخلية باكستان حينما سئل في أحد المقابلات عن مدى دعم باكستان العسكري لحركة طالبان قال " إن أفغانستان لا تحتاج إلى تزويدها بالسلاح ففيها من السلاح الروسي الكثير منذ أيام الحرب مع الاتحاد السوفيتي" . كما يمتلك كل الأطراف العناصر البشرية للقتال ومعرفة جيدة بتضاريس وجغرافية المكان قتاليا . وفي أسوأ الحالات أن كل طرف قادر على التمترس الموضعي والجغرافي في منطقته والانتقال من الهجوم للدفاع والعكس ' بين قوة تتمركز في الجنوب وقوة تتمركز في الشمال تصبح العاصمة كابل نقطة الكر والفر ومعيارا للتوازن بين حالة التقدم أو التراجع في اتجاه الشمال أو الجنوب بين الطرفين المتحاربين . أما كيف سيضع المؤتمر وسائل وطرق لعزل الطالبان عن مؤيديها فهذا أمر من الصعب التكهن به ولا يمكن أيضا السيطرة عليه بسهولة . وتشكل البوابة الباكستانية أحد مفاتيح حل مشكلة أفغانستان وحسم الصراع في لاهور بين الاتجاهات المدنية والاتجاهات العسكرية في حكومة بنازير بوتو ' بين اتجاهات إسلامية متزمتة تدعم حركة طالبان واتجاهات عقلانية تطالب بعدم التدخل في الشأن الأفغاني والمساهمة مع الجميع في حل المشكلة الأفغانية المستفحلة . يظل للمؤتمر جولاته القادمة فإذا كانت القوى العظمى ترغب في استنزاف القوى الإقليمية في مواضع جغرافية معينة وبالذات إيران فإن فتح جبهة جديدة لها توجعها من خاصرتها أمر محتمل .

وتأتي رغبة الولايات المتحدة الأخيرة حول استئناف الحوار مع حكومة إيران بعد استلام كلينتون للإدارة الأمريكية في الانتخابات القادمة والذي ردت عليها إيران بالرفض مما يعني شكوك الطرف الإيراني بالرغبة الأمريكية الجادة معتبرين ذلك مجرد دعاية انتخابية تترافق متوازية مع عقد المؤتمر في طهران 'حيث لمعنى الرفض والرغبة أحيانا معاني مزدوجة يلعب بها الطرفان حسب اللحظة السياسية الحرجة سواء كانت اللعبة هناك في واشنطن أو في طهران ' فالجميع يدرك ماذا تعني الورقة الأفغانية ' ذلك الرديف الآخر لبوسنة آسيوية من الضروري قبرها بأسرع ما يمكن .

شمعدان الثورة الإسلامية
بين الظلامية والحرية .

مـا أن يحـدث صـخب او صـدام عنيف في الشـارع الإيراني إلا وتنبري الوكالات والصحف بالتحليلات المتنوعة والعديدة لكل ما يدور فيه وتبدأ الأقلام المتتبعة للشأن الإيراني أو الأقلام المتأثرة بالحدث السياسي الآني وحالة الغليان التي تموج بها المدن الإيرانية البارزة ' ونجد انقسـام حركـة الشـبيبـة والطلاب للطرفين المتصارعين والمتناقضين ' الاصلاحيون والمحافظون ونزولها للشوارع بدرجة ما في حالة يسودها توتر سياسي وعاطفي يقود في بعض الأحيان الى صدامات عنيفة يسقط من جرائها قتلى وجرحى كما حدث في احتجاجات الطلاب في شهر يوليو المنصرم ' وسميت بانتفاضة يوليـو . هذه المواجهة العنيفة في القاعدة ليست الا انعكاس مبطن ومكشوف لواقع الصراع بين القطبين الرئيسيين في الساحة السياسية الايرانية والتي ينضوي تحت لواها العديد من الاجنحة والجماعات والفرق والمؤسسات المعبرة عن حالة الصراع ' واذا ما شاهدنا ان الصراع السياسي بين النخب السياسية في السلطة يتمحور في الخطب التحريضية والبيانات ' فإن النخب الفكرية والثقافية للطرفين في مستويات عدة في بنية المجتمع يتحول بشكل واضح في

مدارات محددة ابرزها تظاهرات واحتجاجات الجامعات الكبرى والحوزات العلمية والمؤسسات الثقافية كالاذاعة والتليفزيون والصحف . تلك الادوات والوسائل الجماهيرية لدى الاصلاحيين تتحول في المواجهات اليومية الى حالة من التعبئة والشحن والتحريض المتواصل ' بهدف تعميق الوعي المجتمعي بأهمية حق المواطن الايراني في رؤية وقراءة الاحداث من بؤر ومناظير متعددة ' قد تربكه في البداية نتيجة الزخم الهائل من البيانات والبيانات المضادة ' من الخطب المنبرية والتصريحات ' ومن حجم ضخامة النشر والمطبوعات اليومية والاسبوعية ' ففيها جميعا يحتدم الصراع اليومي ويتشكل تارة بهدوء وتارة بمواجهات ' وتارة في القمة وتارة في المثلث الاجتماعي متماسا مع القاعدة الشعبية لاوسع قطاع من الشعب الايراني ' وفي اقصى الاقاليم والارياف . والذين يرون ظواهر الامور يستعجلون في قراءة تعقيدات البنية المجتمعية والسياسية والفكرية في ايران ' وجزء من هذه البنية وعواملها هو ان مرجعيتها تاريخية وجزء من تكوينها معاصر ومتحول وجديد يحتضنه جيل جديد وشاب يبحث عن هويته في عصر التحولات وثورة المعلومات . سؤال تطرحه الادبيات السياسية حول التحرر الثقافي في المجتمعات عندما يتساءل الانسان عن التغيير وضروراته وقوانينه . هذا التحدي التاريخي في لحظة التحولات في ايران قاعدته الحقيقية القوة الانتخابية الشابة التي وقفت مع خاتمي في انتخابات الرئاسة ' وتعتبر في الواقع الديمغرافي قوة صاعدة اذ يشكل ثلثي السكان في ايران في عمر الخامسة والعشرين . وبين تلك النسبة العالية يأتي الجيل الشاب الذي ولد مع الثورة وبعدها ولديه اسئلة كبرى لم تستطع المرحلة الاولى من ثورة الخميني تجاوزها ' اذ استنفذت الثورة مرحلتها الاولى وتكلست عند نقطة ما فكان لابد ان يولد مع ذلك الخيار التاريخي والصيرورة التاريخية وحتميتها خروج تيار من داخل الثورة يفرضه منطق التحول والتغيير فجاء خاتمي من خلف وامام التيار المحافظ الذي نما وترعرع فيه' وهو ليس فارسا هبط من السماء فجأة وبمعجزة !! . ما فعله خاتمي انه التقط الحلقة التاريخية في

تعثر الثورة ومشروعها المتجمد منذ سنوات في تابوت الشعارات الميتة ' وكانت حركة الثورة والجماهير في عقدها الاول قابلة للانتعاش بحقن مستعارة ' بعضها بدوافع خطر اعداء الثورة من الخارج ' وبعضها نابع من فلسفة داخلية لمفهوم تصدير الثورة 'في كلا المنطقين انحصرت الثورة ولم تستطع التمدد لا داخليا ولا خارجيا ' بل ولم تستطع قراءة الجيل الجديد وحاجاته وتطلعاته في زمن متسارع ومتداخل يهشم مفهوم العزلة والانكماش والخوف من الاخر وغزوه الثقافي . ما حدث لايران في السنوات المنصرمة – تعكسه النتائج- ايجابيات قليلة وشاحبة قدمتها الثورة كنموذج ' بينما راكمت الثورة مجموعة من التراجعات والسلبيات في الاداء الاقتصادي السيئ وهجرة الادمغة وموت الابداع وقمع الانسان وحرياته وحقوقه المدنية وانتهاك كرامته تحت مسميات وشعارات حماسية في بعض الاوقات ومضللة في اوقات اخرى حول ما يدور في العالم من متغيرات ' ويأتي التخبط السياسي كعنصر أساسي في توجهات الثورة التي غاب عنها خبرة الدولة المفككة التي سيرتها المؤسسة الدينية . هذا المشهد والواقع الداخلي هو الذي دفع بحصان خاتمي ان ينتقل من راية الثقافة الى حلبة السياسة تاركا الثقافي للخلف ' اذ وجد ان السلطة السياسية هي المشروع الاوسع والاهم في نقل ايران المحاصرة والضعيفة ' الى مكانة جديدة ' ايران العصرية والحديثة بهوية اسلامية وتحديثية ' فكان لابد من خوض معترك الانتخابات الرئاسية فهي وحدها مفتاح حل المشكلة ' وهي الخطوة الاولى للصعود لسلم السلطة لتحقيق مشروع التغيير ' وهو مشروع شائك وطويل ومعقد كتعقد ايران وموزاييكها الاجتماعي وارثها التاريخي وتطاحناتها السياسية والاقتصادية والدينية .

خطوة للامام .. خطوتين للوراء

قلنا ان مرحلة الثورة الخمينية الاولى استنفذت مهامها بالمعنى

السياسي والايديولوجي ' وانعكست تلك الحالة في واقع ايران الاقليمي والدولي اذ انعزلت تماما وواجهت حالة حصار وعدائية مع الاخرين نتيجة الممارسات الخاطئة لثورة فتية تقودها مؤسسة ثيوقراطية . في مثل هذه الظروف التي ورثها خاتمي كان لابد وان يقع على عاتقه عبء الموروث السياسي السابق ومراكز قواه ومؤسساته الغليظة والمؤسسات القضائية والإعلامية والفكرية وغيرها ' في وقت لمس فيه بشكل محسوس اهمية الشارع السياسي الايراني عبر صناديق الاقتراع ' هذه القوة الانتخابية انجذبت لمشروع خاتمي لانها وجدت فيه التعبير الحقيقي عن مشروعها المستقبلي والذي يهيأ واقع ومستقبل مختلف ' فاعترف الجانبين دون لقاء سابق بأنهما -أي القائد والشعب وفي مقدمته الجيل الجديد - يكملان بعضهما البعض في عملية نقل ايران للقرن القادم بشكل مختلف ' فقد دافع برنامج خاتمي الواضح عن كرامة المواطن الايراني واحترام الدستور وبناء دولة القانون واعطاء المجتمع حقوقا مدنية كاملة كحق التعبير والنقد والمكاشفة والشفافية .ذلك التركيز المدروس على المرحلة واحتياجات المجتمع الضرورية 'وتلك الادوات لم تكن نقاط برنامج سياسي جامد وميت وانما ' واقع حياتي تحول لعالم مؤثر كل يوم في الشارع الايراني وبدا يصيغ وعيا جديدا يتبلور ويخرج من بوتقة الافق الضيق والروح الشعارية والمنبرية . فتم في حينها تشريع قانون يخص حرية المطبوعات واصدارها فتدفقت الى الشارع الايراني كميات هائلة لم تهضمها معدته ولا وعيه الذي اعتاد قبل سنوات صحف مقولبة واحادية الرأي وتستنسخ افكارها وارائها من التيار المحافظ والسلطوي العائد لتلك المرحلة . فلم يستمع او يقرأ المواطن الايراني حالة نقد للحقيقة وللاخطاء وللممارسات البشعة لاجهزة الامن والاستخبارات ولا للتجاوزات القانونية والفساد الاداري والبيروقراطية الجوفاء . كل ذلك خرج للنور منطلقا في مرحلة خاتمي فكيف يسعى الظلاميون (وعلى رأسهم تقف المجموعة المتطرفة والمتشددة داخل التيار المحافظ) لايقاف تدفق النور كمعادل حقيقي للحرية . لابد من اصطياد الفراشات وهي

تحلق او اختـراقـهـا وقـتـلهـا في فراشـهـا نائمـة ' فـبـدت مـشـاريـع فكرة الاغتيالات والتهديدات تنطلق هنا وهناك وصلت اشاراتها للجميع ' كما هي ممارسات الماضي في خارج ايران ' تلتـهـا بعد ذلك فتوى اهدار دم سليمان رشدي وهلما جرا من تعديات على حقـوق الانسـان وتصفية المعارضة جسديا في الخارج . وبما ان الاصوات المنادية بالتغيير وبتنحية مواقع المحافظين في الداخل فإن مشاريع التصفيات تنتقل الى الداخل ايضا ولابد من اعداد فرقا للقتل اذا ما انهزمت في الشارع العام .

خطوتين للامام وخطوة للخلف

في زمن المواجهة والصراع اليومي السلمي في المجتمع ' لا تبدو حركة الحياة الهادئة في ايران عنيفة ' وهي مثل أي مجتمع يتحرك ويتبدل وينمو تارة بسرعة وتارة ببطء شديد ' هكذا تنمو وتنضج جدلية الحياة ' وجدلية الافكار وحدها تأخذ شكلا ابطأ ' وصراعها يتجلى في مجالات عدة ' شاهدها العالم في ايران في ثلاث ضربات قاصمة للتيار المحافظ ، الضربة الاولى في صعود خاتمي لسدة الرئاسة وكان ذلك مؤشرا لحركة التغيير وهي في تكونها الجنيني ' بعد سنوات قليلة جدا كانت الضربة الثانية في نتائج انتخابات المجالس البلدية ' ثم جاءت الضربة الثالثة الاخيرة في انتخابات المجلس التشريعي في فبراير المنصرم . تلك الضربات الموجعة للتيار المحافظ هزت له توازنه بشكل عميق ' وخصوصا انه بدأ يستعرض نتائج الضربات والخسائر الفادحة والممكنة والاخذة في التزايد فوجدها كامنة في اخطبوط واحد يغض مضجعها ليلا نهارا الا وهو الصحافة ذلك الشيطان الاعظم والاكبر' فهو وحده من جعل الاصلاحيين يتقدمون خطوتين للامام بينما نجح المحافظين بعرقلة حركة الاصلاح بسجن عبدالله نوري وكرباستشي وغيرهم ممن لعبوا دورا كبيرا في دفع وتغيير نتائج الانتخابات الرئاسية والبلديات . ترى من الذي

أثر وغير نتائج الانتخابات الرئاسية والبلدية والتشريعية وقذف بتيار المحافظين " للوراء ثلاث خطوات للخلف ؟!"بينما تحرك الاصلاحيون للامام خطوتين ' على امل ان يخطو مستقبلا خطوات عدة وسريعة وواسعة اكثر مما يتوقع المحافظين . الطامة الكبرى كانت الانتخابات التشريعية الاخيرة فقد جاءت النتائج قاصمة لظهر البعير' هنا قامت قيامة الذين خسروا مقاعدهم البرلمانية فهي اولا مواقع ذات امتيازات شخصية وثانيا انهم سيخسرون سياسيا ودينيا امكانية صياغة وطبخ صناعة القرار السياسي والمؤثر على سلطة الحكم . اذن لابد من العودة للمعارك الطاحنة في اهم القلاع التي استولى عليها الاصلاحيين ' وخصوصا انهم ظلوا مطمئنين لأنهم يسيطرون على محطة التلفزيون والاذاعة وهما قلعتان مهمتان من معاقل المحافظين ' بينما خرجت من تحت عباءتهم وسلطتهم المطبوعات والنشر وعالم الصحافة . ففي هذه المرحلة القصيرة خرجت للنور صحف ومجلات عديدة اسبوعية ويومية ونصف شهرية ' بثت افكارها غير المستساغة والتخريبية والمدسوسة من اعداء الخارج حتى تحولت صحافة الاصلاحيين " الشيطان الاعظم " .

الصحافة الشيطان الاعظم

في كل لحظة تمر فيها ايران بمتغير جديد نحو التغيير والتقدم يتم توجيه الاتهام الى الصحافة واصحاب القلم الشرفاء ' فالمحافظين لا يحتملون النقد الذي يوجع في المفاصل الاساسية ' وتحديدا عندما يتم المكاشفة عن حقائق وممارسات المؤسسات الدينية ورجالاتها ' ودورهم من وراء الكواليس في عرقلة التطور لمشاريع الرئيس الاصلاحية ' بل والذهاب باكثر من ذلك تهديد الاصلاحيين " بكواتم الصوت " بالمعنى المجازي والفعلي حينما تبدأ اقلام الصحافيين بمس حالة الفساد والمتنفذين في الاجهزة وبضرورة فتح ملفات التحقيق . ويتصاعد اكثر عندما تقترب شفافية الصحافة من مسألتين اساسيتين الاولى بضرورة

تقليص وعزل ' بل وفصل الدين عن الدولة -وهنا تقوم قيامة المحافظين- والمسألة الثانية بضرورة التحرير الثقافي بمعناه الواسع والشامل بحيث يمس حياة الفرد في ملابسه ونمط معيشته وحياته وذوقه وتوجهاته الثقافية فهو مواطن من حقه ان يستمع للموسيقى مهما كان نوعها ويقرأ كتبا تعارض توجهات فكر المحافظين ونمطيتهم الجامدة ' مثل تلك الطروحات لاتغيظ المحافظين وحسب ' بل وتخرجهم عن صوابهم لأنهم يدركون ان تلك المطالب تصب في العمق الاستراتيجي اولا بتقليم اظافرهم على المدى القصير ' وتجريدهم وعزلهم على المدى الطويل ' وكما يقولون ان صاحب المصلحة ادرى بما يدور حوله من تكتيك واستراتيجية ' فإنه بعد ذلك يبدأ في الاستعداد للدخول في معركة كبرى ' اذ بدا ناقوس الخطر يدق بقوة وبدأت القلاع تضيع وتسقط من يدهم قلعة بعد قلعة . وبما انهم يمتلكون قلعة حصينة اسمها القضاء فإنهم تحركوا خلف ظلالها فاصدروا قرارا باغلاق صحيفة الصباح في مايو-يوليو المنصرم وسجنوا عبدالله نوري وكرباستشي باعتبارهم النموذج الصارخ لهزيمتهم وباعتبار الاثنين مهندسين لخسارة المحافظين في نتائج البلديات وقبلها انتخابات الرئاسة . ومع خطوة اغلاق جريدة " صباح " ' وكان من قبل حظرت في الخامس من سبتمبر ١٩٩٩ صحيفة " نشاط " فإن شرارة الغضب الطلابي لابد وان تنطلق احتجاجا على كتم الانفاس وتكميم الافواه فحدثت " انتفاضة يوليو الطلابية " فماذا رشح عنها كمقدمة لصدام اولى وامتحان صغير لمعارك صغيرة ؟!

ستة ايام هزت ايران .

نستعير هنا عنوان كتاب جون ريد " عشرة ايام هزت العالم " وهو كتاب يتحدث عن تجربة صحافي امريكي كان شاهد عيان للايام الاولى لثورة اكتوبر الروسية عام ١٩١٧ ' اما من شهد احتجاجات الطلاب في جامعات ايران ومن أبرزهم جامعة طهران واقتحام الحرس الثوري

ورجالات الامن على الطلاب في مضاجعهم وانتهاك حرم الجامعة وقدسيته ' وسقوط عدد كبير من الجرحى وموت بعضهم وتحول القضية الى ازمة سياسية بين التيارين في قمة النخبة السياسية ' وتقديم الطلبة بصفتهم مخربين وبعقوبات تصل حالة الاعدام ' جعل الوضع -رغم احتوائه - هادئا من حيث الظاهر ' وكانت لعبة شد الحبل بين الطرفين متأرجحة استلزمت " استراتيجية التهدئة " غير ان الرئيس فتح نيرانه على تجاوزات صلاحية الحرس الثوري وبضرورة التحقيق مع رجالات في الامن والشرطة والاستخبارات لمعرفة من يقف وراء التصعيد الطلابي ومن يحاول استثمار واستغلال تلك السلوكيات المتطرفة من قبل الاصلاحيين ليجيرها لصالحه . لم تكن صدامات يوليو بين طلاب وشبيبة محافظة واصلاحية ' وانما تعبيرا صارخا عن حلقات متواصلة من المعارك الصغيرة والخفية ' فاذا كان اغلاق صحيفتي صباح ونشاط بسبب انهما تفضحان وتناديان بضرورة كشف ملف اغتيالات المثقفين والمفكرين والصحفيين في اواخر ١٩٩٨ فإن غليان الطلاب جاء احتجاجا مركبا اولا تعاطفا مع ما تكتبه الصحف من حقائق ' وثانيا غضبا بما فعلته سلطة القضاء المحافظ باغلاق صحيفة صباح ' المعبرة عن تطلعات واحلام واراء الجيل الجديد وتوجهات الرئيس الاصلاحية . هذه الايام انتهت محاكمة طلاب احداث يوليو بسجنهم خمسة عشر عاما ' غير ان الذي لم ينته فعلا هو ان الاحداث الطلابية جعلت من الناخب الايراني يصب غضبه حيال المحافظين في الانتخابات التشريعية في فبراير ٢٠٠٠ م هكذا دفعت عجلة الصراع التحتي والفوقي ' النخب في الاعلى والشارع في القاعدة الى الدخول الى مرحلة جديدة من الصراع كان لابد وان يدفع بالمحافظين المهيمنين على سلطة القضاء ومحاكم الثورة !! للانتقام من الصحافة ورجالاتها بالجملة باعتبارها الشيطان الاعظم ' الذي تسلل الى الداخل او كما صوره في تصريحاته وخطبه مرشد الثورة خامئني " بقاعدة للعدو " فحدثت عملية مصادرة ١٧ عشر مطبوع يومي واسبوعي وذهب للسجن مدراء التحرير والصحافيين من امثال لطيف صفدي

(صغري) واكبر غانجي وماشاءالله شمس الدين الواعظيين وعماد الدين باقي ' كل اولئك بدأت محنتهم منذ صعود خاتمي للرئاسة وانتشار حرية التعبير والصحافة الحرة ' و لم تكن الاحكام قاسية وحسب ' بل وجردتهم من حق العمل الصحافي لمدد تناهز الخمس سنوات ' ولو تمعنا بطبيعة الاحكام ومن طبيعة التهم الموجهة ومن نفذ حكم القضاء لرأينا ان تيار المحافظين كان وراء تلك الحالة الهستيرية . وخصوصا حاول ان يردد للاستهلاك الداخلي ان التهم تصب في خانة مساسهم لرجالات الدين والمؤسسة الدينية والاسلام ' بينما لم يستطيع قول الحقيقة للشارع بأن نتائج الانتخابات التشريعية هي الوجع الحقيقي للتيار المحافظ برمته فانتخابات الرئاسة سلبت منهم المشروع السياسي الاستراتيجي بينما الانتخابات التشريعية ستكون تحولا اكبر من حيث تمرير المشاريع الاقتصادية والسياسية والقوانين المتعلقة بها ' مما يعني فقدان السيطرة على عرقلة الاصلاحات التي ينوي خاتمي تنفيذها خطوة خطوة . ولكي يتم عزل خاتمي عن دائرة تحيطه وتدعمه كالصحافة والمثقفين ' والذين يجيشون الجيل الجديد لصالح الرئيس ' وهم يتحركون كبديل نشط وواسع عن الاحزاب الغائبة والمنغلقة والمحدودة في حركتها ' كان لابد من احداث "مذبحة تعليق الصحف" التابعة للاصلاحيين والانتقال فورا الى خطوة اخرى هو انتزاع المهندسان الفعليان من مواقعهم في قلعة هامة من قلاع الاصلاحيين هما عطاء الله مهاجراني وزير الثقافة وعبدالواحد موسى لاري وزير الداخلية ' اذ قبل ان يغادر المحافظين مقاعدهم ويخلوها للنواب الجدد في الدورة القادمة من شهر مايو فإنهم لابد وان يحاولوا ان يستجوبوا المهندسين لاقصائهما من منصبيهما الوزاريين بحجة ان مهاجراني يقف وراء ما تشهده البلاد من صراعات بسبب دفعه للصحف الاصلاحية لمهاجمة اركان النظام . أما وزير الداخلية فهناك ثأر كبير للمحافظين عليه لأنه يعتبر المتسبب الرئيسي في انتكاساتهم الانتخابية . هذا النزوع العدواني ليس صدفة ' سواء بالهجوم على الصحافة او على رجالاتها او بمحاولة اجتثاث مراكز القوى الفعلية كوزير

الثقافة والاعلام ووزير الداخلية من حقائب وزارية اساسية . تجاه فلسفة الهجوم المباغت والمكشوف في أن واحد من قبل المحافظين ماذا ينبغي على الاصلاحيين فعله ؟ وماهو السبيل لتجنب العنف والفوضى في ايران ودخولها في دوامة من الاضطرابات تدفع البلاد الى حالة الطوارئ وتعليق الحياة النيابية ؟ وخصوصا ان مؤشر هجوم المحافظين بدأ بعملية محاولة اغتيال سعيد هاجريان في الثاني عشر من مارس عقب هزيمة المحافظين الكبرى في الانتخابات التشريعية . فاذا كانت اغتيالات المثقفين في اواخر ١٩٩٨ جاءت كنتيجة لنجاحات خاتمي في الوصول الى الرئاسة وانتعاش مناخ الحريات وقيادة اولئك المثقفين لمثل تلك الاجواء ' فإن محاولة اغتيال هاجريان خطوة مكملة للحلقة ذاتها ' فهو المهندس الاخر لمرحلة الانتخابات التشريعية ولا بد من ازاحته وكما قال سعيد أصغر المتهم بمحاولة اغتيال هاجريان اثناء محاكمته عن دافع اغتياله : " إن هذا المنظر الاصلاحي يشجع على الفساد لكنه نفى ان يكون قد حصل على أية فتوى دينية تبيح له القيام بهذا العمل " . وفساد الاصلاحيين معروف لدى التيار المحافظ ينحصر في ماذا واين ؟ ولكن المهم حاليا هو لماذا تم اختيار هاجريان في هذه اللحظة والاهم كذلك انتزاع اعترافات من المجموعة الموقوفة الثمانية إذا ما- كانت ترتبط بفرق الموت ' والموجهة اصابع الاتهام اليها ' وزاد الشك حولها بالخصوص بعد انتحار امامي بعد اعتقاله بتهمة تورطه في اغتيال المثقفين في اواخر ١٩٩٨م . اليوم تهز ايران ثلاث حالات الاولى محاولة اغتيال هاجريان وتطورات المحاكمة والثانية تحول المحافظين مؤخرا الى حالة الهجوم الشرس بعد تعليقهم مطبوعات وصحف الاصلاحيين وزجهم بالسجون والثالثة محاولة محاكمة الذين حضروا مؤتمر برلين .

مؤتمر برلين .. وقميص عثمان التاريخي .

كان لابد للمحافظين من أن يحركوا أية اوراق تدين - حسب

وجهة نظرهم - خصومهم الاصلاحيين ' فلم يجدوا قميصا تاريخيا يرتدونه للاتهام إلا قميص عثمان فذلك اجدى للاستهلاك الداخلي ' ويكون اكثر فاعلا اذا تم مهاجمة المؤتمر من وجهة نظر اخلاقية . وبما ان المحافظين لازالوا مثخنين من اثار جراح الانتخابات التشريعية 'فإن أعدادهم للهجوم المرتقب على الاصلاحيين يجب ان يتمحور في المفاصل الاساسية كما قلنا سابقا ' في الصحافة والمثقفين ورموزهم الاصلاحية ' ولم يكن مؤتمر برلين إلا حجة أو حق يراد به باطل ' اذ لم يذهب الاصلاحيون للرقص في برلين ' كم فعل مهندسو التليفزيون في طهران والمسيطر عليه تيار المحافظين 'فقد ابرزوا في الشريط المعروض " المرأة العارية " واين في الكتفين !! " وهي ترقص في قاعة المؤتمر ' وتخيلوا حجم قاعات الفنادق ' وحجم الجالية الايرانية التي تعيش في المهجر/برلين ' ولها الحق في العيش بنمط حياتها خارج ايران طالما قررت العيش في الغرب منذ وقت يفوق احيانا عمر الثورة الايرانية 'ففي المانيا جالية ايرانية منذ حقبة الشاه ' وبما ان ذلك ليس هو بيت القصيد 'فإن التليفزيون لم ينقل فاعليات المؤتمر والذي عنوانه " ايران بعد الانتخابات " فقد قال طه هاشمي رئيس مجلس الاشراف على التليفزيون الحكومي لوكالة الانباء الايرانية :" لقد تم تجاهل القضايا المهمة التي نوقشت في الندوة " . لانريد ان نستعجل ونقول ان الجواسيس المتشددين الذين نقلوا ندوة برلين " كانوا يعرفون ان الاصلاحيين لم يحضروا ندوات خارجية لاول مرة وانما كانوا يحضرون على الدوام منذ صعود محمد خاتمي للسلطة ' وهم يدركون ان مركز الحوار العالمي ومقره قبرص ويديره الاصلاحيون 'فإن المتشددين يعرفون كل شيئ عن ندوة قبرص وباريس فلماذا الاهتمام حاليا بندوة برلين !! والتي كانت اساسا تعريف العالم الخارجي بالنهج الاصلاحي في ايران والاسهام في نهاية المطاف في تحسين العلاقات بين حكومة خاتمي ودول العالم " . وهو في الواقع تكملة للندوات السابقة وسلسلة من اللقاءات الخارجية المستمرة ' التي تحاول ان تسوق ايران لدى المؤسسات

الاستثمارية الخاصة دون تأثير سياسات دولها عليها ' كما انها تسعى لتبديد الشك والمخاوف السابقة تجاه ايران ' وبتوضيح توجهات خاتمي الجديدة حيال الدول والشعوب والثقافات من اجل تجسير العلاقات وبناء الثقة على اساس حوار الحضارات ' وهو اول من رد على الغرب واطروحة هنتغتون حول مسألة صراع الحضارات وعن امكانية حوار الحضارات مهما تباينت في تكويناتها واختلافاتها . اليوم يحاول المحافظين الاصطياد في الماء العكر لغايات محددة وواضحة ' نوجزها في ثلاثة سيناريوهات محتملة ، السيناريو الاول ان يتم الهجوم على مواقع المحافظين الاساسية برموزها تتمحور في الصحافة والاغتيالات والسجن والتشويه الاعلامي وبلبلة الشارع السياسي في ايران . السيناريو الثاني يكمن في اذا نجحت الاجراءات التعسفية في تكميم وانكماش التيار الاصلاحي فإن ذلك قد يحقق لها نتائج افضل في الانتخابات التكميلية مما يساعدها على توصيل عناصر من المحافظين يغيرون من نسبة البرلمان وخصوصا ان هناك محاولة لتعطيل نتائج الانتخابات في بعض المناطق بما فيها طهران ' واذا هاج الاصلاحيون للاجراءات المتخذة بحقهم ووقعوا في فخ العنف والاضطرابات 'فإن ذلك يحقق لهم فرصة التصعيد ونقل البلاد الى حالة الطوارئ مما يعنى امكانية تعليق الحياة النيابية ' وهذا ما يسرهم كثيرا فهم يفضلون ادارة البلاد وفق الاطارات القديمة 'بينما يخشون من الانتخابات التشريعية القادمة سحب صلاحيات كثيرة منهم والغاء قوانين وتشريعات صوتوا عليها في السابق . أما السيناريو الثالث محاولة ايقاف التدهور في صفوف المحافظين وتراجع الشارع السياسي عنه وقد تبين بوضوح في الانتخابات الثلاثة (الرئاسية والبلدية والتشريعية) فإن الهجوم الذي شنوه يدفع بالطرف الاخر ورموزه ابتداء من الرئيس خاتمي الى المؤسسات التابعة للمجتمع المدني والصحافة بالتوقف عن الهجوم ضد التيار المحافظ ' وبذلك يحققون ايقاف حالة المزيد من التدهور ' وبمعنى سياسي ادق الوصول الى صيغة للمساومة بين التيارين في تحجيم

الصراعات المؤثرة على الرأي العام . ويأتي اظهار استعراض القوة الاخير ' سواء بمصادرة الصحف وسجن الصحافيين والمثقفين ' او بالهجوم على مؤتمر برلين باعتباره حلقة تصب في النشاط المكمل للاصلاحيين على المستوى الخارجي ' والذي يقوي من جناح الاصلاحيين في الخارج ويحجم ويحاصر تيار المحافظين دوليا .واخيرا – وهو المهم – ايقاف النبش والتنقيب عن سر الاغتيالات ومن يقف ورائها فهي اذا ما تواصلت بالعمق فإنها قد تقود الى فضيحة سياسية داخل التيار المحافظ خيوطه ربما تمتد من سراديب قم الى اروقة سجون طهران المرعبة . واذا ما انكشفت تلك الخيوط ' وتبين ان تيار المحافظين متورط فيها ' فإن ذلك سيكون بمثابة الضربة القاصمة لسمعة مرشد الثورة ورجالات الدين الذين يحاولون ان يكونوا فوق الصراع وخارجه لكونهم الرموز التي تمثل الامة واجماعها الديني ومرجعيته ' وخصوصا ان هناك رموز في التيار المحافظ من رجالات الدين مع التوجهات الاصلاحية للرئيس خاتمي ' ومع تعميق التجربة الديمقراطية واحترام الدستور في الجمهورية الاسلامية ' وتدعو الى الحوار السياسي وكشف الاخطاء بشكل قانوني ومؤسساتي ' فهو المشروع الوحيد الذي يحمي الدولة والمجتمع من الانتقال للمواجهات العنيفة وتدمير الانجازات والمشاريع التحديثية المنتظرة بجعل ايران المستقبل قوة اقليمية مؤثرة . وفي كل الحالات فإن تكتيك المحافظين لجر الاصلاحيين للتصعيد لن ينجح اذ يعي الجميع لماذا كل هذه الاجراءات الان ؟ ولماذا توقيت التصعيد بالتحديد . من هنا وصلت عبر رسالة خاتمي للشارع الايراني التزام " استراتيجية التهدئة " والتضامن ' وعلى الاصلاحيين تكملة مشوارهم الذي سيواصله وخير رد على ذلك صناديق الاقتراع في الايام القادمة ' وهو بذلك ينقل التوتر من حالة الفلتان الى الصدام السياسي السلمي والمختلف والشرعي عبر المؤسسة الدستورية التي قبل بها الشعب . وستعبر عن نفسها تتانج الانتخابات المقبلة والتكميلية ' الى جانب استمرار الاصلاحيين استعدادهم للدورة التشريعية القادمة في نقل وتنفيذ المشروع الاصلاحي

الذي صمم خاتمي على تنفيذه ' بل وستكون انجازات المجلس التشريعي القادم الارضية والفضاء الذي سيضع اسس نجاحات خاتمي في انتخابات الرئاسة القادمة بعد سنة ونصف تقريبا . من يراقب بروية الثنائية القطبية في الجمهورية الاسلامية ايران ما بين خامنئي -وخاتمي ' ما بين مراكز السلطة الروحية والسياسية ' قم وطهران ' وواقع التعادلية والتوازن والتناقض بينهما ' ورصد بعمق كل الخطب والبيانات والاجراءات ومراكز القوى المتصارعة في الاعلى والاسفل لادرك ان كل ما يدور في الساحة السياسية في ايران مرتبط بحقيقة تسمى " وعي الصراع " بين الجميع ' وعي الصراع بمداه القصير والاستراتيجي ' فرغبة التغيير واحلام الناس لا تقف عند حدود حرية التعبير والكلام وحسب ' بل والحريات الشخصية والاجتماعية والثقافية ' فهي اولا واخيرا تمس حق الانسان وكرامته في الحياة باختيار ما يناسبه دون تدخل ارادة البشر على الارض بحجة الوصايا العشر ' وان كل رجل دين منح نفسه حقا سماويا تجاوز صلاحياته في الارض ' وبذلك يختلط الامرين وتتصارع القيم والمفاهيم في داخل سلطتين متنافرتين تحاول ايران مزاوجتهما ' في زمن برهن التاريخ الانساني ان حصانين يركضان في اتجاهين متعاكسين يوقف حركة العربة ' أو كما يقولون التجديف في القارب من الافضل ان يكون بشخص واحد واذا ما كانا اثنان او جماعة فإن التجديف يجب ان يكون في اتجاه واحد والا توقف القارب في النهر . هل يستطيعان خامنئي وخاتمي التجديف معا بقارب ايران نحو التحديث الى وقت أطول ؟ ام يتم تحديد صلاحيات القرار المركزي حول التناقض بين مرجعية السلطة الروحية /الدينية والسلطة السياسية ، فلا يجوز من شخص انتخبه الشعب ان يكون شخصا آخر يحدد صلاحياته وترشيحه وهو شخص لم ينتخبه الشعب ، باعتبار ان سلطة الشعب هي اكبر سلطة في المجتمع بينما ولاية الفقيه ، كسلطة روحية ودينية تمنح نفسها سلطة مستمدة من خارج ارادة الشعب . مثل هذا التناقض لابد وان يصطدم يوما ما ' وكل ما يتم الان تجاوزه ليس الا مرحلة تعتبره

ايرانِ خاتمي موضوعا لا يجب الالتفات اليه ' فهناك اولويات وضروات اهمها الديمقراطية والمجتمع المدني وتجذيره وتعميقه وحمايته للاجيال القادمة فهو وحده صمام الامان لايران القادمة . هل يراهن خاتمي ان الجيش هو سلاح حماية النظام من المحافظين وقوة فوق الصراعات لتأكيد الشرعية ؟ هذا ما حاول خاتمي في خطبة يوم الجيش أن يقوله للذين يهمهم الامر في الحرس الثوري ومن شمروا عن سواعدهم يعرضون عضلاتهم الرخوة في زمن الكلمة الحرة .

الإيرانيون اليهود ..
ورقة ضغط ضد خاتمي

في أواخر شهر أغسطس من العام ١٩٩٩ بدأت محاكمة ثلاثة عشر يهوديا ينحدرون من أصول إيرانية ' كان قد تم القبض عليهم في شهر مارس بمدينة شيراز جنوب البلاد لاتهامهم بالتجسس لصالح كل من إسرائيل والولايات المتحدة . في تلك الفترة قامت الدنيا ولم تقعد في الغرب والولايات المتحدة وإسرائيل مما أثار غضب الحكومة الإيرانية واعتبرته تدخلا في شؤونها الداخلية ' مثلما عبر عنه في حينه خرازي وزير الخارجية الإيراني بقوله عن تلك التدخلات " بأنها تستهدف السيادة الإيرانية فيما يتعلق بالتحقيق في قضية تتعلق بالأمن القومي " . ولكي تطمئن الحكومة الإيرانية الآخرين ' الذين فتحوا وابل محطاتهم وأعلامهم عليها " ووعدت بإجراء محاكمة نزيهة وعادلة . ولم تصمت إيران عن الضغينة الإعلامية الموجهة إليها من جراء اعتقال إيرانيون بديانة مختلفة ' فتلك مسألة لا يجوز الخلط فيها ' وتحويلها إلى ورقة دعائية ومضادة لحقوق الاقليات في إيران ' هكذا فهمت إيران ما يدور وراء الكواليس ' ومن هو المايسترو الحقيقي لإشعال الحرب الباردة ضدها ' ولذلك أكدت مرارا حكومة خاتمي أن إلقاء القبض على اليهود الثلاثة

عشر لا علاقة له بدينهم ' وانه لن يطبق عليهم سوى أحكام القانون الإيراني الذي ينطبق على أي أحد بغض النظر عن أصله أو ديانته . من هنا نفهم لماذا قامت الدنيا ولم تقعد في الخارج ' إذ تم تصوير محاكمة الإيرانيين اليهود وفق محاكم التفتيش ' وبأنهم سيتعرضون لأحكام الشريعة الإسلامية وقصاصها القاسي !! وفق منظورهم ' بل وان حكم الإعدام بانتظارهم لا محالة ' حيث أن المحاكم والقضاء يسيطر عليها الجماعات المحافظة 'وهي التيار الأكثر تشددا حيال الاقليات الدينية والعرقية . هكذا تم تصوير المشهد من داخل إيران فقد اتهم أحد أفراد الطائفة اليهودية في إيران السلطات باجتثاث شواهد القبور في مقبرة يهودية في مدينة مشهد بالبلدوزر !! ' والغريب أن ذلك الخبر صادر من راديو إسرائيل حسبما نقلته وكالات الأنباء بالتزامن مع وقت المحاكمة قبل عام !! ' وترافق ذلك الاعتقال والمحاكمة مع الفترة نفسها التي كان يحاكم فيها التاجر الألماني هيلموت هوفر بتهمة الزنا مع امرأة إيرانية . وبما أن سابقة هوفر في إيران شكلت واحدة من تهم التجسس تجاه الأجانب ' كما أن حكم الإعدام بحقه بسبب الزنا تركت بصمات سلبية على الرأي العام الغربي . ومع ذلك فإن المحكمة العليا رفضت تأييد الحكم لفقدان الأدلة وسمحت بإعادة المحاكمة . وجاء اعتقال هوفر على اثر اعتقال السلطات الألمانية المواطن الإيراني حميد خرسند الذي أدين بأنشطة جاسوسية ضد المعارضين الإيرانيين لصالح السلطات في طهران . وتمخض عن تلك المسألة ' وتراشق الادعاءات والحرب الإعلامية بين طهران وبرلين ' حيث أشارت أوساط مراقبة أن الحكومة الألمانية تعتزم مبادلة خرسند ومواطن أيراني آخر هو كاظم دارابي المعتقل منذ اكثر من سبع سنوات بتهمة اغتيال معارضين أكراد في برلين بهوفر .

وانشغل العالم بما يدور في إيران من أحداث ساخنة كاغتيالات المثقفين ' وصدامات الطلبة في الجامعات ' وغليان الشارع الإيراني واستعداده للانتخابات النيابية والبلدية ' وهزة المجتمع من معركة الصحافة والإعلام

' ومذبحة الصحف المعروفة ' حيث أغلقت اكثر من أربعة عشر صحيفة يومية ومجلة أسبوعية ' كل تلك الأحداث ' جعلت من قضية الجواسيس الإيرانيين اليهود قضية واحدة ضمن عشرات القضايا المتوترة والحبلى بها الساحة الإيرانية ' بينما كان الشغل الشاغل لإسرائيل والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة ' مواصلة الضغط الشديد على حكومة خاتمي ' لكي لا تعرض حياة " الجواسيس " لحكم الإعدام . ولم تكن تلك الدول يهمها إعلاميا في شن حملة تضامن ودفاع عن موضوع الإعدام لأشخاص يعيشون في إيران ' أو إيرانيون " غير يهود !!" . وأناطت إسرائيل اللثام عن حقيقة كونها مدافعا عن " اليهود " مهما كانت نوعية مواطنيتهم 'فإن تكون يهوديا أولا هو المهم ' أما ما هي نوع مواطنيتك فتلك قضية ليست مهمة . هذا الموقف الفاضح لسلوك إسرائيل في دس انفها في التدخل لمجموعات ينتمون لبلدان أخرى ' لمجرد انهم يهود !! يصبح علامة سؤال واستفهام كبيرتين ! ماذا ستعمل إسرائيل حيال مواطنيها الذين يرتكبون جرائم وجنايات في حق دول أخرى ' سواء كونهم " إسرائيليون " زاروا تلك البلدان ومارسوا أعمال تخل بالقوانين أو مواطنين يهود يحملون جنسية دول أخرى وقاموا بممارسات مخلة بالأمن والقانون في الأماكن التي زاروها . هل ترفع إسرائيل عقيرتها في الدفاع عن جرائم مواطنيها وتجسسهم ' أم أنها معنية في الدفاع عن جواسيسها اليهود ؟ هل تدافع إسرائيل عن انتهاكات حقوق اليهود كمواطنين دول أخرى أو كيهود وحسب منصبة نفسها " كدولة يهودية عالمية " معنية بشؤون اليهود مهما كانت جنسياتهم دون مراعاة السيادة والانتماء للوطن . سنفهم لو أن إيران أو أي بلد أخر انتهك الحقوق الدينية لأية طائفة أخرى –وليس اليهود وحدهم كشعب الله المختار!! – فإن منظمات الحقوق المدنية الدولية لها حق الاحتجاج وتجيش العالم ضد تلك الخروقات ' بينما يعرف الجميع كيف تتجسس إسرائيل على خلق الله في سويسرا وبريطانيا وقبرص والأردن – وهذه الأيام التجسس سيكون بحجة مطاردة الإرهاب !- بل وتخطف

جواسيس إسرائيليين من بلدان وسجون أخرى وتحضرهم إلى إسرائيل ' وتحكمهم أحكام قاسية . بينما إيران تمنح الطائفة اليهودية ' والتي يبلغ عددها ٣٥ ألف يهودي في عموم إيران ' ممثلا في البرلمان وحقوق التمتع بكل ما يتمتع به المواطن الإيراني على قدم المساواة ' بما فيها حرية السفر للخارج باستثناء إسرائيل وهو ما ينطبق حاله على الإيرانيين أيضا . ويبدو أن تصعيد الحملة على محاكمة اليهود نجحت إلى درجة ما ' فقد شكلت ماكينة الإعلام الضروس نافذة قوية لجعل حكومة خاتمي تعيد النظر في ملف المحاكمة ' وتسلم الملف لقضاة معتدلين ' في إمكانهم أن يخففوا حكم الإعدام على الجواسيس ' الذين اعترفوا بجرمهم إلى سنوات تراوحت ما بين أربعة سنوات وثلاثة عشرة سنة . وتفحصت ما ورد في الصحافة ووكالات الأنباء فلم أجد أن المتهمين انتزعت منهم الاعترافات بالقوة ' مقابل اعترافهم انهم " كانوا جزء من شبكة تجسس لصالح إسرائيل ' وتعمل منذ عشرين عاما في شيراز واصفهان ' ومتخصصة في جمع المعلومات العسكرية ' وان الشبكة أسسها قبل الثورة اسحق الزعيم الديني ليهود شيراز قبل أن يغادر إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٩١ ' وان الحاخام وأستاذ اللغات آشير زادمهير استبدل باسحق " . ولو تأملنا حكاية الجواسيس الإيرانيون اليهود " في أي بقعة من العالم ' وإذا ما كانت الحكاية حقيقية ودون افتراء أو كذب وادعاء حسبما تتقاذفه الأطراف المتنازعة ' فإن على إسرائيل والعالم الحر أن يكون راضيا وواقعيا بعدالة الحكم ' على شبكة ظلت تتجسس لعقدين من الزمان . وخير من عبر عن تلك الأحكام محامي الدفاع عن المتهمين إسماعيل ناصري الذي " شعر بسعادة لأنه لم يحكم على أحد من المتهمين بالإعدام ' وانه واثق من أن هذه الأحكام ستخفف أمام محكمة الاستئناف " . هذا التصريح يجب أن نربطه بجانبين مهمين ' هو التعويل على احتمال الاستئناف أن يخفف العقوبة إلى النصف ' وخصوصا أن النائب اليهودي في مجلس الشورى قال " إن اليهود الإيرانيين " مصدومون " لأن الحكم جاء قاسيا وغير متوقع وغير

رحيم " خلافا للضمانات التي أعطيت لنا " وأشار إلى أن الهجرة من إيران ، التي تستضيف اكبر طائفة يهودية في الشرق الأوسط ، زادت منذ بدأت القضية " وقال طلبت عقد اجتماع مع الزعيم الأعلى ومع الرئيس لبحث هذا الأمر وقضايا أخرى " . هنا مربط الفرس كما يقولون " فما هي الضمانات التي أعطيت ؟ ومن الذي أعطاهم إياها ؟ وعلينا أن نربط العلاقة بين الضمانات وحركة الهجرة التي أشار إليها ممثل اليهود في مجلس الشورى . أليس من المحتمل أن الإشارة إلى الهجرة -وخصوصا أنها مرتبطة بالقضية - طرحت على بساط البحث بين الطائفة وحكومة خاتمي " مفادها " إذا لم تتعاملوا معنا كطائفة لها حقوق مصانة "فإننا نفضل الرحيل من إيران " ولا بد أن إسرائيل والولايات المتحدة أفضل مكان للطائفة فهناك وحده يقدم للطائفة حقوق مميزة ومفضلة عن بقية الناس المهاجرين ! وبذلك تشعل إسرائيل حربا شعواء " وتصعيد مفتعل حول المحاكمة " فإذا نجحت مع الشركاء والحلفاء في تخفيف الحكم من الإعدام إلى متوسط ثمان سنوات للمتهم الواحد " فإن مزيد من الحرب يحقق انتصارا جديدا في التخفيف على الأحكام ذاتها . وفي كلا الحالتين " هناك رغبة " أن تترك الطائفة اليهودية في إيران تفعل ما يحلو لها باسم حقوق الاقليات " وتوصل إسرائيل والولايات المتحدة والغرب " لليهود والاقليات الدينية في العالم أنهم فئات محمية من تلك القوى ومسنودة بأصواتها العالية وضغوطها المتعددة الوجوه بما في ذلك وجه الذهب الأصفر عبر الاستثمارات والمساعدات الدولية التي تتحكم في صمامها البيوتات المالية الكبرى " وفي احسن الأحوال " تنتصر إسرائيل -إذا لم تترك الطائفة طليقة اليدين والحقوق في إيران وتفعل ما تشاء - في نهاية المطاف حينما يقرر يهود إيران " أو بتعبير أدق الإيرانيون اليهود (يصبحون يهود إيران إذا ما تخلو عن جنسيتهم وذهبوا إلى إسرائيل) اتخاذ قرار الرحيل والى الأبد إلى أرض الميعاد " فإسرائيل " بحاجة دوما إلى " يهودها " مهما كانت ثقافاتهم ولغاتهم وعاداتهم وانتماءاتهم السابقة " المهم أن تكون يهوديا

مخلصا لمشروع الدولة العبرية . ما قاله كلينتون وجوسبان وباراك بعد نطق الحكم يؤكد كم هي الطائفة اليهودية عزيزة على قلب الرئيس الأمريكي ' فتصريحه مهم للتسويق الداخلي لحزبه وانتخابات الرئاسة : " لقد أصبت باضطراب شديد . . أصبنا بخيبة أمل شديدة وندعو الحكومة الإيرانية إلى تصحيح فشلها فورا عبر إلغاء هذه الأحكام الجائرة وسنستمر في تعبئة صفوفنا من اجل هذا مع حكومات أخرى ومنظمات معنية ضمن إطار قلقنا الشديد حيال معاملة" الاقليات واحترام حقوق الإنسان في إيران " . وكشف جوسبان عن وجود أوركسترا جماعية ضاغطة على إيران ' تمتد من أوروبا إلى ما وراء المحيط الأطلسي ' حين قال " أن فرنسا أجرت الاتصالات الضرورية لكي تتمكن أوروبا كلها ' مع شركائنا من التعبير بهذا الاتجاه " . اتجاه الضغط والاحتجاج ضد حكومة خاتمي ' والتي تهيأ نفسها على الانفراج على الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية . أما باراك ' والذي وصف الإيرانيون اليهود الجواسيس " بالأبرياء " متناسيا أن العالم ما عاد يصدق أن الجواسيس بإمكانهم أن يكونوا أبرياء ' حتى وإن نجحت لعبة الضغط لتخفيف الأحكام ' سواء في تجربة قبرص أو تجربة سويسرا مؤخرا ' ففي حرب المصالح بين البلدان يصبح التجسس عنصرا من عناصر الأمن القومي ' وخصوصا إذا ما كانت بلد مثل إيران تعتبر الخط الأول في جبهة الأعداء لإسرائيل والولايات المتحدة . البيان الصادر من مكتب باراك بعد نطق الأحكام " يندد بالأحكام القاسية التي صدرت بحق أبرياء لم يرتكبوا أي جريمة ' حسب قوله ' وان رئيس الوزراء عمل بشكل مكثف مع عدد من قادة العالم ليمارس عبرها ضغوطا على السلطات الإيرانية ' وهو يدعو الأسرة الدولية إلى مواصلة ضغوطها على السلطات الإيرانية بهدف الإفراج عن السجناء الأبرياء " . لا أعرف ماذا اكتب أو أقول ' هل احسد اليهود لأنهم لديهم عالم يدافع عنهم بهذه الضراوة والقوة والحمية حتى وإن كانوا متهمين بالتجسس (وطبعا ليسوا أبرياء!) . وإذا ما نجح الضغط في إطلاق سراح المتهمين ' هل

تتحول الجاسوسية إلى تهمة خفيفة ولطخة عار عادية تجاه الوطن ' وعلى الجواسيس أن لا ينزعجوا ابد ' وخصوصا الذين يعملون لدولة عظمى ودولة مثل إسرائيل ' فلديها وسائل ضغط " رهيبة " تجعل من الآخرين خدم يركعون لتهديداتها المبطنة والمكشوفة .فحملة إسرائيل الإعلامية وهجومها على إيران قد أثمرت ' ليس على صعيد الأحكام وحسب ' بل والى تصريح خاتمي الهام والمهم بقوله " نحن لم نتدخل عمليا (قضية عملية السلام) في هذه القضية ' ولن نتدخل مستقبلا " . وفي ذلك إشارة واضحة على الاستعداد للمضي قدما في ترك الآخرين في منتصف الطريق ' فلدى إيران من الأعباء ما يكفيها ' وعجلة التنمية لديها معطلة منذ زمن الثورة ' وبدون دماء الرساميل والاستثمارات الأجنبية فإن الجسم الإيراني سيبقى نصف مشلول إن لم نقل كله .

خاتمي وماراثون الانتخابات الإيرانية المبكر

تبدو للناس العاديين أن انتخابات الرئاسة في إيران بعيدة بعض الشيء ' إذا ما قيست من الناحية الزمنية ' غير أنها في الحسابات السياسية زمنها الحقيقي يعتبر قد بدأ ' سواء من حيث التحضير والإعداد لانتخابات عام ٢٠٠١ المزمع عقدها في ٢٣ مايو 'أو من حيث قراءة النتائج للسباقات السياسية الأخرى التي فرزتها الأحداث خلال السنوات الثلاث والشهور اليتيمة على كافة الأصعدة ' وبالتحديد النتائج المبهرة في انتخابات مجلس الشورى وانتخابات البلدية ' ودون شك أيضا انتخابات الرئاسة ' والتي حقق فيها خاتمي فوزا ساحقا تجاوز ٧٢٪ من نسبة الأصوات . تسعة شهور تفصلنا عن انتخابات الرئاسة القادمة في إيران ' والتي ستكون دون شك معركة حامية الوطيس ' ولكي يدخل المعركة الطرفين الرئيسيين في الانتخابات ' الاصلاحيون والمحافظون برؤية وتكتيك جديدين لابد من رصد التحولات والإنجازات القصيرة الأمد لحكومة خاتمي ' وطبيعة أداء حكومة خاتمي خلال فترة رئاسته والتي شابتها الكثير من المواجهات والتوترات والاغتيالات ' غير أن معالجة خاتمي للموزاييك الإيراني الداخلي وتوقيت إيقاعه المنظم في برنامجه

ولقاءاته بدول عدة لكسب علاقات إيرانية خارجية متينة ولضمان هذه العلاقات ' بل وتحركت حكومة خاتمي بشكل منظم وهادئ مع دول عربية وإسلامية بهدف كسر طوق العزلة والجمود التي ورثتها من مرحلة الثورة والجمهورية الإسلامية إبان تصعيدها وتصديرها لمشروع الثورة الإسلامية 'مما ادخل الثورة منذ سنواتها الأولى في إشكاليات عدة وعداءات لا حصر لها نتيجة لتدخلاتها في الشؤون الداخلية للبلدان . اليوم يحاول خاتمي تخطي تلك المرحلة بكل ظلالاتها الداكنة من اجل بناء علاقات إيرانية جديدة مع الجميع ' تساهم من خلالها مثل تلك العلاقات ' على بناء إيران عصرية وقوية وناهضة بمشروعها الحضاري والتنموي . فالرئيس خاتمي منذ سنوات تبوأه كوزير للثقافة ' كان حاملا لمشروع حوار الحضارات بين الشرق والغرب ' بين الإسلام والفكر الغربي التحديثي ' بكل توجهاته الليبرالية ومنظوره الواسع لمفهوم الحريات والحقوق المدنية ودولة القانون والتعددية السياسية وحق حرية التعبير' وحقوق الإنسان في إيران في ممارسة مسؤولية واعية لواجباته ' وإدراك الأفراد والجماعات العرقية والثقافية لدورها الحقيقي في نظام سياسي يكفل حقوق متساوية للجميع ' انطلاقا من الشرعية الدستورية وحق المواطنة . لقد حمل خاتمي مشروعه الإسلامي التنويري المبكر والمختلف عبر سلسلة مقالاته ومحاضراته وحواراته مع مراكز عدة داخل إيران وخارجها ' وكان على خلاف جوهري مع الجماعات الدينية المحافظة ' والتي رأى فيها جمودا سياسيا ودينيا وفكريا وابتعادا عن المشروع الثوري الإسلامي الذي طرحه الإمام الخميني ' وتم قراءته من أطراف عدة بمناظير مختلفة . اليوم يحاول خاتمي نقل جوهر تلك الأفكار والصيغ الإسلامية التنويرية حول الحق والخير والعدالة والمساواة والحرية ' ومدى تقاطعها وتقاربها وتلاقحها مع قيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان والديمقراطية في الغرب ' مؤكدا في اكثر من ندوة وخطاب ' بأن الغرب ليس كله عالم من السلبيات لكي نرفضه ونقاطعه ونبني سياجا في مواجهته عن طريق العزلة والقطيعة . لقد حقق هذا المشروع

والبرنامج السياسي والفكري لخاتمي ' والذي تبنته مجموعة كبيرة من المثقفين الجدد والأكاديميين الإيرانيين ' على انه المعبر الحقيقي عن تطلعاتهم ' والتف حول ذلك المشروع التحرري لفيف واسع من القطاعات المختلفة ' كان الشباب والطلبة والنساء في مقدمة تلك القوى الانتخابية وصوتها الصارخ ' والتي على اكفافها ارتفعت أرصدة خاتمي ومجموعته في الجولات الثلاث من المعارك الديمقراطية ' فكانت صناديق الاقتراع وحدها المكان والصوت المعبر عن تلك النتائج وقوتها في الشارع السياسي الإيراني ' في الوقت الذي سعت المجموعات المحافظة بكل وسائلها وتأثيراتها خلخلة تماسك التيار الإصلاحي في أهدافه الرئيسية والاستراتيجية . وقد كشفت مذبحة مصادرة الصحف والمجلات من قبل القضاء المحافظ في الشهور الماضية ' وسلسلة الاغتيالات وتكميم الأصوات الشجاعة بإرهابها بالسجن والأحكام الجائرة ' وتعطيل فاعلية مجلس الشورى السابق برفض المشاريع الاقتصادية والقوانين المرنة والمنفتحة ' والتي تسمح باقتصاد إيراني فاعل يسهل من تدفق الاستثمارات والمساعدات الأجنبية والقروض الدولية الحيوية لأنشطة اقتصادية مخنوقة بسبب مخاوف وتضخيم التيار المحافظ من طبيعتها ' وأبعاد تلك الاستثمارات الأجنبية . وستشهد الشهور التسعة القادمة سلسلة من الصراعات الداخلية في مراكز القوى المتباينة ' فالتيار المحافظ لازال يدرك أن كعب أخيل المحافظين هو الحريات الإعلامية والصحفية ' وما تكفله من حرية النقد للممارسات اللا ديمقراطية في ايران ' فتلك وحدها التي تعري حقيقة المواقف والممارسات ' وبدون مجتمع حر ونقدي وعقلاني لا يمكن أن تتبلور التجربة البرلمانية والتعددية السياسية في إيران . وإذا ما تم خنق وتضيق منافذ الحريات تعطلت مشاريع عدة في تنمية المجتمع فكريا وسياسيا وثقافيا . وتدخل ضمن لعبة ماراثون الجولة الانتخابية للرئاسة منذ الآن اعتقال الصحفي الإصلاحي إبراهيم نبوي ثم تبعه اعتقال الصحفي محمد غوتشاني ' وكلاهما يحظيان بشعبية كبيرة في الوسط الشبابي والطلابي ' ولا يعبر ذلك الاعتقال

الاحتياطي إلا عن حالة واحدة هو محاولة قطع علاقة التواصل بين تلك الأقلام الإصلاحية وشريحة من المجتمع تشكل قوة انتخابية فاعلة في صناديق الاقتراع . ويتواصل هذه الفترة مجلس الشورى لمناقشة مشروع هام يلجم قوات الشرطة بعدم التدخل في المراكز العلمية وحرم الجامعات ' معبرا هذا المشروع الجديد عن رغبة التيار الإصلاحي بمنح مناخ الحريات والتعبير داخل المؤسسات العلمية مساحة اكبر من الحركة ' ومن جهة أخرى لجم قوى الأمن والشرطة من تعكير صفو الحريات دون أسباب منطقية ومعقولة ' وبذلك تقطع تلك المشاريع الطريق على التيار المحافظ في فرض أساليبه ومنهجه على حق الطلبة في الكلام والتعبير والخطابة . وسيتحول مجلس الشورى الإيراني في الشهور التسعة القادمة إلى ميدان مكشوف من المعارك السياسية بين التيارين ' حول مجموعة من القوانين والتشريعات التي فرضها في الماضي أو يرفضها حاليا التيار المحافظ في إيران . وجاء مرسوم الرفض والمنع حول تعديل قانون الصحافة من قبل مرشد الجمهورية دليلا ساطعا على عدم رغبة التيار المحافظ بترك أجراس الصحافة تقرع في شتى الأمكنة دون رادع ' فهي توقر آذانهم وتقلقهم كثيرا ' فأصوات الموسيقى الصاخبة للشباب تعكر راحة المحافظين فهي وحدها عنوان للانحلال الخلقي ' واختلاط الجنسين ليس الا انهيارا للقيم ' فمثل تلك الأصوات ليست الا أصوات نشاز للإصلاحيين ' تصب في نهاية المطاف في صناديق الاقتراع الانتخابية . وبجرد حساب بسيط سياسيا فإن التيار المحافظ يحاول إغلاق منفذين أساسيين مؤثرين على الأصوات الانتخابية ' هما الصحافة والبرلمان ' وإذا ما ترك الحبل على الغارب – من وجهة نظر المحافظين – فإن مستقبل الثورة والجمهورية الإسلامية في خطر . تبقى هناك مسألة جدير بنا التوقف عندها ' ألا وهي دعوة مرشد الجمهورية خامنئي للرئيس خاتمي بأن يتمثل ويقتدي الرئيس نلسون منديلا الذي تنحى عن السلطة ' تاركا الطريق لنائبه ' وكأنما هناك رغبة خفية بعدم تشجيع خاتمي بدورة رئاسية ثانية ' وذلك شعورا من

المحافظين بأنهم لا يمتلكون شخصية سياسية منافسة بحجم قامة خاتمي السياسية والشعبية . وإذا ما اكتسح خاتمي هذه المرة المحافظين بنسبة تفوق نتائج انتخابات الرئاسة السابقة(*) ' وهذا ما تؤكد عليه نتائج انتخابات مجلس الشورى كتمرين عام وترمومتر انتخابي لقوة التيار الإصلاحي في إيران ' فإن التيار المحافظ - دون شك - سيطرح مشروع أن رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية ينبغي ألا يرشح للرئاسة لاكثر من دورتين انتخابيتين !! . ويجمع المراقبين من كل الاتجاهات حول ايران ' مهما اختلفوا أو اتفقوا معها ' عن أن التجربة الإيرانية الانتخابية تبقى مهمة من الناحية الديمقراطية ' وهي بكل ما بها من سلبيات تظل بحاجة للوقت والمراقبة والتعميق ' فالدول المتطورة والنامية بحاجة لديمقراطية نامية دون انقطاع من اجل أن تتطور في مسارها الصحيح ' برغم المعوقات والتحديات الكبيرة التي تواجهها تجربة خاتمي مؤخرا في إدارة الدولة ' وهي تجربة قصيرة وجديدة .

(*) - كانت تقديراتنا سليمة تجاه نتيجة الانتخابات . فقد حصل خاتمي على أكثر من ٧٧٪ من نسبة الأصوات .

المحتويات

لقد اهتمت الولايات المتحدة بالشأن الأفغاني بقوة وبحدة بعد غزو السوفييت أفغانستان. فقد استشعرت أكثر خطورة اقترابه من منابع النفط والبحيرات الإنكليزية السابقة هكذا كانت تسمى منطقة بلدان الخليج النفطية في زمن الشاه، والمرحلة الكولونيالية. وهناك أسباب وحقائق تاريخية جعلت من الولايات المتحدة تهتم بالمجموعات الإسلامية المقاتلة في تلك المرحلة. فقد أولتهم كل رعايتها وأوصت بهم لدى الأصدقاء والحلفاء.

لقد تغيرت الظروف، فكيف ستنتهي معركة الولايات المتحدة مع حركة طالبان لأسباب عدة ومن أهمها قضية تسليم بن لادن؟



